﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾
﴿صدق الله العظيم﴾

الإسلام
الدين الفطري الأبدي!

تأليف

المبلغ الإسلامي سماحة العلامة
أبو النصر مبشر الطرازي الحسيني

كبير علماء تركستان

مع اعترافات الأجانب المنصفين والتعليق عليها

الجزء الأول

أفلت شموس الأولين وشمسنا أبداً على أفق العلى، لا تغرب

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

يطلب من : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب ٩٤٢٤-١١ - تلكس : NASHER 41245 Le

إجمال من ترجمة حياة المؤلف

هو سماحة العلامة أبو النصر مبشر الطرازي الحسيني، من أسرة عريقة شريفة النسب، معروفة بالعلم والزعامة الروحية والوطنية في تركستان الغربية.

ولد بمدينة طراز في ٢٧ رجب ١٣١٤هـ من والده سماحة الشيخ السيد محمد خان بن الشيخ السيد محمد غازي خان. وكان والده عالماً كبيراً مرجعاً للأمة في الفقه الحنفي وشيخاً للطريقة النقشبندية.

وينتسب الطرازي من ناحية أمه إلى الحسيب النسيب السيد بزرك خان آخر الأمراء للدولة الإسلامية في تركستان الشرقية التي أسسها جده الأمير السيد هداية الله خان المعروف في التاريخ بلقب (آفاق خوجم) والتي دامت ثلاثاً وتسعين سنة، إلى أن تنازل عن عرشها الأمير السيد برزك خان لقائد جيشه الأمير يعقوب خان، وهاجر إلى الحرمين الشريفين واشتغل بعبادة الله تعالى حتى توفي بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع.

نشأ الطرازي بطراز وتلقى تعليمه الابتدائي على يد أساتذة خاصة، ثم انتقل إلى تاشكند (طشقند) حيث أتم الثانوية والعالية، وتخرج من جامعة أبي القاسم خان في تاشكند.

ثم أتم دراساته العليا بجامعة بخارى بدرجة ممتاز في العلوم النقلية والعقلية بعد الأمتحان فوق العادة من هيئة الممتحنين الأميرية برئاسة الشيخ برهان الدين قاضي قضاة بخارى، كما تخصص في علم التفسير والحديث والأدب العربي على يد شيخه الشيخ محمد سعيد العسلي الشامي، وحصل منه على سند الحديث

الشريف. وقد عزز شيخه السند بقصيدة يقول في مطلعها:

أهدي ومن خير الذي أهديته سند البشير المصطفى لمبشر

وقد اشتهر الطرازي بعد الحصول على تلك الدرجات العلمية في تركستان وبخارى بلقب العلامة.

كتب مقالات في شتى الموضوعات (وهو طالب) في صفحات مجلة (الإصلاح) بتاشكند ومجلة (آيينه) بسمرقند.

عين رئيس التحرير لمجلة (الإيضاح) التي كانت تصدرها جمعية العلماء بتاشكند وهو طالب في الجامعة.

وأسس الطرازي جمعية الطلبة العامة لتركستان في سنة ١٩١٧ في سبيل الحصول على استقلال تركستان.

عمل مدرساً للعلوم الإسلامية بمدرسة والده بمدينة طراز وفي تاشكند.

وفي سنة ١٩١٧ تعين ممثلا لتركستان في المجلس التشريعي لشعوب روسيا بقرار من المؤتمر العام الشعبي وكان ذلك في عهد كرينسكي بعد سقوط نيقولاي عن عرشه.

تعين بالإجماع من قبل الشعب قاضياً للشريعة الإسلامية في مقام شيخ الإسلام في تقاليد تركستان.

ثم انتخب الطرازي من قبل المؤتمر الشعبي في تركستان رئيساً للنظارة الدينية في سنة ١٩٢٦.

حفلت حياة الطرازي بكثير من النضال في سبيل مصلحة شعبه ودينه الإسلام في تلك الفترات بعد تسلط الشيوعية على تركستان، وكان في السجن مراراً وفي المنفى مرة حتى هاجر في سبيل الله ورسوله.

وبعد ذلك فى سنة ١٩٣٠ هاجر الطرازي إلى أفغانستان فأكرمه مليكها محمد

نادر شاه ومنحه الجنسية الأفغانية فوق العادة وعينه عضواً بالديوان الملكي برتبة مدير عام، كما عينه عضواً في الأكاديمية الأدبية الأفغانية، ثم تعين عضواً لتأليف دائرة المعارف الأفغانية وكتب مادةالإسلام فيها.

وفي سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ سافر الطرازي إلى السعودية في عهد المغفور له الملك عبد العزيز في وفد وكيلا لرئيسه الأمير أحمد شاه خان وعقد معاهدة الصداقة بين الشعبين السعودي والأفغاني ومن ذلك التاريخ وطدت الصداقة بين الطرازي وبين الأسرة المالكة السعودية.

وفي سنة ١٩٣٦ سافر الطرازي إلى بلاد الهند (قبل استقلالها وتقسيمها إلى باكستان والهند) حيث التقى بكبار علمائها وزعمائها المسلمين، وألقى محاضرته المعروفة «وجوب الاتحاد الإسلامي» في المؤتمر السنوي لجمعية حماية الإسلام في مدينة لاهور بدعوة من رئيسها العلامة الدكتور إقبال فيلسوف باكستان، وهذه المحاضرة طبعت مع ترجمتها الأردية من قبل تلك الجمعية ونشرت في أنحاء بلاد الهند، توجد نسخة منها في دار الكتب المصرية.

سأله مدير جريدة الجمعية في دلهي عاصمة الهند قائلاً: «ما هو العلاج ضد الإستعمار؟» فأجابه بقوله «الأخوة والاتحاد». ونشر في نفس الجريدة بالفارسية والأردية.

كما ألقى محاضرات عديدة في نيودلهي إجابة لدعوة الهيئات الإسلامية وكان سماحة الشيخ كفاية الله خان مفتي المسلمين يقدمه للحاضرين.

وإجابة لطلب الزعيم المسلم ظفر علي خان رئيس تحرير جريدة «زميندار» وجه الطرازي رسالة إلى الشعب الهندي نصحه بالتزام التضامن والاتحاد ضد الاستعمار. وقد نشروها بعنوان «علامة طرازي كابيام، مسلمانان هندكي نام».

ومما يذكر هنا، أن العلامة الطرازي اتحادي منذ أن كان في الجامعة بتركستان، وعلى هذا المبدأ الاتحادي كتب وتكلم كثيراً في الوحدة العربية بعد

قدومه إلى مصر وكتب فيما كتب إلى الملوك والرؤساء وسائر زعماء العرب والمسلمين يدعوهم إلى توسعة الوحدة العربية إلى الوحدة الإسلامية الشاملة.

ثم في سنة ١٩٤٩ وبعد أن ناضل لتحرير وطنه تركستان مدة وتزعم حركة التحرير ترك العلامة الطرازي أفغانستان وقدم إلى القاهرة (كما نشر في الصحف المصرية) حيث يقيم شاكراً مع أفراد أسرته في ضيافة الشعب المصري وحكومته الرشيدة.

اشتغل الطرازي في مصر بالقضايا العربية والإسلامية في المؤتمرات والهيئات بما فيها قضية تركستان، وأرسل مذكرة عن حالة وطنه ووجوب استقلاله إلى هيئة الأمم المتحدة بتوقيعه و بصفته زعيم تركستان، وكان ذلك حينما كان عضواً لمجلس إدارة هيئة جماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية بالقاهرة، إلى أن ترك السياسة منذ أكثر من عشر سنوات. وللطرازي محاضرات ألقاها في القاهرة في مناسبات شتى، ومقالات نشرت فيها وفي الصحف في البلاد العربية للتبليغات الإسلامية ولا سيما في مجلة «منبر الإسلام» التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.

ولسماحة العلامة الطرازي مؤلفات كثيرة في اللغات التركية والفارسية والعربية. ومن أشهر مؤلفاته التركية هو:

كتابه «قرآن ونبوت» الذي ألفه في طشقند رداً على كتاب «محمد إلهي بيغمبر ميدر؟» الذي ألفه نعمت حكيم الدهري استنكاراً لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وقد كان في السجن على أثر هذا التأليف وصودرت جميع مؤلفاته وقصائده ومقالاته، ويقال إن كتابه هذا محفوظ في مكتبة النظارة الدينية بموسكو.

ومن أشهر مؤلفاته الفارسية هو:

كتابه «مثنوى آيينه جهان» المنظوم في موازنة مثنوى مولانا جلال الدين الرومي المتوفي سنة ٦٧٢هـ. وكتابه «عسكريت در إسلام» وكتابه «حقوق زن در إسلام» وكتابه «شراب منوش» وكتابه «أدب و إنشاء» وكتابه «حل العقال،

شرح عقد اللآل» لقصيدته «عقد اللآل، في عقد الأمثال».

وأما مؤلفاته العربية فأشهرها هو: كتابه «كشف اللثام عن رباعيات الخيام» وقد طبعته وزارة الثقافة، وكتابه «نبذة من السيرة النبوية» طبعه ونشره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، مع مقدمة وإجمال من حياته. وكتابه «إلى الجندية أيها العرب» يتعلق بقضية فلسطين، وكتابه «التعليقات الطرازية، على المجموعة النبهانية في المدائح النبوية» وكتابه «الجهاد والجندية في تعاليم الإسلام»، وكتابه «المرأة وحقوقها في الإسلام»، وكتابه «صيام رمضان» وكتابه «أوائل الشهور العربية» وكتابه «الأربعون الطرازية».

وأهم مؤلفاته الجديدة كتابه في جزئين «الإسلام الدين الفطري الأبدي» في دعوة البشرية عامة والغرب خاصة إلى الدين الإسلامي.

بِسمِ الله الرحمن الرحِيمُ

الحمد لله الذي خلق للإنسان عقلاً يميز به الطريقين، حيث قال ﴿وهديناه النجدين﴾ يعرف به طريق الخير فيتبعه ويسلكه، وطريق الشر فيجتنبه ويتركه، مهتدياً إلى ما يتفق مع حياته الإنسانية، ومسترشداً نحو سعادته الأبدية، حتى يعيش في الدنيا حياة شريفة طيبة، وينال في الآخرة نعمة خالدة صيبة، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمد الأمين، الذي بعثه خاتماً للأنبياء والمرسلين، وأرسله كافة للناس ورحمة للعالمين، فأصبح دينه ديناً عالمياً لكافة الإنسان ومذهباً أبدياً ما دام الدهر والزمان، وعلى آله الذين تأدبوا بآدابه وسيرته، وأصحابه الذين تمسكوا بكتابه وسنته، وقد أيدوه وآزروه في نشر دينه ورسالته، ونصروه في هجرته وبث تعاليمه وشريعته.

أما بعد: فقد تطورت الحياة في عالم البشرية اليوم تطوراً لا يتفق مع كرامته الإنسانية، وتخالف مصلحته الحيوية، حيث انتشرت في ربوعه الشيوعية، مبادىء كارل ماركس الإلحادية، وأرغمت جزءاً كبيراً منه تحت حكمها في الشرق والغرب، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقامت مذاهب هدامة أخرى يحاول كل منها أن ينشر آراءه وأهدافه بين أفراد الناس الذين فقدوا صوابهم في مناهجهم الدينية، وكادوا أن يعتنقوا كل ما يروق في أنظارهم الخاطئة حتى المادية، ومن ناحية أخرى: إن الديانة المسيحية قد فقدت رونقها ومكانتها في أنحاء العالم خصوصاً في البلاد الغربية، وإنما ذلك بعد انكشاف بطلانها في طقوسها، ولا سيما في القول بالتثليث وغيره الذي

يخالف نصوص الإنجيل الصحيح قبل تحريفه، وتصرف الأيدي المغرضة فيه، مما لا يتفق مع العقل البشري والضمير الإنساني، وكان الانكشاف نتيجة لتقدم العلم ونضوج الفكر، وإثر ما قام به المفكرون الأحرار من التحقيق خدمة للحقيقة والتاريخ، ومساعدة فكرية لشعوبهم في التخلص عما يضرهم ولا ينفعهم من العقائد والآراء التي سادت عليهم مدة من الزمن. هذه ما آلت إليه الديانة المسيحية اليوم، وماذا تسأل عن الديانة اليهودية.

وعلى أثر هذا التطور الخطير وقع عالم النصرانية واليهودية في مشاكل دينية واجتماعية وسياسية، فأصبح بطبيعة الحال يتطلب ديناً آخر يهديهم إلى ما هو الخير في شئون الحياة ويمتعهم بالمساواة الحقيقية، والحرية الطبيعية والتمدن المعقول والسلم والصلح.

وإني لا أنظر إلى تلك المباديء وإلى الحياة السائدة في عالم الغرب نظرة العداوة، وإنما أنظر إليها نظرة مبلغ إسلامي مخلص ينصف في حق بني نوعه الإنساني ويريد له كل خير.

وبهذه الإرادة أؤلف كتابي هذا وأقدمه للعالم البشري عامة والعالم الغربي خاصة، أدعو الناس إلى الدين الفطري الأبدي، دين عالمي خالد، يجدون فيه بغيتهم في ظل تعاليمه الحكيمة، ألا وهو دين الإسلام المقدس.

«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

وأسأل الله عز وجل أن يجعل كتابي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي ولناشره بفضله العميم، وأن ينفع به (وهو قليل) الكثير، فإنه نعم المولى ونعم النصير آمين.

المقدّمة

يليق بنا أن نقدم الكتاب بمقدمة تحت عنوان «التدين» تقريباً للقراء إلى فهم الغرض المقدس الذي ننشده، والمقصد الأسنى الذي نقصده، الا وهو دعوة البشرية عامة، والكتلة الغربية خاصة «إلى الدين الفطري الأبدي» الدين الإسلامي وأحكامه الحكيمة، والتوجيه نحو حياة شريفة في ظلال تعاليمه السليمة، التي لا تختص بالشئون الدينية، بل تعم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مما يهدي الإنسان إلى السعادة الأبدية، في حياته الدنيوية والأخروية، فقد قال الله عز وجل «إن الدين عند الله الإسلام» الآية[1] وقال «فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[2].

التَّديُّن

لقد ثبت لدى الباحثين، واتضح عند المنصفين، الذين اهتدوا إلى سبيل الحق والصواب، وعرفوا طبيعة البشر معرفة أولى الألباب، أن الإنسان واقع بين النفس الأمارة، وبين النفس اللوامة، فقد خلقه الله الخالق الحكيم على العقل والشهوة، (وخلق الملك على العقل البحت، والحيوان على الشهوة البحتة).

فإذن الإنسان (بطبيعته التي خلق عليها) في أمس حاجة (لا بد منها في شئون

---

(١) الآية ١٩ ـ آل عمران.

(٢) الآية ٣٠ ـ الروم.

حياته) إلى رادع يردعه عن اتباع النفس الأمارة بالسوء، وإلى وازع يصرفه عن ميله الطبيعي نحو الشهوة ميلا مفرطاً يخل بمقامه الإنساني، ويوجهه لمتابعة النفس اللوامة، ويرشده إلى تلبية العقل وإجابته، حتى لا يحيد عن الخير نحو الشر.

ولهذه الحقيقة الثابتة فإن عالم الكون الذي يرأسه البشر، يتطلب بطبيعته تعليمات تكفل محافظته عن الشرور والفساد، وتسوقه نحو التقدم في طريق الرشاد، وترد جماحه وتحدو به إلى ساحة الصلح والسلم والأمن في البلاد.

تعليمات تهيء للمجتمع الإنساني منهجاً سليماً وطريقاً مستقيماً، للوصول إلى ما يليق به، ويتفق مع كرامته، ويتمشى ومصلحته، من حياة مهذبة هادئة، يتمتع فيها بحقوقه، ويحترم حقوق غيره.

نعم: إن هذا أمر طبيعي يقتضيه الكون بطبيعته، ويستوجبه بخلقته، اقتضاء ساذجاً لا يستند إلى أي دافع من خارج نفسه، واستيجاباً لا يستلزم دليلا من قريب أو بعيد.

ولهذا فإننا نرى لكل قوم منهجاً يعيش في ظلاله، ولكل دولة دستوراً تقوم على أساسه، ولا يمكن أن يحيا قوم حياة معقولة، ولا هادئة ولا شريفة، عن طريق الفوضوية والإباحية، والحرية المطلقة التي لا قيود فيها، كما أنه لا يمكن أن تبقى دولة لا تقوم على دستور أو نظام ترتبط به في تدبير شئونها وسياسة بلادها.

وبتعبير أو تفكير آخر:

إن طبائع أفراد البشر مختلفة في خلقتها. فقد قال الله عز وجل في كتابه المجيد: «إنا خلقناكم شعوباً وقبائل»، فلكل فرد نزعة، ولكل امرئ إرادة، مما يناقض بعضه بعضاً، فيؤدي إلى الاختلاف والإخلال بالأمن العام والحياة الهادئة في هذا الكون المشترك.

إذن فإن المجتمع البشري في أشد حاجة (بطبعه) إلى تعليمات ترد جماعة من

غوايته، وتحول دون انطلاقه المطلق في حرية إرادته، انطلاقاً يؤدي إلى الخراب في شئون الحياة المشتركة.

تعليمات تجمع أفكار الأسر، وأهواء المجتمع العالمي حول نظام عمومي يشمل جميع نواحي الحياة، حتى يتسنى له التقدم نحو الغاية المنشودة ، ألا وهي السعادة في ساحة هذا الكون، وفيما ورائه من الكون.

وما هي التعليمات؟

ولا شك في أن القارئ يتساءل هنا ويقول: وما هي التعليمات؟

أوضعية أم سماوية؟ وهذا تساؤل يستوجب الإجابة عنه.

والواقع أن تلك التعليمات لا تخلو من أن تكون وضعية أو سماوية، فعلينا أن نعرف ونعرِّف كلاًّ على حقيقته، وأن نبين ونتبين الفوارق بينهما، وذلك لا يمكن إلا بالإشارة إلى الخصال الخاصة بهما.

فأما التعليمات الوضعية: فإنها عبارة عن قوانين يضعها علماء كل شعب وزعماؤه ومفكروه، ليعيش تحت ظلالها.

وأما التعليمات السماوية فإنها عبارة عن أحكام صادرة من قبل خالق الكون وعالم أسراره وما يضره وما ينفعه، وقد وصلت إلى المجتمع عن طريق الوحي إلى الأنبياء والمرسلين ثم على صفحات الكتب السماوية، وبتعبير آخر: عن طريق دين من الأديان.

وكل من التعليمات (الوضعية والسماوية) معمول بها بين الشعوب والدول على اختلاف مللها ونحلها، وتعدد آرائها وميولها.

ولكن هناك فوارق واقعية بينهما، تعين ميزتهما وتحدد قيمتهما في أنظار من ينظر إليهما بعين التحقيق والإنصاف.

إن التعليمات الوضعية (القوانين) لا تستحق الاعتماد عليها اعتماداً كلياً في شئون الحياة لهذا الكون، إن لم توضع على أساس من التعليمات السماوية.

وبتعبير آخر: إنها لا تستطيع وحدها أن تتكفل لعالم البشرية في أن يعيش حياة سعيدة، أو توفر له وسائل السعادة، وذلك بوجوه:

الوجه الأول: إن عقول العلماء والزعماء والمفكرين الذين وضعوا التعليمات الوضعية عاجزة (مهما قويت) عن الإحاطة بجميع مصالح المجتمع البشري، كما أنها قاصرة عن تقنين قوانين تحيط بشئون المجتمع كلها بحيث تتفق مع الطبائع المختلفة لكل قوم وقبيلة، فإن الأقوام والقبائل البشرية إنما خلقهم الخالق سبحانه على طبائع وأطوار يختلف بعضها عن بعض في ميولها ونزعاتها، كما أخبر في كتابه المجيد وقال: «إنا خلقناكم شعوباً وقبائل».

ولهذا فإننا نرى المجتمع الذي يتبع التعليمات الوضعية المحضة، كثيراً ما يقع في أخطاء جسيمة تصيب شئونه الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، كما يصاب بأضرار التفرق والتخرب بين أفراد شعبه، ويعيش في قلق واضطراب واختلال في أمنه، فيضطر بمرور الزمان وتطور الحالة أو بإيجاب طبيعي من قبل شئون الاجتماع، إلى تبديل نظمه المتبعة، وتعديل دستور بلاده وقوانينها الموضوعة.

الوجه الثاني: إن التعليمات الوضعية لا تستطيع أن تؤثر في حالات المجتمع المعنوية تأثيراً كما يجب وينبغي، حتى تجعل أفراده وأبناءه متخلقين بالملكات الحسنة، التي تعد أساساً للعدالة والإنصاف ورعاية الحقوق بين بعض وبعض. وبتغير آخر. إن التعليمات الوضعية إنما تتخذ الجسم والظاهر الإنساني تحت النظر والاعتبار فحسب. ولهذا فإن مطالبها تصبح محدودة بهذا الحد، وأما التعليمات السماوية فإنها تؤتي أثرها الواضح البارز في معنويات المجتمع، ولا تختص مطالبها فيما يتعلق بالجسم والظاهر أو الشئون السطحية، بل تشمل المطالب الروحية، بحيث تربي أبناء المجتمع بهذين المبدأين.

والوجه الثالث: إن التعليمات الوضعية إنما توضع لحفظ النظام العام في حياة المجتمع، ولا تعالج إصلاح القلوب وتقوية الأخلاق معالجة يعتد بها، أو تذكر، وأما التعليمات السماوية فإنها تقوم بإصلاح قلوب المجتمع وتكسبه قوة

في العقيدة والأخلاق، مما يؤدي به إلى التمسك بالمثل العليا والوعي الصحيح النافع، وذلك من فيوضها الصادرة من وحي السماء.

الوجه الرابع: إن التعليمات الوضعية لا تتمكن (بالخاصة) من أن تخفف محبة الدنيا (أو حب المادة) عن قلوب المجتمع الذي يعيش بها، أما التعليمات السماوية فإن من خصالها القدسية تخفيف محبة الدنيا أو حب المادة عن قلوب أتباعها المتمسكين بها.

ولا شك في أن حب الدنيا والمادة رأس كل خطيئة وسبب كل جريمة واعتداء على الحقوق، وهو الباعث الأول للمنافسات والمنازعات والمخاصمات، مما يؤدي إلى القلق والاضطراب الاجتماعي والإخلال بالأمن.

ولهذا حذر عنه رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام حيث قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» مع أن ما قلناه شيء مشاهد لا يحتاج إلى الاستدلال بشيء، وقد أحسن الشاعر وقال:

وليس يقر في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

الوجه الخامس: إن التعليمات الوضعية لا تستلزم خوف الله سبحانه غير الخوف من سلطة الحكومة، وأما التعليمات السماوية فإنها تدعو قبل كل شيء إلى الخوف من الله العلي القدير، كما أنها تأمر بإطاعة أولى الأمر الحكومي ومراعاة أوامر الحكومة، ومما لا شك فيه أن كمال الخلق وصلاح المجتمع إنما يبتني على الخوف من الله قبل كل شيء.

نعم! إن التعليمات الوضعية المحضة لا تستحق الاعتماد عليها اعتماداً كلياً في شئون الحياة في هذا الكون، وإنما يمكن الاعتماد الكلي على التعليمات السماوية، ويجب التمسك بها «فمن استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» وكيف لا؟ وقد أوحاها الله إلى أنبيائه ورسله (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وهو الذي يعرف طبائع عباده، ويعلم مصالح مخلوقاته. وقد أخذ كل ما يتعلق بشئونهم تحت نظره القدسي ولطفه الإلهي (سواء أكان جزئياً أو كلياً،

ظاهرياً أو باطنياً، مادياً أو معنوياً) وجعله سنة كاملة أبدية، وطريقة شاملة خالدة «فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا» ثم خاطب عباده من شعوب العالم وقال: «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

هذا. وإذا أردنا إثبات الغرض من هذه المقدمة بتوجيه آخر فنقول: إن روح الإنسان يصاب بالمرض كما أن جسمه يصاب به. ولكن الروح أقرب إلى الإصابة، نظراً إلى الجسم، لأن الروح شيء لطيف، ولهذا فإنه يتأثر من كل كلمة أو سماعها، ومن كل نظرة أو مظهر في ساحة الحياة، ولهذا نرى روح الإنسان يواجه المرض، وبالتالي الضعف في أكثر الأحيان، وفي النتيجة تبطل علومه، وتزول أنواره، وتفسد خصائصه الروحية، وبهذا يهبط مقام الإنسان ويصاب بالموت الروحي (المعنوي) وهو يعيش بين الأحياء، بحيث لا يفيده التعليم ولا الإرشاد ولا التبشير ولا الإنذار، وإلى هذا أشار الرب سبحانه بقوله: «لينذر من كان حياً» إلى حياة الروح، وأفاد أن قبول الإنذار إنما هو من خصال من له حياة روحية، وبقوله: «أو من كان ميتاً فأحييناه» أشار إلى أن صاحب الروح المصاب بالمرض الزوحي في حكم الميت من الناحية الروحية، وإن كان حياً من الناحية الجسمية، ولقد أفاد الشاعر هذا المعنى حيث قال:

لقد أبلغت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

إذن فإن الإنسان في أشد الحاجة إلى الطبيب الروحاني لمعالجة روحه، كما أنه في حاجة إلى الطبيب الجسماني لمعالجة جسمه، ليعيش في ساحة الحياة صحيح الروح والجسم، ويقوم بواجبه الإنساني كإنسان كامل الإنسانية، قوي البنيان والإيمان.

وبناء على هذه الحقيقة، فإن الله عز وجل (وهو الخالق الحكيم، والصانع المدبر) أرسل الأنبياء والمرسلين إلى هذا الكون العظيم كأطباء روحيين، ليعالجوا عالم الإنسان من الأمراض الروحية التي تعد أخطر من الأمراض الجسمية.

نعم! إن أولئك الأنبياء والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) أخذوا روح العالم الإنساني تحت الفحص والكشف والتشخيص الطبي الروحي، ووضعوا له أدوية روحية، وعالجوه معالجة روحية، كما وضعوا قوانين حفظ الصحة للروح، وإنما ذلك طبق ما أوحى إليهم من التعليمات السماوية.

وبهذا يظهر لكل من تذكر أنه لا يمكن للعالم الإنساني أن يستغني عن الأنبياء والرسل (الأطباء الروحيين) ولا يمكن أن يحيى حياة صحيحة بدون اتباع تعاليمهم، وقوانينهم المقتبسة من وحي خالق البشر وصانع الكون، الذي يعلم خير مخلوقه وشره، ونفعه وضره.

(٢) إن للإنسان ناحيتين: ناحية حيوانية لأنه حيوان أولاً، فإن الحيوان جسم نامي حساس متحرك بالإرادة.

وناحية إنسانية، تستند على النطق الذي يتكل على العقل، ولذا يقال: «الإنسان حيوان ناطق».

ولهذا فإن الإنسان كحيوان يسعى وراء المقاصد الجسمانية، كالأكل والشرب والنوم وسائر أغراض النفس والشهوة، وهذه المطالب مشتركة بين الحيوان والإنسان، فلا قيمة لها في المقام الإنساني، أو تقييم القيم الإنسانية.

وإلى هذا يشير الشاعر «بيدل» ويقول:

بسكوت بشرى فعل ديو شرمت باد
بحسن خلق برآي تو أحسن الأنواع!

استحي أن تفعل فعل الشيطان بالكسوة البشرية. إطلع إلى العالم بحسن الخلق، يا أحسن الأنواع (بين المخلوقات):

فعلى الإنسان أن يتصف بأوصاف الروحانية، والخصال الإنسانية، ألا وهي الديانة (التدين) والتمسك بأهداف الدين، وإلا فإنه إنسان في ظاهره وصورته، وليس بإنسان في صفته وسيرته، بحيث لا يكون نصيبه من الإنسانية إلا اسمه، ومن الآدمية إلا رسمه، وقد أحسن الشاعر حيث قال:

آدميت نه بجان ونه به ريش ونه به نطق
طوطي هم نطق وبزم ريش وخرم جان دارد

يعني: إن الآدمية ليست بالروح العادية ولا باللحية (الذقن) ولا بالنطق، فإن الببغاء لها نطق، والماعز له لحية، والحمار له روح.

ويقول الآخر:

صورتت راجه كنم جون توندارى سيرت
كه به يكجو نخرند صورت بي معنى را

يعني: ماذا يعنيني صورتك في حين لا توجد لك سيرة؟ فإن الناس (العقلاء) لا يشترون الصورة التي لا معنى لها، بحبة شعيرا!.

ولهذا وذلك فإن الشرائع الإلهية، والتعليمات السماوية إنما جاءت لتنهض بالعالم البشري من حضيض الحيوانية، إلى الإنسانية الذي يليق به، وبتعبير آخر: لتحمي مقام الإنسان الفطري، وتقوم بتربيته تربية تتفق مع فطرته، وتركز في الضمير الإنساني، الملكات الحسنة والخصال العالية، والعقائد الصحيحة التي تتناسب مع مكانته، وذلك كما يستوجبها الإيمان بالله ورسالاته، وتقتضي الديانة (التدين) ألا وهو العمل بالتعاليم الدينية، والارتباط بمثلها العليا.

(٣) وإذا نظرنا إلى العلماء والمفكرين في العالم الراهن، فإننا نجد أنهم بعد ما بحثوا بحثاً دقيقاً، اختلفوا في آرائهم ونظرياتهم، وذهبوا إلى مذاهب شتى، ولكنهم اتفقوا على نقطة مسلمة لا يجوز الخلاف عليها، ألا وهي لزوم تأسيس الأخلاق على أساس الدين. فإنهم صرحوا بكل جرأة ويقين (عن طريق المقالات والمؤلفات والمحاضرات).

وقالوا: يجب أن تبتنى الأخلاق على تعليمات الدين المقدسة، التي تتكفل وحدها لسعادة الإنسان، وهي الوسيلة الوحيدة للأمن والسلم والصلح في

أنحاء المعمورة، وإلا فإن الأخلاق المحضة الخالية من الدين لا تجدي نفعاً، فلا تغني الوسائل المتخذة لتهذيب الإنسان عن شيء.

وهم يقولون في الاستدلال لإثبات هذا القول وإقناع الناس والمعارضين ما يلي:

نحن نعلم باليقين أن أساس الأخلاق في الدين، إنما هو الوحي من عند الله سبحانه، ونعلم باليقين أن الله سبحانه قد أوحى أصول العلم والمعرفة ومباديء الخير كله إلى أنبيائه ورسله، وجعلهم خبراء عن العنصر الأصلي للعالم البشري، وعن طبيعة الإنسان، بعد أن كانت مجهولة قبل بعثتهم وإرسالهم بالنبوة والرسالة.

وأفاد سبحانه (عن طريق الوحي) أن العقل البشري ضعيف في خلقته، مع اختلافه في درجاته، ذلك لأن إدراك العقل محدود، وفي حاجة إلى إرشاد المرشد الأعلى (وهو سبحانه الذي خلقه). ولهذا فإن مصلحة الإنسان تقتضي أن لا يعتمد (اعتماداً كلياً) على عقله وإدراكاته المحدودة، بل يجب عليه أن يعتمد على أمر الله وإرشاده. فإن الله سبحانه لم يأمره إلا بما فيه خيره، ولم يرغبه إلا فيما فيه مصلحته. إذن يجب أن يمتزج الدين في جميع أفكار الإنسان وأعماله في شؤون حياته، كأساس مقدس حتى يجعل من بني نوع الإنسان كتلة متخلقة متدينة، وطائفة صاحبة لكل فضيلة، وليهديهم إلى حياة شريفة وسعادة أبدية.

هذه هي النقطة (الغاية) التي انتهت إليها آراء المفكرين في العالم الراهن، على رغم ما هنالك من شرذمة الملحدين الذين يرون طريق الحياة في اللادينية الإباحية والحرية المطلقة والفوضوية، ولكن لا يعبأ بوجودهم، لأن ساحة هذا الكون لا يخلو من جاحد للحق أو منكر للحقيقة، والشاعر يقول:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويقول الآخر:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة
فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

مع أن ضميرهم الإنساني في كامن سرهم، يأبى رأيهم الضال. فإني أعتقد أن كل إنسان إذا خلى وضميره، فإنه لا يمكن أن ينكر خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم وأخرجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود.

وقد ظهرت هذه الحقيقة حينما واجهنا الملحدين في البلاد الشيوعية وجادلناهم بالتي هي أحسن، فقد اعترفوا بالحق، وكان ذلك في مواقع متعددة، بطول الكلام بذكرها وبيانها.

هذا وقد وردت من علماء أوروبا المتقدمين أيضاً تصريحات تؤيد تلك النظرية النهائية التي رويناها من العلماء والمفكرين في العصر الراهن.

منهم ويكتور هوجو شاعر فرنسا وفيلسوفها في القرن التاسع عشر[1] وهو يقول: (يجب أن يكون التعليم مبنياً على الدين، ليتخرج المتعلم رجلاً صالحاً).

فإن هذا الفيلسوف يعتقد أن صلاح كل فرد متعلم إنما يرتبط بالدين واتباع تعاليمه السماوية، على ما تدل عليه كلمة «يجب».

(أ) وقال الفيلسوف الكبير أرنست رينان[2] في كتابه (تاريخ الأديان):

(من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها. كما أنه من الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان عقيدة المادي الذي يود أن يحضر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية).

(ب) وصرح ويكتور لوزان وقال:

---

(١) ولد سنة ١٨٠٢ م وتوفي سنة ١٨٨٥م.
(٢) ولد سنة ١٨٢٣م وتوفي ١٨٩٢ك.

(إن الشعوب والملل أحوج إلى المبادىء الدينية، منها إلى القوانين المدنية).

(جـ) وقال جان جاك روسو شاعر وفيلسوف فرنسا في القرن الثامن عشر:

(إن أسوأ البلاد، بلد أصبح الخالق سبحانه فيه مجهولاً وترك الإيمان به في إهمال).

ومما يناسب أن يذكر هنا ما نشرته جريدة الأخبار (بالقاهرة) في عدد ١٠ مايو سنة ١٩٦٧ في ضمن مقال بقلم موسى صبري بعنوان «ما هي حكاية بنت ستالين؟» التي هاجرت إلى خارج بلادها، ما نصه:

(وأهم ما صرحت به بنت ستالين في رأيي هو قولها: إنها نشأت في بيت لا يعرف الله، ولا تذكر فيه أبداً كلمة الله.. ولكنها بعد أن كبرت ونمت ونضجت عرفت أن الحياة صعبة قاسية بغير الإيمان بالله..).

(د) وقال تولستوي الفيلسوف الروسي[1] في كتابه «الآفات الاجتماعية وعلاجها»:

(... والدين يوجد الروابط بين المرء وبارئه الأعلى. ويهدي الناس إلى طريق مستقيم، وينير بصائرهم في أعمالهم، ذلك الدين الذي لولاه لأصبح الناس في مصاف العجماوات، بل أحط منها منزلة).

(هـ) وقال جان ماري جوبو:

(كان الدين أخلاقاً وقانوناً وفلسفة وكل شيء، ولم تنفصل الفلسفة ولا انفصل العلم عن الدين إلا في عصور متأخرة، وإذا كان للمجتمعات كلها أديان تؤمن بها، فلأن الدين في الحالة الحاضرة منفعة عظيمة، بل لأنه ضرورة حيوية، لأنه وسيلة للبقاء والنماء).

(و) وصرح سقراط الفيلسوف اليوناني[2] فقال:

---

(١) ولد سنة ١٨٢٨م وتوفي سنة ١٩١٠م.

(٢) من حكماء اليونان ولد حوالي ٤٢٩ قبل الميلاد وقتل ٤٩٩ كما قيل.

(إنه كما يشعر الإنسان بحاجته الماسة إلى الهواء والماء والطعام، كذلك تشعر روحه إنها في حاجة ماسة أيضاً إلى غذاء معنوي لاهوتي).

هذا... وقد أحسن نامق كمال شاعر وفيلسوف تركيا[1] حيث قال:

دين سيزليق ايله كسب ايديلن برمدنيت
وحشيتك أك قورقنجلي صحراسي دكلمي

يعني أليست المدنية التي اكتسبت عن طريق اللادينية، هي أخوف صحراء الوحشية؟

وإني أقول في تأييد النظرية الصائبة:

١ ـ أن الأخلاق الدينية تبتنى على أساس مقدس، ألا وهو معرفة الله سبحانه وعبادته، ولا شك في أن معرفة الله أقدس أساس حيوي في حياة الإنسان الأخلاقية. كما أن عبادته أقوى دافع للفرد والمجتمع نحو الخير والملكات السليمة.

٢ ـ أن الحقيقة الدينية، هي الحقيقة الوحيدة التي تتصف بالقدسية والعلو، وأما سائر الحقائق فإنها حقائق نسبية تتصل بتلك الحقيقة المقدسة، وترتبط بها عن قرب أو بعد. ولهذا فإن الرجال الذين يفرقون بين الأخلاق والدين، أو بين التهذيب والعلم إنما هم أناس سطحيون يرون ما يظهر أمامهم ولا يرون ما في البعيد. إن جوهر العقل الذي يعتبر المبدأ الأعلى لحسن الأخلاق والعلم، إنما هو موهوب من فضل الخالق سبحانه للإنسان، بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فلا مجال لانفكاك الأخلاق عن الدين أو انفصال التهذيب عن العلم.

٣ ـ إن الأخلاق عبارة عن إدراك المناسبات الدائرة والحقوق المشتركة بين بني النوع البشري، وبينهم (بصفتهم المخلوق) وبين الخالق عز وجل ولا يمكن

---

(١) ولد في ١٢٥٦هـ. وتوفي ١٣٠٥هـ.

إدراكها (كاملة وكما هي) إلا بالتعاليم السماوية والدستور الأبدي الخالد ألا وهو الدين الذي وطد الله به الروابط الاجتماعية بين الأفراد في كل مجتمع. كما نظمها به بين أقوام العالم البشري.

وإذا نظرنا نظرة المدقق المنصف إلى ما هو الواقع، فإننا نعلم أن جميع الخصال الأخلاقية المتداولة في مناسبات الأفراد في حياة المجتمع، وهذه الواجبات التي يقوم بها الرجل في حق أعضاء أسرته، أو حيال أبناء مجتمعه الذي يعيش فيه، أو وطنه ومواطنيه، أو في حق حكومته ودولته، إنما هي منبعثة من منبع قدسي واحد، ألا وهو الدين الذي فطر الله الناس عليه، والذي يهديه إلى معرفة خالقه سبحانه، والرجاء من وعده لصالح أعماله وحسناته والخوف من وعيده على سيئاته.

وعلى الأقل (إنما هي منبعثة) من ضميره الإنساني الذي يأتي في كامن سره أن ينكر خالقه الذي خلقه وجعله قادراً على تلك الأخلاق والواجبات.

٤ ـ ومما نشاهده أمامنا أن الإنسان إذا خلى وناحيته الحيوانية فإنه مغلوب لدى أهوائه وشهواته النفسانية، التي تجره نحو الجرائم والفساد، فبناء على ذلك، فإنه في أمس حاجة إلى مساعدة قائد الإيمان، ليكون معه في كل زمان ومكان، وفي الخلاء والملاء، والعلانية والخفاء، فيقوده نحو الأخلاق الحسنة، ويردعه عن الخصال السيئة.

ذلك الإيمان بالله الذي ينور قلبه دائماً في خطواته، ويضيء ضميره في قطع عقباته، في ظلمات هذه الحياة التي تحيط به خطراتها من كل جهاته.

إذن: على القاريء أن يقتنع (مما سبق من التحقيق المنطقي الذي يتمشى مع عقله ولا يبعد عن إدراكه) إن الإنسان لا بد له (من كل ناحية) من الإيمان بالله، والتدين بالدين، وأنه يجب عليه أن يكون (قبل كل شيء) صاحب الإيمان والديانة، يطيع الدين ويتبع تعليماته السماوية، وقوانينه القدسية، ولا سيما الدين الإسلامي، فإنه دين حق لا يسوغ إنكاره، دين متمم لمكارم الأخلاق.

وكما أنه آخر الأديان، فإنه أكمل الأديان:

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً»[1].

«الإسلام ومقتضيات الفطرة»

وإذا نظرنا نظرة صحيحة إلى أصول الإسلام وفروعه (حتى المسائل الجزئية) فإننا نجدها تنطبق على مقتضيات الفطرة والعقل السليم والمنطق، وعلى رأسها معرفة الخالق سبحانه والإيمان به وبوحدانيته، فإن التاريخ البشري يشهد أن الإنسان (قبل بعثة الأنبياء وإرسال الرسل) كان يبحث عن خالقه الذي خلقه، ويتطلع نحو معرفته والإيمان به وعبادته كما يجب، وكان ذلك بدون أي إيجاب من الوحي أو فرض من قبل الدين السماوي، وإنما هو بفطرته التي خلق عليها، وبشعوره الإنساني، ذلك الشعور الذي يمكن أن نقول «إنه المنبع الأول للديانة».

وإلى هذا أشار العالم الهولندي المعروف «تيليه» حيث يقول:

(أن أصل الدين هو حيناً، الإدراك الفطري في الإنسان، وحيناً، هو شعور الإنسان بتبعيته لقوة عليا (يعني الخالق سبحانه)، وحيناً، الحدس اللانهائي، وحيناً، الزهد في الدنيا).

وكان هناك قوم يعبدون الشمس أو القمر، وقوم يعبدون النار أو الحجر، حيث كانوا يخطئون في تعيين معبودهم، مما يدل على أن البحث عن الخالق والإيمان به والتعبد له أمر فطري لبني نوع الإنسان، منذ أن خرج من غياهب العدم، إلى ساحة نور الوجود، الذي يعيش تحت ضوئه، كإنسان يشعر أنه مخلوق وأن له خالقاً يجب عليه أن يعرفه، وأن يؤمن به ويعبد له.

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

نعم: إن الإنسان كان يبحث بفطرته وعقله، عن خالقه الذي خلقه، وكان يخطيء في تشخيص الخالق، إلى أن اهتدى من اهتدى إلى معرفة الخالق الحقيقي وهو الله سبحانه، الذي خلقه وخلق السموات ومن فيها، والأرض ومن عليها، من جميع المخلوقات، وكان ذلك عن طريق الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله وأرسلهم لهداية خلقه.

«إبراهيم وأبوه وقومه»

وفي قصة إبراهيم وأبيه آزر وقومه، ما يدل على ما قلناه، ويثبته أمام المتذكرين، «إن في ذلك الذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد».

كان آزر أو إبراهيم وقومه يعبدون الأصنام وغيرها من الشمس والقمر والكواكب حيث كانوا على ضلالة في ظنهم وجهل في عقيدتهم وعبادتهم، شأنهم شأن سائر عبدة الأصنام، يعبدونها من دون الله عز وجل.

فقام إبراهيم خليل الله، ضد عقيدتهم، ليهديهم إلى ما هو الحق.

وفي ذلك يقول القرآن المجيد: «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين» الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

ثم أخذ ينبههم على ضلالاتهم واحدة بعد أخرى، ويرشدهم إلى عبادة فاطر السموات والأرض، وذلك عن طريق عقلي سليم، وأسلوب منطقي حكيم.

وفي ذلك يقول القرآن المجيد:

«فلما جن عليه الليل رأى كوكباً، قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت، قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر

السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» (الآية ٧٦ ـ ٨٠ سورة الأنعام). كان إبراهيم في قوله «هذا ربي» يحكي زعم آزر وقومه، ثم يعقب على أفول الكوكب، والقمر والشمس، بإبطال ذلك الزعم، إلى أن قال: «يا قوم إني بريء مما تشكرون». ثم صرح بعقيدته فقال: «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين». صرح بعقيدته هذه، يقرع بها أسماعهم وقلوبهم، لعلهم يتذكرون ويتبعونه في عقيدته، أتباع الحق.

ثم إن إبراهيم واجه أباه آزر وقومه بأسلوب أكثر صراحة وأشد مجادلة، وعززه بموقف عملي حاسم، ألا وهو كسر الأصنام مع إبقاء كبيرهم، وكان إبقاءه حكمة منه، وفي ذلك يقول الله سبحانه في القرآن المجيد:

«ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل، وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين* قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين* قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين[1]. قال بل ربكم رب السموات والأرض، الذي فطرهن، وأنا على ذلكم من الشاهدين* وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين[2]* فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالو فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟* قال بل فعله كبيرهم هذا. فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون * قالوا حرفوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم

---

(١) يعني: أجاد أنت فيما تقول أم لاعب؟.

(٢) قال المفسرون: ولم يسمع قوله هذا إلا واحداً منهم، وكانوا معتزمين للخروج بمناسبة عيد من أعيادهم، فتخلف إبراهيم عنهم بعذر المرض، وعمل ماعمل بأصنامهم. «المؤلف».

الأخسرين *». (الآية ٥١ ـ ٧٠ من سورة الأنبياء).

نعم: إن هذه القصة تدل على أن آزر أبو إبراهيم وقومه أيضاً كانوا يشعرون أنهم مخلوقون، وأن لهم خالقاً يستحق أن يعبدوه، ولم يكن هذا عن وحي، وإنما كان عن شعور ناشيء عن فطرتهم البشرية وعن عقلهم الإنساني، ولكنهم كانوا في ضلالة في تشخيص المعبود، حتى دعاهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، إلى الإيمان بالله فاطر السموات والأرض، وإلى عبادته وحده سبحانه، دعاهم إبراهيم بهذا المنطق وبهذه الحكمة، فأدى رسالته بكل صراحة وشجاعة، حتى أرادوا به كيداً ليحرقوه، ولكن الله نصره ونجاه فجعلهم الأخسرين.

ثم اهتدى به من اهتدى إلى معرفة الله وعبادته وحده لا شريك له، متبرئين من الشرك إلى التوحيد. وفي ذلك يقول الله عز وجل:

«وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم» (الآية ٨٤ الأنعام).

«التفكر في الكون والنعم»

ثم إن الله عز وجل ذكر جانباً مما خلقه في هذا الكون العظيم من السموات والأرض، وسائر المخلوقات من الإنسان والحيوان، والنباتات والجمادات، وبين أنه كيف خلقها، وكيف يسيطر عليها ويتصرف في شئونها، تصرف الخالق الحكيم، ويدبرها تدبير الخبير العليم، في نظام ثابت، وكذلك عدد عدداً من نعمه التي أنعمها لعباده.

وذلك في آيات بينات من كتابه الكريم، وقد قرع بها قلوب عباده، وأيقظ ضمائرهم، وأثار شعورهم الفطري، حتى يتفكروا في خلقه، ويتذكروا من نعمه التي لا تحصى، مما يضطر الإنسان (عن طريق الفطرة والعقل السليم) للإيمان بوجود الله الخالق سبحانه، واليقين بوحدانيته، والتزام عبادته.

ونحن نذكر هنا جملة من تلك الآيات «ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما

يدعون من دونه الباطل، وأن الله هو العلي الكبير».

«الآيات البينات»

«إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسحر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون» (الآية ١٦٥ سورة البقرة).

«إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار». (الآية ١٩٠ الأعراف).

«إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، آيات لقوم يعقلون، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون»، (الآية ٦٣ الجاثية).

«الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون» (الآية ٢ الرعد).

وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل والنهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» (الآية ٣ ـ ٤ الرعد).

«الله الذي خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» (الآية ٣٣ ـ ٣٤ إبراهيم).

«وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الآية ١٣ الجاثية).

«هو الذي جعل لكم الشمس ضياء والقمر نوراً، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون. إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون» (الآية ٥ ـ ٦ يونس).

«وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شيء فصلناه تفصيلاً» (الآية ١٢ الإسراء).

«قل من يرزقكم من السماء والأرض، أم من يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون، فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون» (الآية ٣١ ـ ٣٢ يونس).

«هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من

فضله، ولعلكم تشكرون، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم أنهاراً وسبلاً، لعلكم تهتدون، وعلامات، وبالنجم هم يهتدون» (الآية ١٠ ـ ١٦ النحل).

«وما يستوي البحران، هذا عذب فرات سائغ شرابه؛ وهذا ملح أجاج، ومن كل تأكلون لحماً طرياً، وتستخرجون حلية تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، ذلكم الله ربكم، له الملك، والذين تدعون من دونه، ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا ينبئك مثل خبير» (الآية ١٢ ـ ١٤ فاطر).

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه، إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور» (الآية ٢٧ ـ ٢٨ فاطر).

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (الآية ٧٨ النحل).

«والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات، أفبالباطل يؤمنون، وبنعمة الله هم يكفرون» (الآية ٧٢ النحل).

«والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، إن في ذلك الآية لقوم يسمعون. وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في

ذلك لآية لقوم يتفكرون» (الآية ٦٥ ـ ٦٩ النحل).

«ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» (الآية ٢٠ ـ ٢١ من سورة لقمان).

«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الآية ٧٠ الإسراء).

«الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة، يخلق ما يشاء، وهو العليم القدير» (الآية ٥٤ الروم).

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» (الآية ١٢ ـ ١٦ المؤمنون).

«ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم الليل والنهار وابتغائكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء، فيحيي به الأرض بعد موتها، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون. وله من في السموات والأرض كل له قانتون» (الآية ١٩ ـ ٢٦ الروم).

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، إن الله لطيف خبير. له ما في السموات وما في الأرض، وإن الله لهو الغني الحميد. ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن

تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرؤف رحيم» (الآية ٦٣ ـ ٦٥ الحج).

«ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. والله جعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالا، وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر، وسرابيل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم، لعلكم تسلمون» (الآية ٧٩ ـ ٨١ النحل).

«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون. وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتنا معرضون. وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون» (الآية ٣٠ ـ ٣٣ الأنبياء).

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يجعله خطاماً، إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب» (الآية ٢١ الزمر).

«إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليماً غفوراً» (الآية ٤١ فاطر).

«خلق السموات بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم، هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه؟ بل الظالمون في ضلال مبين» (الآية ١٠ ـ ١١ لقمان).

«الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها، ومنها تأكلون. ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة صدوركم، وعليها وعلى الفلك تحملون. ويريكم آياته،

فأي آيات الله تنكرون» (الآية ٧٨ ـ ٨٠ غافر).

«والأنعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع، ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون» (الآية ٥ ـ ٨ النحل).

«أفرأيتم ما تحرثون؟. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظللتم تفكهون[1]. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون؟. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين. فسبح باسم ربك العظيم»: (الآية ٦٣ ـ ٧٤ الواقعة).

«وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً. ومن النخل من طلعها قنوات دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، أنظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينع، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» (الآية ٩٨ الأنعام).

«وهو الذي مرج البحرين، هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً. وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً» (الآية ٥٣ ـ ٥٤ الفرقان).

«ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون» (الآية ٦ السجدة).

«ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» (الآية ٥٧ آل عمران).

---

(١) أي تتعجبون مما نزل في زرعكم من العقوبة، وتندمون على نفقاتكم. «المؤلف».

«وهنا»

وهنا وبذكر هذه الآية (كخاتمة) نكتفي عما بقي هناك من آيات بينات محكمات أخرى في هذا الباب، «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم» (الآية ٢٧ لقمان).

ومما يجب أن نتنبه عليه أن ما ذكره الله سبحانه في تلك الآيات التي نقلناها من كتابه المجيد بنصوصها، إنما تدور حول ما كان أمام الأعين من الناس في ذلك العهد الأول للإسلام (عهد نزول الكتاب) وحول ما كان في استطاعة الناس (العالم الإنساني) أن ينظر إليه بأعينهم ويتفكروا فيه بعقولهم البشرية، من السموات والأرض، والبر والبحر والجبال والدواب والأنعام، وما ينزل من السماء من ماء، وما ينبت به من زرع ونخيل وأعناب وغيرها من الثمرات ويحيي به الأرض بعد موتها فيجعلها مخضرة ناضرة بارعة. وتدور حول ما خلقه الله سبحانه من أنفسهم بمالها من الأعضاء والأجزاء، وتدور حول ما أنعم الله عليهم من النعم الظاهرة كل لحظة بكل وضوح أمام أنظارهم، وتتجلى بمظاهرها الباهرة لمشاهدتهم وتفكرهم فيها، ومن النعم وغرائب الطبيعة التي يمكن الاطلاع عليها بما لديهم من العقول والعلم والثقافة في ذلك العهد.

نعم: إن تلك الآيات إنما تدور حول هذا وذاك، ولا تشمل على أسرار الكون التي يكشف عنها علم الإنسان وثقافته فيما بعد. كما لا تتضمن (بالصراحة) على كنوز الكون التي تصل إليها أيدي العالم الإنساني الناهض عن طريق تقدم العلوم والثقافات فيما بعد، وكما لا تحتوي على سائر النعم وأسباب راحة الإنسان ووسائل ثروته، والتوسع في مصالح حياته الإنسانية، التي تكون تحت أيدي الإنسان، وتصرفه واستفادته فيما بعد، وتزيد ظهوراً وانكشافاً (في قرن وقرن) كلما تمر الأزمان، ويتقدم العلم والعرفان.

ذلك أن الله جل شأنه عليم بما في وسع عباده من التفكر والتعقل (في كل

زمان) وما ليس في وسعهم، وأنه جل شأنه حكيم في توجيهاته إلى عباده، ولهذا فإنه سبحانه إنما أتى بآيات تتناسب (في هذا الباب) مع العهد الذي أنزل فيه كتابه الحكيم إلى نبيه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ، ولم يأت بآية صريحة يأمر بها الإنسان أو يدعوه أن يتفكر فيما يخلقه من خلق أو يحدثه من نعمة بعد عهد نزول الكتاب.

وإلا لوقع الناس (الذين يعيشون في ذلك العهد) في حرج وحيرة وارتياب، وذلك بسبب ضعف ثقافتهم، وضيق إحاطة تفكيرهم، وهذا شيء لا مرية فيه، وقد أشار إليه البوصيري وقال:

لم يمتحنا بما تعي العقول به
حرصاً علينا، فلم نرتب ولم نهم

هذا ويجب علينا أن نعلم أن الله العليم القدير أشار بقوله: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» (الآية ٢٩ من سورة البقرة). أشار به إلى ما خلقه للعالم الإنساني، وتصرفه واستفادته، من الكنوز المضمرة، والمعادن الكامنة في الأرض وطبقاتها، مع ما فيه من التحريض إلى بحثها وكشفها مع مرور الزمان، وتطور العلم وتقدم الثقافة.

وأشار بقوله: «سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون» (الآية ٣٦ من سورة يس). أشار به إلى ما خلقه (ويخلقه) مما لا يعلمه الناس في العهد الأول من سائر المخلوقات والنعم التي لا تحصى.

وأشار بقوله: «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون» (الآية ٨ من سورة النحل). أشار به إلى ما يخلقه فيما بعد، مما لا يعلمه الناس، في عهد نزول القرآن ولا يسعه تفكيرهم، من المراكب البخارية والكهربائية والفضائية التي يخلقها الله الخالق الحكيم على أيدي الإنسان الناهض فيما بعد، قرناً بعد قرن، على حسب تقدم العلم والثقافة؛ أمثال: القطار، والسيارة،

والطيارة، وغيرها مما يركب عليه في السفر والحضر، ويصعد عليه إلى الفضاء، ويدار عليه حول الأرض، ويهبط عليه على القمر وغيره من الكواكب.

وأشار بقوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم، لا تعلمونهم الله يعلمهم». (الآية ٦٠ الأنفال). أشار به إلى كل نوع من القوة (وما يشمل عليه معنى القوة من عهد نزول القرآن إلى آخر يوم من هذه الحياة. كما بيناه في كتابنا (الجندية في الإسلام) ورسالتنا (إلى الجندية أيها العرب) التي يستطيع الإنسان أن يخترعها أو يحصل عليها فيما بعد من القرون، مما يشمل القنبلة الذرية والهيدروجينية وعابرة القارات وسائر القوى، ووسائل الاستكشاف والدفاع في ميادين الحرب، التي اكتشفها الإنسان في عصرنا هذا «العصر العشرين» وما يكتشفه فيما بعد، من أنواع الاكتشافات على طول الحياة في هذا الكون.

وأشار بقوله: «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» (الآية ٢٥ من سورة الحديد). أشار به إلى ما يصنع من الحديد من أسلحة يستدعيها الدفاع، ومن أثاثات وأسباب وآلات تتطلبها حاجة الإنسان في تطور شئونه وأدوار حياته، وتمد الإنسان ليعيش في راحة وسهولة في حياته، مع التحريض أيضاً إلى كشف ما في الحديد من البأس الشديد ومنافع للناس، والتوسع والتقدم في طرق الاستفادة مما فيه، على حسب تقدم العلم والثقافة.

«مسئولية الإنسان في هذا العصر»

وإذا نظرنا إلى الآيات البينات التي ذكرناها في موضوع وجود الخالق سبحانه ووحدانيته، ونعمه، وتأملنا فيما فيها من التصريحات أو الإشارات التي تقرع القلوب، وتثير الشعور، وتنير العقل البشري، وتضطر الإنسان بالإيمان بوجود الخالق عز وجل وبوحدانيته، والاعتراف بنعمه التي لا تحصى، وبالشكر الواجب عليه.

أقول: إذا نظرنا إليها، وتأملنا فيما فيها، فإننا نجد مسئولية الإنسان في هذا

العصر (العصر العشرين) عظيمة جداً، ونتيقن أنه مطالب بالتفكر فيما خلقه الله تعالى في هذا الكون العظيم من السموات وما فيها، والأرض وما عليها، والبر والبحر وما فيهما من أنواع المخلوقات، من الحيوانات والنباتات والجمادات، ومطالب (بالخاصة) بالتفكر في خلقة نفسه وجسمه الإنساني، ومطالب بالنظر إلى ما أنعمه الله به من النعم الظاهرة والباطنة، نظرة الاعتبار والشكر والامتنان.

نعم: إن مسئولية الإنسان في هذا العصر الناهض جسيمة جداً، وأنه مطالب بهذا وذلك، لأن إنسان العصر إنسان ناهض متيقظ، إنسان أكثر علماً من ذي قبل، وأقوى ثقافة ممن مضى من نوع بني الإنسان.

هذا مع ما له من وفرة الأسباب للوصول إلى حقيقة هذا الكون، وكثرة الوسائل للكشف عن كنوزه والاطلاع على أسراره، وفي إمكانه كل الإمكان أن يصل إلى معرفة خالقه (أو مزيد معرفته) ومعرفة صفاته الإلهية والإيمان به، وذلك عن طريق الاطلاع على ما في هذا الكون العظيم، وما في نفسه (العالم الصغير) من عجائب الخلقة وغرائب الطبيعة.

نعم: إن مسئولية الإنسان في العصر العشرين، أمام خالقه وأمام ضميره الإنساني أعظم من مسئولية الإنسان الذي سبق عليه وأخطر، فيجب عليه أن يقدر مسئوليته تقديراً يتناسب مع عصره، وأن يثبت شعوره الإنساني إثباتاً يليق بشأنه وزمانه.

أريد أن أقول: على الإنسان في العصر العشرين أن يؤمن بالله خالق الكون وخالقه حق الإيمان، وأن يعرفه مزيد المعرفة، ويؤمن بوحدانيته، وبوجوب إطاعته وعبادته، وإلا فإنما هو إنسان بصورته، لا بصفته وسيرته. بل أنه أحط من الحيوان بضلالته، فإن الحيوان يشعر أنه مخلوق، أن له خالقاً يستحق لألوهيته، كما أثبتناه فيما كتبناه في الفصول من هذا الكتاب.

وكيف لا؟ والله سبحانه يصف أهل الضلال، من السفهاء والجهال، ويقول: «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» (الآية ٤٤ الفرقان).

ويقول: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها. ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون» (الآية ١٧٩ الأعراف).

هذا ولعلنا استطعنا بما سبق من البيان، أن معرفة الله والإيمان به أمر يتفق ومقتضى الفطرة الإنسانية والعقل السليم، ذلك لأن الإنسان يعلم بضميره الإنساني أن له خالقاً خلقه وأوجده من العدم فيؤمن به؛ إنه يرى أن لكل مصنوع صانعاً ولو كان مصنوعاً بسيطاً.

مثلاً: يرى الكرسي ويعلم أن له نجاراً صنعه بهذا الشكل المناسب المريح، ويرى البناء (من بيت أو قصر) ويعلم أن له بانياً بناه بهذا الوضع الهندسي المعقول. وهكذا ينتقل في مشاهداته الواقعية (في ساحة هذا الكون الواسع) من مصنوع إلى مصنوع آخر ويعلم أن لكل منه صانعاً، ثم ينظر إلى السموات والأرض (ولو نظرة سطحية) ولا يشك في أن لها صانعاً خالقاً صنعها وأوجدها (مع ما فيها من أنواع المخلوقات) بهذا النظام وبهذه العظمة والسعة

ثم يرى ما أعطاه الله عز وجل وأعده له من أنواع النعم وألوانها، وما يتعلق بشئون حياته من الأسباب والوسائل، وهي تدل (لدى العقل الإنساني) دلالة واضحة على أن الله سبحانه قادر على كل شيء، وأنه لطيف رؤوف بعباده، وبهذا يزداد إيماناً بوجود ربه عز وجل وبوحدانيته، ويقيناً بقدرته ولطفه ورأفته، فيعتقد أنه هو الذي يستحق أن يعبده لا سواه، فيقول بلسان فطرته وضميره: إياك نعبد وإياك نستعين، فيهتدي إلى الصراط المستقيم، إلى ما هو الحق الذي لا يسوغ إنكاره.

«معرفة الرب بمعرفة النفس»

ثم إن الإنسان يرى نفسه (بين هذه المخلوقات) وهو أقرب الأشياء إليه، وأيقنهم بوجوده لديه.

يرى نفسه موجوداً في أحسن تقويم، بهذا الشكل الوسيم، ويعلم علم اليقين أن لكل من أعضائه الظاهرة والباطنة وظيفة خلق لها، بحيث يؤديها بنظام بديع مستمر ما دام هو في ساحة الحياة، فيزيد علماً على علم ويقيناً على يقين في أن له خالقاً خلقه، وإنما ذلك بما أوتي من العقل والشعور والضمير الإنساني. فيبحث بكل لهفة عن صفات خالقه، وينطلق بكل حرص في سبيل مزيد معرفته، وقوة الإيمان به، إلى أن يصبح من المهتدين.

ذلك لأن صفحات المخلوقات (ومنها الإنسان) مواقع لتجلي صفات الخالق، ومظاهر لظهور آياته أمام المتفكرين، كما يقول الصوفية رحمة الله عليهم أجمعين، ويقولون: (من عرف نفسه، فقد عرف ربه) وقولهم هذا مستوحى من الحديث القدسي: (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق). وقوله سبحانه: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»[1] (الآية ٥٦ الذاريات).

ففي وسع الإنسان وإمكانه كمال الإمكان أن يوفق بمعرفة ربه سبحانه عن طريق دلائل الطبيعة، وشواهد الخلقة، ولا سيما عن طريق أقرب الأشياء إليه وهو نفسه، وقد سمي هذا الكون بـ «العالم» لأنه يعلم به الصانع سبحانه، كما عبروا عن الإنسان بـ «العالم الصغير» لما فيه ما لا يعد من عجائب الخلقة وغرائب الطبيعة التي تدل على ذات الخالق وصفاته.

وقد قال الله عز وجل: «سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» (الآية ٥٣ فصلت). وقال: «وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (الآية ٢١ الذاريات). وقال: «الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء، وصوركم فأحسن صوركم، ورزقكم من الطيبات، ذلكم الله ربكم، فتبارك الله رب العالمين» (الآية ٦٤ غافر).

---

(١) أي ليعرفون.

«شعراء الإسلام، ووجود الخالق»

وهناك شعراء الإسلام (في القديم والحديث) درسوا هذه الآية وما قبلها من الآيات وأمثالها، فاستفادوا من معانيها السامية ورموزها القدسية (كل على قدر علمه وشعوره) وأفادوا للمجتمع وأبنائه، بما جادت به قرائحهم الأدبية، حيث جعلوا به عواطف العقل الإنساني منعطفة نحو معرفة الخالق سبحانه ومزيد الإيمان واليقين به، وبصفاته الأزلية، مما يستحق التقدير، ويستوجب العبرة والتذكر:

قال أبو العتاهية شاعر هارون الرشيد[1]:

فيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقد اكتفى الشاعر بإفادة أن الله وحده لا شريك له، ومعلوم أن الوحدانية بعد الوجود، وبهذا أشار إلى أن وجود الخالق سبحانه لا يتوقف على أي دليل وأنه أمر بديهي.

كما صرح به شاعر آخر حيث قال:

طلب الدليل على وجودك غفلة ... عن نورك الوضاح بالبرهان
كيف الدليل لنا، وأنت تدلنا ... إن الدليل حجاب كل عيان

وقال الشيخ سعدي الشيرازي شاعر إيران[2]:

برك درختان سبزدر نظر هوشيار
هرورقش دفتري است معرفت كردكار

---

(٢) ولد سنة ١٣٠هـ وتوفي سنة ٢١١هـ.
(١) ولد سنة ٦٠٦هـ وتوفي سنة ٦٩٠هـ - سنة ٦٩٤هـ.

يعني: أن كل ورقة من أوراق الأشجار الخضر، في نظر العاقل، دفتر في معرفة الخالق عز وجل!.

أقول: وفي الواقع إذا نظرنا إلى ورقة واحدة من تلك الأوراق نظرة صحيحة دقيقة، فإننا نعلم أنها في شكلها المتزن، ونظمها الدقيق، وقطرها المناسب، وفكرنا في عمودها وما حوله من تكون الورقة وحاشيتها وانسجام لونها الأخضر، فإنها (في الحقيقة) دفتر في إرشاد الإنسان إلى معرفة الخالق وليست بصفحة واحدة.

وبأن الشاعر يشير قائلاً: وإذا كانت الورقة الواحدة من الأوراق دفتراً في المعرفة، فما بالك بأصول الشجرة وفروعها وأغصانها، بما فيه تكون كل واحد من الأصول والفروع والأغصان، وعجائب شئونها في التكون؟.

وقال الشاعر التركي فضولي[1]:

صنعك أيوانندە بر قنديل در بوآسمان
قدرتك ديباجه سندن برورق روى زمين

والشاعر يناجي ربه عز وجل ويقول:

«إن هذه السماء قنديل في أيوان صنعك،

وإن وجه الأرض ورقة من ديباجة قدرتك».

وقد عبر الشاعر عن دلالة السماء والأرض على وجود الخالق وعظمة صنعه وقدرته، بفصاحة في المبنى، ولطافة في المعنى.

وقد تخيل (بقريحته الأدبية) السماء كأنها قنديل في أيوان صنع الخالق سبحانه، لا في قصر صنعه، ولا في غرفة من غرفه الواسعة، ومن المعلوم أن الأيوان بالنسبة إلى القصر وغرفة من غرفه شيء ضئيل.

---

(١) وهو محمد بن سليمان البغدادي الملخص بـ نصولي. توفي سنة ٩٧٥هـ.

وتخيل الأرض كأنها ورقة (صفحة واحدة) من ديباجة كتاب في بيان قدرة الله عز شأنه وجل جلاله.

وأفاد أن الأرض مع سعتها ورحبها، وتعدد طبقاتها لا تستطيع أن تكون ديباجة من كتاب القدرة، فما بالك أن تكون كتاباً في بيانها؟ وإنما هي (الأرض) صفحة واحدة من الديباجة.

هذا نموذج من الأشعار التي أنشئت بهذه اللغات الثلاث في هذا الباب، واكتفينا به عما هنالك من قصائد كثيرة، وأبيات وفيرة، يتذكر بها أولو الألباب، وقلنا: في هذه كفاية لمن له دراية.

قال حجة الإسلام، الإمام محمد الغزالي[1] في كتابه «المنقذ من الضلال»: «الصنف الأول (من أصناف الفلاسفة الثلاثة) الدهريون. وهم طائفة من الأقدمين. جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، كذلك كان وكذلك يكون أبداً، وهؤلاء هم الزنادقة الملحدون.

والصنف الثاني: الطبيعيون. وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات (بما فيها الإنسان) فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها. إلى أن قال: «ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني (الخالق سبحانه) لبنية الحيوان ولا سيما بنية الإنسان». انتهى.

«شعور كل مخلوق بوجود الخالق»

قلنا فيما سبق إن الإنسان بفطرته وشعوره الإنساني يعلم أن له خالقاً خلقه.

---

(١) ولد في سنة ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٠٥هـ.

ونقول هنا: إن الشعور بوجود الخالق سبحانه لا يختص بفطرة الإنسان وبضميره الإنساني وله عقل، بل يعم الحيوان بجميع أنواعه من أكبره (مثلاً الفيل) إلى أصغره (مثلاً الدودة) وليس له عقل، ولا يختص بالحيوان وله روح، بل يعم الشجر وغيره من النباتات، ويعم الحجر وغيره من الجمادات، وليس لها روح.

فكل من ذي العقل وغيره، وكل من ذي الروح وغيره الموجود في هذا الكون، يشعر أنه مخلوق، وأن له خالقاً، فيسبح له ويحمده ويسجد له. فقد قال الله عز وجل في كتابه: «القرآن المجيد» تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» (الآية ٤٣ الإسراء).

وقال: «ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خفيته» (الآية ١٣ الرعد).

وقال: (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، وظلالهم، بالغدو والآصال) (الآية ١٥ الرعد).

وقال: «أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون. ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (الآية ٤٨ ـ ٥٠ النحل).

وقال: «ألم تر أن الله يسجد له من في السموات والأرض، والطير والشمس والقمر، والنجوم والجبال والشجر، والدواب» (الآية ٤١ النور).

وعلينا أن نعترف هنا: بأنه فرق كبير بين شعور الإنسان وعلمه (وهو يزيد بالتعلم، ومشاهدة ما في الكون، يوماً فيوماً، مما يؤدي إلى مزيد من معرفة ذات الله وصفاته، مع الاختلاف في درجات العلم) وبين شعور الحيوان المحدود وغيره من النباتات والجمادات.

وإنما نريد أن نثبت هنا: أن كلا من المخلوقات (الكائنة في هذا الكون)

يشعر أن له خالقاً، أوجده من العدم؛ فيخضع لديه، وينجذب إليه. «وما يعقلها إلا العالمون» كما بيناه في فصل خاص من كتابنا: «مثنوي يا دكار زندان، يا آيينه جهان» المنظوم باللغة الفارسية في موازنة مثنوي مولانا جلال الدين الرومي المتوفي سنة ٦٧٢ هـ.

«حكايات في هذا الباب»

في كتاب «المجالس السنانية» حكاية فيها عبرة لمن اعتبر وهي:

أن موسى عليه السلام خطر في باله في بعض مناجاته مع ربه سبحانه على جبل طور، أنه فاته إحضار دقيق أو غيره لأهله، وكانوا في حاجة إليه لقوت اليوم. فاطلع الله علام الغيوب، على ما خطر في بال نبيه وكليمه المحبوب، فأراد تنبيهه على غفلته، وإطلاعه على هفوته، كما هو شأن الحبيب مع الحبيب عندما يعلم أنه أخطأ في شيء.

فأمر الله سبحانه وقال: «يا موسى إضرب هذه الصخرة بعصاك! فضربها فانشقت وخرجت منها صخرة أصغر من الأولى، ثم أمره كذلك فضربها وخرجت منها صخرة أخرى أصغر من الثانية، ثم أمره كذلك فضربها فانشقت وخرجت من جوفها دودة وفي فمها خضرة تعض عليها وتقول بكل فصاحة:

(سبحان من يراني، ويطعمني، ولا ينساني).

١ ـ كان من دعاتي حينما كنت طالباً، أن أخرج في شهور الإجازة في الصيف إلى الأرياف حيث تسكنها القبائل من مريدي حضرة والدي رحمة الله عليه، وذلك للاصطياف والاطلاع على شئون خلق الله عز وجل، ومزيد العلم بها، وكان من أعجب مشاهداتي فيها عبرة، وأكثرها لذة روحية. وأعظمها أثراً مشهد طائر ترابي اللون وعلى رأسه تاج وهو مثل الهدهد جسامة يسمى «صوفي تورغاي» يعني: الطائر الصوفي.

كان يبدأ بكلمات ويرددها (بقافية الياء) وهو على الأرض، في جنب عشه

الذي يبنيه عادة بين الأعشاب، ثم يرتفع خطوة فخطوة إلى السماء بطريق عمودي مستقيم لا عوج فيه، إلى أن يقف في جو الفضاء وهو يحرك جناحيه بحيث لا يميل إلى أي جانب، ويبقى على هذه الحالة إلى وقت، وهو يردد كلماته الموزونة، بكل ما في وسعه من جهر وفصاحة، بحيث يسمعها الناس في الأماكن المحيطة حوله كما يرونه وهو مسخر في جو السماء لا يحيد عن مكانه الذي اتخذه مركزاً لتأدية مهمته، ثم ينزل خطوة فخطوة (عوداً على بدء) وهو يردد كلماته التي لها رنة في الآذان، وقرع في القلوب، إلى أن يستقر حول عشه بكلمة موزونة أخرى. ووالله الذي خلقه إن كلماته التي كان يرددها من بدء الصعود إلى الوقوف في الجو والنزول، لا تزال محفوظة في ذاكرتي، وقد مضى من ذلك التاريخ أكثر من خمسين سنة، وقد تجاوز عمري العام السبعين. وكنت لا أشك (والناس معي) في أنه كان يذكر ربه سبحانه ويسبح له، ولهذا كانوا من قديم التاريخ يسمونه «صوفي تورغاي» يعني: الطائر الصوفي. ولقد حاولت أن أحدد وقته من بدء الصعود إلى العودة، فوجدته ما يزيد على أربعين دقيقة. وكان هذا الطير يظهر هنا وهناك من أرجاء الصحراء كل يوم مرتين صباحاً بعد الفجر إلى طلوع الشمس ومساء قبل الغروب حتى يغلب الظلام على الكون، فكان ذلك يذكرني بقول الله سبحانه: «ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض، والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون» (الآية ٤١ النور). وبقوله سبحانه: «ألم تر إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» (الآية ٧٩ النحل).

٢ ـ اقتنى أحد أبنائي «ببغاء» في ١٤ يوليه سنة ١٩٦٦، وقد أتى به صاحبه من زنجبار، وهو في الشهر السادس من عمره، ولا يعرف من الكلام الإنساني كلمة، ولكنه يصفر ويبدو أنه مستعد لتلقي التعليم، فأخذت ألقن عليه كلمة الله. الله. الله، بتكرير لفظه الجلالة، فلم تمض أيام إلا وقد انطلق لسانه وبدأ يقول: الله، الله، الله، ثم زدت عليه وقلت: يا ولد! الله موجود. أقصد تنبيه الملحد، وكان ذلك كل يوم مرتين صباحاً ومساء، حتى أصبح وهو يقول بكل فصاحة: الله، الله، الله، ثم يقول كأنه يخاطب الملحد: «يا ولد! الله موجود».

والببغاء لا يزال عند الأبناء، يزيد في تلقن الكلمات، ولا سيما في إفصاح لفظة الجلالة، في فترات من كل يوم، وخاصة بعد صلاة الفجر، مما يدل على شعوره بوجود الخالق سبحانه.

هذا. وإذا قيل إنه تلقين وتلقن. فمن الذي خلقه وجعله مستعداً للتلقن، وأنطقه؟ فقد أنطقه الله الذي خلق كل شيء وأنطقه؟.

عزيزنا القاريء الكريم:

لعلنا استطعنا إجمالاً بما سبق من التقرير أن نثبت معرفة الخالق سبحانه، مما أفدناه (أو ادعيناه) قائلاً: «إن الإسلام بأصوله وفروعه ينطبق على مقتضيات الفطرة والعقل السليم، وعلى رأسها معرفة الخالق، ووحدانيته، وعبادته».

«وحدانيته»

أما وحدانية الخالق سبحانه (أي كونه إلهاً واحداً لا شريك له) فإنه أيضاً مما تقتضيه الفطرة البشرية، ويتمشى مع العقل السليم، وفي نظري أن إثبات هذا الادعاء لا يحتاج إلى جدل، ويمكن إقناع الخصم فيه بتفكير بسيط، وهو: إن الإنسان يعلم أن لكل مملكة ملكاً واحداً، أو رئيساً واحداً، يقوم بشئون حكمها وإرادتها وتدبير أمورها التي تتعلق بحياة سكانها. وأنه لا يعلم أحد ولا يسمع في ساحة الكون ملكين أو رئيسين لمملكة واحدة، متساويين في منصبهما، متعادلين في سلطتهما، متجاوبين في رأيهما وإرادتهما، متفقين في تدبيرهما.

كما أن التاريخ (في قديمه وحديثه) لم يرو للإنسان مثل ذلك، ولو رواية واحدة، ولو فرضنا أن مثل ذلك وقع في أي بلد من البلاد، لوقع الفساد في شئون إدارة البلد (المحكوم تحت حاكمين) بين الرأيين المتخالفين في أغلب الأمور، وبين الإرادتين المتناقضتين. إذن، فإن الإنسان يحكم بفطرته وعقله السليم (بدون وحي من السماء أو تعليم من الأنبياء) أنه لا يمكن أن يكون لهذا الكون (وفيه عالم البشرية) آلهة متعددة! وأنه يجب أن يكون إله هذا الكون (إله السموات والأرض) إلهاً واحداً لا شريك له حتى لا يؤدي إلى الفساد.

«مشرك مع فلاح»

قرأت وأنا في عنفوان شبابي، حكاية «مشرك مع فلاح» في بعض لكتب الأخلاقية باللغة الفارسية ما معناها بالعربية:

قصد مشرك إلى بلد إسلامي فيه علماء المسلمين، متحدياً ضد عقيدتهم بأن الله لا إله إلا هو، وكان المشرك عالماً معروفاً في علم المناظرة فوق ثقافته في مذهبه الباطل، يريد مناظرة العلماء لإقناعهم على عقيدة الإشراك ضد عقيدة التوحيد، فلما وصل المشرك ضواحي البلد الذي قصده لذلك الغرض، رأى فلاحاً يعمل في مزرعته وبيده فأس. فمال إليه ليستعلم عقيدته في الله سبحانه، فلما قرب منه رحب به الفلاح وأجلسه وترك عمله وجلس عنده، وهو لا يعرف أنه عالم مشرك يريد الشر. وهنا بدأ المشرك في تنفيذ غرضه، فسأله: هل أنت موحد؟ فقال الفلاح: نعم «أشهد أن لا آله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فقال المشرك: هل أنت متعلم؟ فقال الفلاح: إنما أنا أمي». فقال المشرك: هل لك دليل لعقيدتك هذه؟ فقال الفلاح بكل بساطة: لا حاجة إلى أي دليل، إنما أرى أن حاكم بلدي حاكم واحد. فقال المشرك: إذا جاءك مشرك يجادلك في عقيدتك بالتوحيد، ولم يقتنع بقولك هذا وأصر في مطالبتك بالدليل فماذا تفعل؟ فقال الفلاح بكل حماسة وشجاعة: أضرب بهذا الفأس على رأسه وأشقه شقين. فبهت الذي كفر، وسكت واستأذن، وقرر العودة إلى مقره (عوداً على بدء) بدون أن يدخل البلد الذي قصده، وقال في نفسه:

إذا كان فلاح هذا البلد وهو أمي بهذا اليقين، وبهذه القوة في عقيدة التوحيد، فما بالك بعلمائه المسلمين؟.

وإني أقول: إن هذا اليقين (حتى من الفلاح الأمي) إنما هو ناشيء من فطرته الإنسانية، وعقله السليم، وتفكيره الصحيح، وهو ينطبق (في الناحية التفكيرية والواقعية) على قول الله عز وجل: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون» (الآية ٢٢ الأنبياء).

وقوله سبحانه: «قل لو كان معه الهة، إذن، لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً» (الآية ٤٢ الإسراء).

وقوله سبحانه: «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولعلى بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون» (الآية ٩١ المؤمنون).

وهذه الآية وما قبلها (وأمثالها) موجهة من عند الله الواحد القهار «جلت قدرته» إلى فطرة الإنسان، وعقله وضميره، وتفكيره، في باب عقيدة التوحيد، حتى يفكر بحريته.

ولا شك في أن نتيجة التفكير الصحيح إنما هي اليقين بوحدانية الله سبحانه، وكيف لا؟ وقد أثبت الله عز وجل إثباتاً عقلياً منطقياً، أنه لا يمكن تعدد الإله في هذا الكون، وهو مملكة الله الملك الحي القيوم، الذي له ملك السموات ومن فيها والأرض ومن عليها. ثم حكم حكماً قطعياً حيث قال: «ولا تدع مع الله إلهاً آخر، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون» (الآية الأخيرة من القصص) وقال: «لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون» (الآية ٥١ النحل). كما قال: «وهو الله لا إله إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون» (الآية ٧٠ القصص).

«وهناك آيات»

وهناك ايات محكمة واضحة في مبانيها، وصريحة في معانيها، في كتاب الله الكريم «القرآن المجيد» وقد تحدى بها المشركين، وفوض الإنصاف إلى عقولهم البشرية وضميرهم الإنساني، مما يجعلهم مضطرين للإقرار بالتوحيد عقلياً منطقياً، منها:

«أم من خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء الماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أله مع الله؟ بل هم قوم

يعدلون[1]. أم من جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً. وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً. أءله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أءله مع الله؟ قليلا ما تذكرون. أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته، أءله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون أم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أءله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (الآية ٦٠ ـ ٦٤ النمل).

ومنها: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة. من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ أفلا تبصرون» (الآية ٧١ ـ ٧٢ القصص).

ومنها: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين؟» (الآية ٣٠ الملك). ولا شك في أن هذه الآيات البينات، آيات تقرع قلوب العالم الإنساني، وتنور ضمائره، وتثير شعوره، حتى يضطر بفطرته وعقله لأن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ويلهج لسانه بالشكر لله الذي وفقه بعقيدة توحيده، ويقول بكل يقين وإخلاص: «فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين. وله الكبرياء في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم» (الآية ٣٧ الجاثية).

«القول الحق، بشأن عيسى عليه السلام»

ولما أننا بحثنا في باب عن وحدانية الله سبحانه، وأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأثبتنا عقيدة التوحيد بالدليل العقلي والنقلي ولو إجمالا، فعلينا أن نبحث عما هو الحق من القول (والعقيدة) بشأن عيسى عليه السلام، حتى لا يبقى هناك من سؤال بهذه المناسبة لأي سائل من القراء الأعزاء.

---

(١) من العدل، أي يميلون من الحق إلى الباطل، والإشارة إلى المشتركين.

فنقول وبالله التوفيق:

إن العقيدة بشأن عيسى وأمه مريم العذراء، التي تعتقد بها طائفة من النصارى خطأ لا تتفق مع مقتضى العقل السليم والفكر الصحيح، مع أنها تخالف حكم الله سبحانه الذي صرح به فيما أنزله من آيات بينات من كتابه الكريم «القرآن المجيد».

إن الله سبحانه يحكم بشأن عيسى ويقول: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءكم وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (الآية ٥٩ - ٦١ من سورة آل عمران).

وقد أجمع المفسرون وأهل التاريخ أن هذه الآية وما يتعلق بها من الآيتين نزلت في محاجة (مناظرة) وفد نجران.

فقد قال عبد الله بن عباس مفسر الصحابة رضي الله عنه وعنهم أجمعين: إن رهطاً من أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ. فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله. فقال النبي ﷺ: أجل إنه عبد الله. فقالوا: فهل رأيت له مثلاً أو أثبت به؟ ثم خرجوا من عنده. فجاء جبريل عليه السلام فقال له: إذا أتوك قل لهم «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب».

وقال بعض المفسرين: إن النبي ﷺ قال لهم: «إن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذارء البتول». فغضبوا وقالوا يا محمد هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فأنزل الله تعالى: «إن مثل عيسى عند الله» في كونه خلقه من غير أب «كمثل آدم» في كونه خلقه من تراب من غير أب وأم.

فمن أقر بأن الله خلق آدم من التراب اليابس وهو أبلغ في القدرة، فلم لا يقر بأن الله العلي القدير خلق عيسى بن مريم من غير أب؟ مع أن الشأن في

خلق آدم أعجب وأغرب. فإنه خلقه من غير اب وام!.

أقول: ويظهر عند المتأمل المنصف، أن الآية لها سياق عقلي مقنع، ومنطقي مسكت، لا تذر بعد بيانها أي سؤال أو شك، ولهذا قال الله سبحانه: «والحق من ربك فلا تكن من الممترين» أي من المشركين! وهذا خطاب لكل سامع لهذا القول من التمثيل، ومستمع لذلك البرهان الواقعي، فإنه من باب تهييج الشعور الإنساني، وإثارة الإدراك البشري، وذلك لغرض مزيد الثبات والطمأنينة فيما هو الحق من القول (أو العقيدة) بشأن عيسى عليه الصلاة والسلام. وإذا تفكرنا في هذا الشأن مرة أخرى، فإننا ندرك أن الله سبحانه قد أثبت قدرته الإلهية في خلق الإنسان بكل صورة وطريقة ممكنة. فقد خلق آدم من تراب من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من غير أنثى، وخلق عيسى من غير ذكر، وخلق عامة الإنسان من ذكر وأنثى.

إذن لا غرابة في خلق عيسى بالنسبة إلى قدرة الله عز وجل الذي خلق السموات والأرض وأخرجها بهذه العظمة من العدم إلى الوجود.

نعم: لا غرابة في خلق عيسى من غير ذكر، كما أنه لا غرابة في خلق حواء من غير أنثى، بل لا غرابة أيضاً في خلق آدم من تراب من غير ذكر وأنثى.

أريد أن أقول: لا غرابة في خلقَ عيسى من غير ذكر (أب) حتى يقول من يقول إنه ابن الله، وكل هذا وذاك من قدرة الله العلي القدير الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له «كن» فيكون.

١ ـ ولما غلت وتجاوزت النصارى في رفع منزلة عيسى عن مقداره حتى قالوا «إنه ابن الله» وجه الله خطابه الإلهي نحوهم فقال: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم» لا تتجاوزوا فيه عن الحد، «ولا تقولوا على الله إلا الحق» وهو تنزيهه سبحانه عن الشريك والولد، «إنما المسيح عيسى ابن مريم» لا ابن الله . وهو «رسول الله وكلمته» التي «ألقاها إلى مريم» وهذه الكلمة هي قوله سبحانه مخاطباً لعيسى «كن» فكان بشراً سوياً من غير أب.

«وروح منه» إن عيسى روح من تخليقه وتكوينه. نفخ به جبريل في جيب درع مريم فحملته، وكان المنفخ بأمر الله لإظهار قدرته.

«فآمنوا بالله» وحده لا تشركوا به «ورسله» وآمنوا برسل الله، وفيهم عيسى ومحمد، «ولا تقولوا ثلاثة» ولا تقولوا إن الآلهة ثلاثة، بإشراك عيسى ومريم بالله سبحانه! «انتهوا» عن القول بالتثليث «خيراً لكم» يعني: أن الانتهاء عن التثليث يكون خيراً لكم.

«إنما الله إله واحد» لا شريك له، «سبحانه أن يكون له ولد» فإنه منزه منه، «له ما في السموات وما في الأرض». كل ما في السموات وما في الأرض (وفيها عيسى ومريم) ملكه ومخلوقه. «وكفى بالله وكيلا» يعني كفى الله حافظاً ومدبراً لما في السموات والأرض، فلا يحتاج إلى ولد يعينه أو شريك يساعده (الآية ١٧١ النساء).

هذا ومن تفكر في سياق الآية وما فيها من المعاني، فإنه يجد أنها تنطبق على العقل والمنطق، مما يستوجب القبول بلا نزاع، والإيمان بلا مرية.

٣ ـ ولما أن قوماً من النصارى قالوا «إن الله هو المسيح بن مريم» ذلك لأنهم اعتقدوا أن عيسى يخلق ويحيي ويميت، وقد أخطأوا في هذه العقيدة، لأن كلا من خلق الطير أو الأحياء أو الإماتة إنما كان بإذن الله عز وجل، كما أخبر الله عنه فقال: «وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبريء الأكمة والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني» (الآية ١١٠ المائدة).

نعم: إن ذلك كله كان معجزة لرسوله عيسى، كسائر المعجزات لأنبيائه ورسله. ولهذا حكم الله سبحانه بكفرهم ونبههم على بطلان عقيدتهم بأسلوب منطقي حكيم يثير فكرة الإنسان ويضطره للاعتراف بما هو الحق، وهو أن عيسى ليس إلهاً وإنما هو عبد من عباد الله ورسول من رسله، حيث قال:

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، قل فمن يملك من الله»

حتى يمنع من قدرته وإرادته «شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ومن في الأرض جميعاً» فإن المسيح عبد مخلوق (وأمه مريم) كسائر عباده ومخلوقاته، لا تفاوت بينهما وبين سائر العباد وغيرهم ممن في الأرض جميعاً، يهلكهم إذا أراد هلاكهم، كما خلقهم حينما أراد خلقهم، فإذا كان المسيح عيسى عبد الله ومخلوقه، فلا يكون إلهاً، كما أن عبداً من عباد الله لا يكون (ولا يعقل أن يكون) إلهاً، فالنسبة بينهم إلى الله سواء.

ولما أن خلق عيسى من غير أب كان سبباً لخطأ القول والعقيدة بشأنه، نبه الله سبحانه على هذا الخطأ فقال: «ولله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء» يخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم، ويخلق من غير أنثى كما خلق حواء، ويخلق من غير ذكر كما خلق عيسى، ويخلق من ذكر وأنثى كما خلق سائر الإنسان. «والله على كل شيء قدير» يظهر قدرته الباهرة في خلقه، ليؤمن به عباده حق الإيمان، ويوحده حق التوحيد. (الآية ١٧ المائدة).

وأقول: ولا يخفى ما في هذه الآية وحكمها ومعانيها من الانطباق على المنطق والمماشاة مع العقل السليم، وقد أكد الله حكمه هذا في آية أخرى، حيث قال: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم».

يعني: أن القول بأن الله هو المسيح ابن مريم، قول باطل لا يتفق مع الحقيقة والواقع، وإنه كفر بالله الذي خلق المسيح وغيره، فإن المسيح نفسه حينما بعث رسولاً إلى بني إسرائيل، قال لهم فيما بلغه إليهم من رسالته: «يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم» دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم ضمناً عن اتخاذ عيسى إلهاً، ولم يفرق بين نفسه وبينهم في كونه وبني إسرائيل مربوبين ومملوكين لله رب العالمين، بل صرح بأن الله ربه الذي خلقه. كما أنه رب بني إسرائيل الذي خلقهم.

نعم: إن الله عز وجل أثبت في هذه الآية عقلياً، وركز في عقول عالم البشرية بأن المربوب لا يكون إلهاً!.

ثم هددهم فيما نهاهم عنه (وهو اتخاذ عيسى إلهاً وإشراكه بالله) فقال: «إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار. وما للظالمين من أنصار» (الآية ٧٢ المائدة).

٤ ـ ولما أن قوماً آخرين من النصارى قالوا: «إن الله ثالث ثلاثة آلهة» حكم الله بكفرهم ونبههم على خطأهم وبطلان عقيدتهم بالتثليث فقال: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد» يعني: لا يوجد لهذا الكون إله في الوجود، إلا إله موصوف بالوحدانية، لا شريك له في ألوهيته.

ثم هدد الله سبحانه الذين بقوا على عقيدة التثليث ولم ينتهوا عنه حيث قال: «وإن لم ينتهوا عما يقولون، ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» ثم حثهم على التوبة والاستغفار عما قالوه من التثليث وقال «أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟» وذلك بعد أن نبههم على بطلان عقيدتهم وهددهم عليها. وفي ختام الآية قال: «والله غفور رحيم» لمن تاب إليه واستغفره (الآية ٧٣ ـ ٧٤ المائدة).

٥ ـ ثم إن الله سبحانه أراد إقناع هؤلاء القوم من النصارى على الحقيقة عن طريق واقعي، وأسلوب منطقي آخر، فقال: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول، قد خلت من قبله الرسل» يعني أن المسيح ليس إلهاً، وإنما هو رسول من الرسل الذي خلوا قبله، وإذا كان قد وقع عن المسيح خلق الطير أو إبراء الأكمة والأبرص، أو إحياء الموتى، فإنما وقع كل ذلك عنه بإذن الله معجزة له كمعجزات سائر الأنبياء والمرسلين، فلا يدل وقوعه عن المسيح على أن يكون إلهاً «وأمه صديقة» يعني: وما أم المسيح أيضاً إلا امرأة كسائر النساء، صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، (كما وصفها الله في آية أخرى) «كانا يأكلان الطعام» يعني: أن المسيح وأمه مريم كانا يأكلان الطعام، وفي حاجة للاغتذاء به، مما يدل على أنهما كانا مخلوقين كسائر بني الإنسان، وقد ثبت بالعقل السليم أن من كان في حاجة إلى أكل الطعام وما يتبعه من عملية الهضم وإخراج الفضلة، فإنه لا يكون إلهاً، وإنما هو مخلوق من اللحم والعظم

والعروق والأعصاب والمعدة وغيرها كسائر المخلوقين.

وفي ختام الآية خاطب الله سبحانه رسوله محمد ﷺ وكل من يصلح الخطاب فقال: «انظر كيف نبين لهم الآيات؟» يعني: كيف نبين لهؤلاء القوم من النصارى، الدلائل الظاهرة على بطلان قولهم وعقيدتهم بشأن عيسى وأمه؟ «ثم انظر أنى يؤفكون؟» أي: كيف يصرفون عن الحق وقبوله بعد هذا البيان؟ (الآية ٧٥ المائدة).

٦ ـ ثم أمر الله سبحانه، رسوله محمداً ﷺ، أن يقول لهؤلاء احتجاجاً على عقيدتهم الباطلة، وتنبيهاً لهم عليهم عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة فقال: «قل أتعبدون من دون الله، ما لا يملك لكم نفعاً ولا ضراً؟» يعني أتتخذون المسيح إلهاً وتعبدونه من دون الله، وهو لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال.

ومن المعلوم أن كل ما يستطيعه بنو البشر (وفيهم المسيح) من المضار والمنافع فإنما هو من عند الله وبتخليقه سبحانه، فكأن المسيح لا يملك شيئاً، وهذا دليل عقلي قاطع على أن شأن المسيح عيسى مناف لأن يكون إلهاً، لأن من صفات الإله أن يكون قادراً على كل شيء، بحيث لا يخرج شيء في السموات والأرض عن قدرته.

«والله هو السميع العليم» يعني: أتتخذون المسيح إلهاً وتعبدونه ولا تخشون الله، وهو الذي يسمع ما تقولونه من القول الباطل، ويعلم ما تعتقدونه من العقيدة الباطلة؟ (الآية ٧٦ المائدة).

٧ ـ ثم أراد الله عز وجل أن ينهي هؤلاء القوم من النصارى نهياً نهائياً عما يقولونه من القول الباطل، وما يعتقدونه من العقيدة الباطلة، بشأن المسيح عيسى، فأمر نبيه محمداً ﷺ حيث قال: «قل يا أهل الكتاب، لا تغلوا في دينكم غير الحق» يعني: لا تغلوا ولا تتجاوزوا عن الحد في دينكم باتخاذ المسيح إلهاً وإشراكه بالله، ولا تقولوا غير الحق، وهو أن المسيح عيسى مخلوق الله وعبده

ورسوله، وأن ما يفعله من الأفعال الخارقة للعادة، إنما هو بإذن الله وتخليقه، معجزة له لإثبات رسالته كمعجزات سائر المرسلين. «ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل» يعني: ولا تتبعوا أهواء قوم من أسلافكم وأئمتكم، الذين كانوا على الضلالة من العقيدة بشأن المسيح قبل بعثة محمد، «وأضلوا كثيراً» ممن تابعهم عن جهل وتقليد أعمى، «وضلوا عن سوء السبيل» وداموا على ضلالتهم في تلك العقيدة بعد بعثة محمد ﷺ لأن[1] عقيدتهم أهواء لا تتفق مع الفطرة والعقل السليم.

أقول: إن ما ذكرناه وفسرناه من هذه الآيات البينات السبع من القرآن المجيد، التي نزلت بشأن المسيح عيسى وأمه مريم العذراء يدور حول إبطال عقيدة المسيحيين بشأنها، وإن كلا من تلك الآيات يكفي لإقناعهم على ذلك في شكل منطقي وأسلوب عقلي، يبتنى على مواجهتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ولا يبقى وراءه حاجة إلى دلائل عقلية أخرى لإثبات عدم مطابقة تلك العقيدة (بأنواعها) على مقتضى الفطرة، والعقل السليم والمنطق. والشاعر يقول:

وليس يقر في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

«لمزيد العلم واليقين»

ونذكر هنا بعض آيات أخرى التي نزلت في هذا الباب، ونفسرها إجمالاً وإنما ذلك لمزيد العلم واليقين، من القراء الكرام.

قال الله عز وجل في كتابه «القرآن المجيد» «واذكر» يا محمد لمن حولك من الناس «في الكتاب» القرآن «مريم» ابنة عمران «إذ انتبذت» تنحت واعتزلت «مكاناً شرقياً» مكاناً في دارها مما يلي الشرق، وكان اليوم شديد البرد، فجلست في مشرقه، «فاتخذت من دونهم حجاباً» أي اتخذت من دون الناس ستراً، وقال بعض المفسرين:

---

(١) تعليل (من نص الآية) لقوله: ولا تتبعوا أهواء قوم.

كانت مريم قد طهرت من الحيض فذهبت لتغتسل وراء الجدار، «فأرسلنا روحنا» يعني جبريل، «فتمثل لها بشراً سوياً» أي سوى الخلق لم ينقص له من الصورة الآدمية شيء، وذلك لكي تستأنس مريم به وتستمع إلى كلامه، «قالت» مريم حينما رأت جبريل:

«إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً»، مؤمناً تتقي الله عز وجل «قال» جبريل: «إنما أنا رسول ربك، لأهب لك» بإذن من الله وبأمره سبحانه، «غلاماً ذكياً» طاهراً نامياً على الخير والبركة «قالت أني» كيف «يكون لي غلام ولم يمسسني بشر» زوج بالنكاح «ولم أك بغياً» فاجرة تميل إلى السفاح «قال كذلك» أي إن الحقيقة كما قلت، لم يمسسك بشر نكاحاً أو سفاحاً، ولكن «قال ربك هو على هين» أي إعطاء غلام، سهل علي، فإني على كل شيء قدير. «ولنجعله آية للناس» على قدرتنا «ورحمة منا» لمن آمن به، «وكان أمراً مقضياً» وكان خلق عيسى بدون أب أمراً مقضياً من قضاء الله في اللوح المحفوظ.

قال المفسرون: فلما اطمأنت مريم إلى قول جبريل دنا منها، فنفخ جبريل في جيب درعها «فحملته» فحملت مريم الغلام الموهوب، وهو عيسى «فانتبذت به» أي اعتزلت مريم وهي حامل به «مكاناً قصياً» بعيداً عن أعين قومها وراء الجبل، «فأجاءها المخاض» ألجأها وجع الولادة، إلى جذع النخلة» لكي تستند عليه، وكأن الله سبحانه أراد أن يطعمها الرطب، لأنه طعام النفساء، «قالت يا ليتني مت قبل هذا» تمنت مريم عند ذلك الموت استحياء من الناس وخوفاً من الاتهام، «وكنت نسياً منسياً» شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر «فناداها من تحتها» ناداها جبريل من تحتها حيث كان في مكان منخفض عنها، تسلية لها، «أن لا تحزني، قد جعل ربك تحتك سرياً» بقربك وتحت أمرك سيداً كريماً (وهو عيسى عليه السلام). وفسر بعض المفسرين «سرياً» أي جدولاً، بناء على ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: ضرب جبريل الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرت، فاخضرت النخلة وكانت في الشتاء يابسة، وأثمرت وأينعت ثمرتها بإذن الله عز وجل. «وهزي إليك بجذع النخلة» حركي إلى نفسك

جذعها «تساقط عليك رطباً جنياً» طرياً «فكلي» من الجنى «واشربي» من السرى، «وقرى عيناً» بالولد الرضي «فإما ترين من البشر أحداً فقولي الإشارة لمن يسأل عن حالك «إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً» وكان الصوم عن الكلام مشروعاً بينهم، وإنما قال لها جبريل ذلك بأمر الله سبحانه، لكي لا يضيقها الناس بالمجادلة قبل أن يتكلم لهم عيسى ويبرئها بإذن الله عز وجل «فأتت به» أتت مريم بولدها «قومها تحمله» بعد أن قضت في مكانها أربعين ليلة، أو في نفس اليوم خرقاً لعادة سائر النساء.

«قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً» أي بديعاً عجيباً، وخاطبوها قائلين: «يا أخت هارون» يا شبيهة هارون في العفة والتقوى، «ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً» فقد كنت من أصل تقي تقي، فمن أين هذا الولد؟ «فأشارت» مريم «إليه» إلى ولدها عيسى لكي يكلموه، «قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟» ولما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم و«قال إني عبد الله» أقر عيسى على نفسه في أول ما تكلم به أمام قومه بأنه عبد الله، وكان في ذلك ردعاً للناس عن أن يتخذوه إلهاً، أو ابناً لله، وثالث ثلاثة. ثم قال عيسى «أتاني الكتاب، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. وبهذا أخبر عيسى قومه عما كتب له في اللوح المحفوظ من أن الله سبحانه سيؤتيه الكتاب (الإنجيل) ويجعله نبياً ومباركاً أينما يكون، ويوصيه بإقامة الصلاة وإيتاء والزكاة ما دام هو في حياته، ويجعله ولداً باراً بوالدته مريم، ولا يجعله جباراً متكبراً شقياً، وذلك في مستقبله طول حياته بين قومه في هذا الكون.

ثم قال عيسى «والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً» ثم قال الله عز وجل تثبيتاً لما هو الحق من القول، وتنزيهاً لذاته المقدس عن اتخاذ الولد أو الشزيك «ذلك» الذي قال ما قال أمام قومه وهو في المهد بإذن الله معجزة له، بياناً عن حقيقته، وتبرئة لأمه، هو «عيسى بن مريم» لا كما قالت النصارى إنه ابن الله!.

أقول: «قول الحق الذي فيه يمترون» أي يشكون، وذلك بسبب أنه ولد بدون أب، «ما كان الله أن يتخذ من ولد» ما كان ينبغي له أن يتخذ ولداً «سبحانه» أي نزه أيها المخاطب، ذاته المقدس، تنزيهاً عن اتخاذ الولد! «إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن، فيكون» فولادة عيسى من غير أب كان أمراً مقضياً من عند الله سبحانه، قال له «كن» فكان.

فلا يكون دليلاً أو سبباً للشك بشأن عيسى، وإنما هو آية من آيات الله لعالم البشرية في إثبات قدرته، خلقه من غير أب، كما خلق حواء من غير أم وخلق آدم من تراب من غير أب وأم.

«وإن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم». قال المفسرون: هذا أيضاً من كلام عيسى عليه السلام، وقد أقر به بأن الله ربه الذي خلقه ورب قومه الذين خلقهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ثم قال: «هذا» يعني التوحيد صراط مستقيم لا غيره، يجب اتباعه على عالم البشرية (الآيات من الآية ١٦ ـ ٣٦ المائدة).

٢ ـ «لن يستنكف المسيح» لن يأنف ولن يستكبر عيسى «أن يكون عبداً لله» من عباده الذين يعبدونه وحده، «ولا الملائكة المقربون» وحتى لن يأنف ولن يستكبر الملائكة المقربون، الكروبيون حول العرش، وأكابر الملائكة من جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، أن يكونوا عباد الله سبحانه يعبدونه وحده.

أقول: وهنا إشارة إلى معنى مضمر، وهو: إن المشركين إنما أشركوا المسيح بالله بسبب ظنهم أن القدرة الفائقة، وسعة العلم، وغرابة التكون، هي الأسباب التي تورث الترفع عن العبادة، وحينما رأوا المسيح ولد من غير أب، وهو يبريء الأكمة والأبرص، ويحيي الموتى، وينبيء بما يأكلون ومايدخرون، اعتقدوا أنه بريء من أن يكون عبداً من عباد الله، ولهذا قال الله سبحانه: «ولا الملائكة المقربون» يعني: إن هؤلاء الملائكة مع ما لهم من القدرة الفائقة على قدرة البشر، وما لهم من الاطلاع على العلوم الكونية، ومع تجردهم في التكون عن التولد الازدواجي، لا يستنكفون عن عبادة الله عز وجل، فكيف يستنكف

من يتولد (وهو عيسى) من أخرى (وهي مريم) وهو لا يقدر ما يقدرون، ولا يعلم ما يعلمون؟.

إذن فإن عيسى عبدٌ من عباد الله الذين يعبدونه، وهو لا يستنكف ولا يستكبر أن يكون عبداً لله سبحانه.

«ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيحشرهم إليه جميعاً» يوم القيامة، حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً، لينالوا جزاءهم الأوفى جزاء الاستنكاف والاستكبار.

ثم بشر الله عز وجل عباده المؤمنين حيث قال: «وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم» جزاء إيمانهم وأعمالهم الصالحة «ويزيدهم من فضله» ما لا عين رأته، ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر.

ثم أعقبه الله بإنذار المستنكفين بعدما أجمل فيهم، فقال: «وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون من دون الله ولياً» ينجيهم من عذابه، «ولا نصيراً» ينصرهم ويدفع عنهم العقوبة.

٣ ـ «وإذ قال[1] الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟» يعني: واذكروا أيها الناس إذ يقول الله عز وجل يوم القيامة مخاطباً لعيسى ويسأله هذا السؤال، وذلك حينما يجمع الرسل، فيقول لهم: «ماذا أجبتم؟».

«قال سبحانك» يعني: فيقول عيسى في الجواب: أنت منزه تنزيهاً من أن يكون لك شريك. «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق» لا ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله. «إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربي وربكم» يعني: إنما دعوتهم إلى عبادتك وحدك، وأبلغتهم أنك

---

(١) من قبيل التعبير عن المضارع المتحقق الوقوع، بصيغة الماضي.

ربي وربهم الذي يستحق العبادة، وذلك تنفيذاً لأمرك. ثم يقول عيسى: «وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم» يعني: كنت رقيباً عليهم مدة كوني فيهم. «فلا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد» من قولي وفعلي وأقوالهم وأفعالهم أجمعين «إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم». يعني: إن تعذب من أصروا في كفرهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لمن تابوا منهم بعدي، فإنك أنت العزيز الحكيم القوي القادر، والحكيم الذي لا يخلو حكمه عن حكمة، ولا تصرفه في خلقه عن مصلحة.

«قال الله» يعني: يقول الله لعيسى بعد استماع جوابه «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم».

وفي ختام الآيات عظم الله ذاته ونزهه عما قال فيه المشركون فقال: «لله ملك السموات والأرض وما فيهن» فهو الذي يستحق أن يكون إلهاً واحداً لا يشاركه عيسى ولا أمه ولا غيرهما! «وهو على كل شيء قدير» لا يخرج عن قدرته الكاملة السامية شيء (الآيات من الآية ١١٦ - ١٢٠ المائدة).

أقول: هذا ما يجري يوم القيامة من السؤال والجواب بين الله سبحانه وبين عيسى عبده ورسوله، وإنما ذلك توبيخاً للذين قالوا واعتقدوا بشأن عيسى وأمه مريم غير الحق.

وذلك «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم» يعني: ما الذي أجابتكم به أممكم التي أرسلتكم إليهم، حينما بلغتم إليهم رسالتي في دار الدنيا، ودعوتموهم إلى توحيدي وعبادتي؟.

وقد ذكر الله عز وجل بصيغة تؤكد وقوعه يوم القيامة، ذلك ذكرى للذاكرين.

«إبطال قول اليهود بشأنه، ورفعه إلى السماء»

لقد ادعى اليهود أنهم قتلوا عيسى ابن مريم، كما كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، وادعائهم هذا شيء باطل يخالف الحق والحقيقة، فإن الله عز وجل رفع عبده ورسوله عيسى إلى السماء ونجاه من شر اليهود، وكان رفعه حينما قصدوا أن يقتلوه.

فقد قال الله في كتابه المجيد: «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليهم بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً». (الآية ١٥٥ ـ ١٥٨ النساء).

بيّن الله عز وجل في هذه الآيات أسباب لعنته على اليهود، وفرض عقوباته الصارمة عليهم. وهي:

أولاً: إن اليهود نقضوا ميثاقهم الغليظ الذي أخذه الله منهم لأن يعملوا بما أمرهم به، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه، وكان ذلك حينما بعث إليهم موسى رسولاً.

ثانياً: إن اليهود كفروا بآيات الله ومعجزاته التي تدل على صدق أنبيائه ورسله.

ثالثاً: إن اليهود لم يقفوا عند حد كفرهم، بل زادوا عليه فقتلوا أنبياء الله، كزكريا ويحيى وغيرهما بغير حق، وذلك بعد قيام الحجة والدلائل الواضحة على ثبوت النبوة.

رابعاً: إن اليهود قالوا: «قلوبنا غلف» عليها أغطية وغشاوات، فلا يتوصل إليها شيء من الذكر والتبليغ، وإنما الحقيقة، أن الله عز وجل كان قد طبع على

قلوبهم، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر فلا يؤمنون إلا قليلا.

خامساً: إن اليهود كفروا بقدرة الله العلي القدير، حينما خلق عيسى من غير أب، فقالوا على أمه بهتاناً عظيماً، حيث رموها بالزنا، مع ظهور معجزات عند الولادة تدل على براءتها من بهتانهم العظيم في الإثم والجزاء.

سادساً: إن اليهود قالوا «إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله».

وكان هذا القول أيضاً على خلاف الحقيقة والواقع، فإنهم ما قتلوا المسيح وما صلبوه»، ولكن شبه لهم، وبيان ذلك كما رواه الطبري بسنده عن وهب بن منبه أنه قال:

أتى اليهود عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت، فأحاطوا (يعني اليهود) بهم، فصور الله كلهم (يعني الحواريين) على صورة عيسى فقالوا لهم «سحرتمونا» (مع أنه لم يكن هناك سحر، وإنما كان ما كان من إرادة الله وقدرته) «لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً» فقال عيسى لأصحابه: «من يشتري نفسه اليوم بالجنة؟» فقال رجل منهم «أنا» فخرج إليهم وقال «أنا عيسى» وقد صوره الله على صورة عيسى، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قتلوا عيسى، وقد رفعه الله إلى السماء من يومه ذلك. (ص ٥٤٨ ج ١ ـ تفسير الخازن).

كما قال الله سبحانه في ختام الآيات «وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً» أي: عزيزاً قوياً في انتقامه من اليهود، حكيماً فيما دبر من رفعه إليه.

«إفادة مزيدة»

لقد سبق في إبطال قول اليهود بشأن عيسى عليه السلام، أنهم استحقوا لعنة الله عز وجل وعقوبته لأسباب، منها ما أفاده الله بقوله.

«وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً» من أن اليهود كفروا بقدرة الله العلي القدير في خلقه عيسى من غير أب، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً حيث رموها بالزنا، مع ظهور معجزات عند الولادة تدل على براءة مريم العذراء من بهتانهم العظيم، الذي يستوجب إثماً عظيماً، وعذاباً أليماً على من اجترأوا لمثله.

والواقع: إننا إذا نظرنا إلى بوادر حياة مريم التي مضت عليها قبل ولادة ابنها عيسى، وتأملنا في نصوص الآيات التي نزلت بشأنها، فإنها تزيدنا إيماناً ببراءتها، ويقيناً بمكانتها العظيمة عند ربها.

فمنها: أن الله سبحانه يقول في كتابه المجيد: «وإذ قالت امرأة عمران» وهي حنة ابنة فاقوذا أم مريم، بعد أن حملتها «رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً» عتيقاً مفرغاً لعبادتك وخدمة بيتك المقدس، «فتقبل مني إنك أنت السميع» لدعائي إياك وتضرعي إليك «العليم» بنيتي وما في ضميري، «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى» اعتذرت حنة لربها بسبب أنها وضعت أنثى، وكان نذرها على أمل أنها ستضع غلاماً، وكانت سنن أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم، أنه ما منهم إلا ومن أولاده منذور محرر لخدمة بيت المقدس وأن الجارية لا تصلح لهذه الخدمة.

نعم: كان هذا اعتذاراً منها، لا إعلاماً كما يدل عليه ما بعده من قوله تعالى: «والله أعلم بما وضعت» من أنثى «وليس الذكر كالأنثى» لأن الذكر يصلح لخدمة بيت الله المقدس «وإني سميتها مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» دعت حنة ربها واستعاذت به سبحانه، وتضرعت لديه متوجهة إليه، أن يحفظ مولودتها مريم وذريتها من مس الشيطان الرجيم، ووسوسته لها لتضليلها، حتى تصبح هي وذريتها من الصالحات والصالحين.

نعم: اعتذرت حنة لذلك، ولكن الله الكريم تقبل مريم من حنة مكان الذكر استجابة لدعائها[1]، وخرقاً للعادة، فكأنها أصبحت من خدام بيت

---

(١) حيث قالت: «رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني».

المقدس، حيث قال «فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً».

ولما أن عمران أبو مريم كان قد توفي بعد أن حملتها حنة منه، أراد الله الرحيم الكريم أن تضعها في كفالة زكريا زوج خالتها (وقد ذكره الله تعالى بين[1] أنبيائه)، وكان من ذرية سليمان بن داود عليهم السلام، فقد حملتها أمها حنة إلى بيت المقدس ووضعتها بين أيدي الأحبار أبناء هارون، الذين كانوا يلون من بيت المقدس ما تليه الحجبة من الكعبة، فتنافسوا في كفالتها وتربيتها. فقال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها زوجتي. ولكن الأحبار أبوا تسليمها له، إلا بعد أن اقترعوا عليها، فخرجت القرعة له. فأصبح زكريا كفيلاً لمريم وأخذها وضمها إلى زوجته أم يحيى، حيث قال الله عز وجل: ﴿وكفلها زكريا﴾ إخباراً عن إرادته.

ولما شبت مريم وبلغت، بنى لها زكريا محراباً، أي مكاناً خاصاً لها في داخل المسجد حيث كانت مريم تعكف على عبادة الله سبحانه، وكان زكريا يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم، وحينما يدخل عليها يجد عندها رزقاً، أي فاكهة في غير وقتها، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، (كما قال المفسرون) فيتعجب زكريا ويسأل مريم عن مصدر هذا الرزق، وكان ذلك من عند الله (من الجنة) إكراماً، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (الآية ٣٥ ـ ٣٧ آل عمران).

قال العلامة الخازن في تفسيره: وقيل إن مريم لم تلقم ثدياً، بل كان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول زكريا: يا مريم أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله، تكلمت وهي صغيرة في المهد، كما تكلم ولدها عيسى وهو صغير في المهد. انتهى.

أقول: إن هذا القول غير صحيح لأنه لا يستند على دليل من النص، أو

---

(١) حيث قال: «وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس...» الآية ٨٥ ـ الأنعام.

ضعيف كما أشار إليه بصيغة «قيل» وعلى أي حال فإن هذه الآيات تدل دلالة واضحة بنصوصها على مقام مريم الرفيع ومكانتها العظيمة وكرامتها عند الله عز وجل، منذ أن ولدتها أمها. ومنها: أن الله تعالى قال بشأن مريم عليها السلام: ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ يعني: جبريل «يا مريم إن الله اصطفاك» أولاً، حيث اختارك منذورة محررة ولم تحرر أنثى قبلك «وطهرك» عن مسيس الرجال، أو من الحيض، والنفاس، أو من الذنوب، أو من جميع هذه الحالات، «واصطفاك» اختارك ثانياً «على نساء العالمين» في عصرك وعهدك.

كما روى الإمامان البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة ابنة خويلد».

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها.

ثم قالت الملائكة «يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين»[1] شكراً لله سبحانه، على اصطفائه إياك أولاً، وتطهيره واصطفائه إياك على نساء العالمين ثانياً، وشكراً على نعمه الظاهرة والباطنة.

أقول: ولا يخفى ما في هاتين الآيتين من الدلالة على علو مكانة مريم لدى ربها عز وجل، الأمر الذي يبرئها عن بهتان اليهود كل التبرئة.

ومنها: أن الله عز وجل قال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ أي المخلوقة لنا، ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ أي بصحفه التي أنزلها على إدريس وأمثاله من الأنبياء، «وكتبه» يعني الكتب المنزلة إلى داود وموسى وعيسى، «وكانت من القانتين» (الآية الأخيرة التحريم).

أقول: ولا يخفى ما في نصوص هذه الآية، ولا سيما في نص «التي أحصنت فرجها» من الدلالة الصريحة القاطعة على براءة مريم العذراء البتول عن بهتان اليهود، مع الدلالة على ما كانت عليه من الخصال العالية في حياتها، والمكانة العظيمة عند ربها.

---

(١) الآية ٤٢ - ٤٣ - آل عمران.

«نزول عيسى، وإيمان أهل الكتاب به»

ثم إن الله عز وجل أخبر العالم البشري (بل الثقلين) في كتابه المجيد، عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وعن إيمان أهل الكتاب به، حيث قال: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى الموجودين في قيد الحياة عند نزول عيسى عليه السلام من السماء «إلا ليؤمنن به» أي بعيسى إيماناً صحيحاً «قبل موته» أي قبل أن يموت عيسى.

أقول: إنهم يؤمنون بعيسى عليه السلام إيماناً بأن عيسى عبد الله ورسوله الذي بعثه. وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وأنه روح منه، وبذلك يظهر الحق، ويزهق الباطل، حتى تصبح الملل في العالم كله ملة واحدة، ألا وهي ملة الإسلام. نعم: هذا هو ما تدل عليه هذه الآية بنصها.

كما روى الإمامان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم» يعني: في الامة، «ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب» يعني: فيبطل النصرانية، «ويقتل الخنزير» أي يحرم أكله بحكم الدين الإسلامي ويبيح قتله «ويضع الجزية» يعني: لا يقبلها من اليهود والنصارى، وإنما يقبل منهم الإسلام فحسب، ذلك لأن حقيقة الديانة الإسلامية تظهر لدى أمم العالم جميعاً، بسبب ارتقاء الثقافة وانتشار العلم الصحيح في حياة البشرية، وظهور الحق ظهوراً لا يبقى بعده سبيل للباطل، «ويفيض المال» أي: يكثر كأنه يفيض، ويقل رغبة الناس إليه، ويزهدون فيه، «حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» وذلك لكمال يقظة الناس وشدة ميلهم إلى طاعة الله وعبادته سبحانه.

ثم قال أبو هريرة: فاقرأوا إن شئتم «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته» قال ذلك استشهاداً بالآية المذكورة. هذا، وفي ختام الآية قال الله سبحانه: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يعني: يشهد ضد اليهود بأنهم كذبوه وآذوه، ويشهد ضد النصارى بأنهم دعوه ابن الله، واعتقدوا بشأنه وشأن مريم غير الحق، من الاعتقادات الباطلة (الآية ١٥٩ النساء).

وفي ختام القول أقول:

ذلك هو القول الحق، وهذه هي الحقيقة والعقيدة الصحيحة بشأن المسيح

عيسى وأمه مريم العذراء عليهما السلام.

وقد استنبطناها جميعاً من الآيات البينات التي نزلت بشأنهما في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تلك الآيات التي تنطبق معانيها على المنطق، وتتمشى رموزها مع العقل السليم، وحججها مع التفكير الصحيح، بحيث لا تدر بعدها أي شك، ولا تدع وراءها أي تردد لدى المنصفين في عالم البشرية. وها هو تحقيقنا (على أساس تلك النصوص القرآنية) قد انتهى إلى العقيدة الصحيحة التي نعتقدها نحن المسلمون من الصدر الأول للإسلام إلى يومنا هذا. وهي:

إن عيسى عبد الله ورسوله، خلقه الله بكلمة منه من غير أب، ليكون آية تدل على قدرة الله العلي القدير، ورحمة لمن آمن به صحيح الإيمان.

وأن عيسى ما قتله اليهود وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وقد رفعه الله إلى السماء تكريماً له من عنده، وحفظاً من شر أعدائه، وأن عيسى سينزل من السماء في آخر الزمان فيؤمن به كل من كان في قيد الحياة من أهل الكتاب، بأنه عبد الله ورسوله، فتنكشف الحقيقة، ويظهر الحق لدى أمم العالم كله، وإنما ذلك على أساس حكم الإسلام.

أيها القراء الأعزاء:

ولعلنا استطعنا أن نعرض عليكم ما هو الحق من القول والعقيدة، بشأن عيسى وأمه، وأثبتنا (لدى المنكرين) وحدانية الله سبحانه الذي لا إله إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه يرجعون.

«وشهد شاهد من أهلها»

لقد اتضح مما سبق أن القول بأن عيسى إله، أو القول بأنه ابن الله، أو القول بأن الله ثالث ثلاثة (بإشراك عيسى وأمه بالله سبحانه) كله قول باطل يخالف وحي السماء، كما أنه لا ينطبق على المنطق، ولا يتمشى مع العقل السليم والتفكير الصحيح لدى المنصفين.

نعم: إن هذه الأقوال وما يبتنى عليها من العقائد والطقوس كلها باطل، لا يرضى بها الضمير الإنساني، بل يمجها العقل البشري.

وقد شهد شاهد من أهلها، شهد ضدها وصرح ببطلانها عدد غير قليل من

علماء الغرب الدينيين والاجتماعيين.

وهم الذين نظروا إلى تلك العقائد والطقوس نظرة المنصف المدقق، وتأملوا فيها تأمل الباحث المحقق، الذي لا يريد من وراء بحثه إلا الوصول إلى ما هو الحق، ولا يبغى إلا كشف الغطاء عن وجه الحقيقة، وإنما ذلك خدمة للعلم والتاريخ، وإخلاصاً في إصلاح العالم الإنساني، وإرادة خير للمجتمع النصراني.

وقد أتوا بتصريحات جريئة بشأن عيسى وأمه مريم العذراء، أو أبدوا آراءهم في الأناجيل المتبعة لدى طوائف المسيحية، مما يؤدي بجملتها إلى تأييد ما ذكرناه وفسرناه من الآيات البينات التي وردت في القرآن المجيد في هذا الباب، وإلى تأكيد ما وصلنا إليه من النتيجة في إثبات العقيدة الصحيحة لدى المسلمين، التي ينص عليها حكم الدين الإسلامي المبين، والتي يجب على العالم النصراني أن يستجيب لها رغبة منه فيما هو الحق.

تلك التصريحات التي وقع نظري فيها من غير قصد، وذلك حينما كنت أتصفح وأقصد شيئاً آخر.

أريد أن أقول: كنت أتصفح مجموعة من صحيفة «الصراط المستقيم»[1] التي أصدرتها «جمعية الهداية الإسلامية» في بغداد، بقلم علمائها الإعلام المصلحين وفضلائها المخلصين، جزاهم الله جزاء المجاهدين، الذين جاهدوا حق جهاده في سبيل إصلاح عباده.

وكانت التصريحات منشورة في العدد ١١٩ للسنة الرابعة ١٤ شوال سنة ١٣٥١ هـ.

«وإلى القراء الكرام روايتها»

١ ـ قال القس هـ.د.ا. ماجور رئيس معبد ربيون بأكسفورد: «يجب أن يعلم علم اليقين، أن عيسى لم يقل في الأناجيل أنه ابن الله، بحالة طبيعية، كما تقول قصص ولادته العذرية، ولم يقل إنه ابن الله بحالة نفسية كما يدعي علماء لاهوت نيس. بل قال إنه ابن الله بحالة مجازية».

---

(١) كان المؤلف يكتب تبليغات إسلامية في هذه المجلة ومجلة «الهداية» مساهمة لجهاد تلك الجمعية.

٢ ـ وقال الدكتور راشدال كارليل في خطبته بمؤتمر الأساقفة والقسيسين في أكسفورد سنة ١٩٢١: «إن قراءة الكتاب المقدس أظهرت له أن عيسى ليس بإله، ولم تسمح له تلك القراءة باتخاذ عيسى إلهاً، لأن عيسى كان رجلاً بكل معنى الكلمة، لا إلهاً...».

ثم قال: «لم يدع المسيح الألوهية ولم يناد بها! ربما كان قد سمح لنفسه أن يدعى مسيحاً، إلا أنه لا يوجد في أي قول مثبت ما يدل على أن علاقته بالله يختلف عن علاقة أي بشر آخر بالله». ومضى فقال: «وأقوال الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) لا يمكن عدها تاريخياً، لأنها تفوق الإدراك البشري. ويتضح مما أتى به عيسى أنه كان رجلاً، وكان له جسم ونفس وعقل وإرادة بشرية.

ومن المخالف للحقيقة أن نظن أن روح عيسى كانت موجودة قبل خلق العالم، إذ ليس هناك أي أساس لمثل هذه العقيدة ما لم نجزم بأن كل الأرواح البشرية كانت موجودة قبل أن توجد الأجسام البشرية في الدنيا، وهذا يخالف المذهب الكاثوليكي المسلم به، ولا يحتاج ألوهية المسيح إلى ولادة عذرية، أو إلى إتيان أي معجزة أخرى إذا كان إلهاً، (ولم يكن إلهاً) فإن أمكن أن يثبت تاريخياً أن المسيح ولد حقاً من غير أب، فإن ذلك لا يكون دليلاً أو برهاناً على ألوهيته».

إلى أن قال: «ومع ذلك لا يمكن أن ينكر أن عيسى تكلم عن أشياء كثيرة وقال إنها ستحدث في المستقبل. والحال أن التاريخ لم يثبت حدوث شيء منها».

أقول: ويفيد الدكتور راشدال بكلامه الأخير، بأن هذا أيضاً يدل على أن عيسى لم يكن إلهاً، وإلا لوقع ما تكلم عنه.

ونحن المسلمون نقول: لعل تلك الأشياء الكثيرة كانت مما نسبه إلى عيسى لاتباعه بدون سند متصل به، وإلا فإن عيسى وهو رسول الله لا يتكلم إلا عن وحي من ربه عز وجل، فلا يمكن أن لا يحدث ما قاله أنه سيحدث، شأن أنبياء الله سلام الله عليهم أجمعين.

٣ ـ وقال جرجس روبن اليسوعي في مقدمة ترجمة الإنجيل طبع بيروت سنة ١٨٧٣ م:

«... فأغسطينوس أخبر عن الأحد عشر رئيساً للمبشرين الآخرين أنهم كانوا أصحاب أناجيل اتبعوا المسيح باعتقادهم به إنساناً ليس لاهوتياً، وأخبروا

بأناجيلهم عن أعمال المسيح بحال حياته».

٤ ـ وقال الفيلسوف الروسي «تولستوي» في كتابه «الإنجيل الصحيح»: «لا يخفى أن جميع ما تعطيه الكنيسة من التعليمات الخاصة بابن الله، والله وكونه في ثلاثة أقانيم، ثم الخاصة بالخبز والخمر الذين يستحيلان فعلاً إلى جسد ودم الله، ويتناولهما المسيحيون على هذا الاعتقاد، كله غير معقول والذي هو خرافة! وفي الختام قال:

وبناء على ما تقدم فإني أنبذ كتب العهد القديم، والكتب المقدسة التي حصرتها الكنيسة في سبعة وعشرين كتاباً».

٥ ـ ويقول المؤرخ الشهير مستر ولز المسيحي أشهر أدباء الإنجليز في كتابه «الله الملك الخفي»: «من الكفر ومن السخف أن يعتقد الإنسان بنظرية الثالوث، وبما أحاط بالمسيح وأمه مريم من خرافات أصبحت راسخة في الدين المسيحي، على أن المسيح لم يذكر شيئاً من هذا، ولم يأتنا بهذه النظريات إلا إسكندرفيلو اليهودي وأتباعه، الذين جعلوا يفسرون أقوال المسيح بعد ثلاث مائة سنة من تاريخ وفاته...».

ويقول: «لم يأت المسيح ولا بحرف واحد من هذه الكفريات المعقدة التي أصبحت فيما بعد، أساس الدين المسيحي، وقيدت عقول الغربيين بسلاسل من تلك الاعتقادات والطقوس». ويقول: «لم يدع عيسى ولم يفكر أبداً بنظرية الثالوث، ولم يصرح بالخلاص ولا الفداء...».

ثم يقول: «ولقد ازدادت الكفريات في الدين المسيحي منذ دخول بولس الرسول فيه، حتى إنها (الكفريات) أخفت الدين المسيحي الحقيقي عن العالم المسيحي، وأضاعت علينا تعاليمه الحقيقية والأعمال التي قام بها المسيح دون زيادة أو نقصان أو مبالغة، ولقد حللنا نظريات المسيحية، ولا أرى ضرورة لإضاعة الوقت في ذكر الإعتقادات التي يعتقدها المسيحيون» ويقول في ختام تصريحاته: «ولا يمكن قطعياً لمن يريد البحث عن الله حقيقة والإيمان به أن يعتقد بالثالوث، مهما كان وأياً كان مصدره، وأنا لا أدري فرقاً بين هذا الاعتقاد وبين عبادة الآلهة ذوات الرؤوس الثلاثة أو السبعة التي يعبدها الهنود.

٦ ـ وقال العلامة المسيحي دوان في كتابه «خرافات التوراة وما يماثلها في الديانات الأخرى»: كما نجد عند الوثنيين والدات للآلهة يعظمونهن ويلقبونهن

بألقاب التمجيد والتضخيم، كذلك نجد عند النصارى والدة للآلهة يعظمونها ويلقبونها بالألقاب التي يلقب الوثينون بها والدات آلهتهم، تؤكد ذلك الرسوم التي يصورونها بها وهي محتضنة ولدها المسيح، فإنها مثل الرسوم التي يصور الوثنيون بها والدات آلهتهم تماماً.

٧ ـ وقال مستر كانون بارنس، الأسقف بوستنسر:

«إننا لو سمحنا لبعض القصص الدينية الموجودة في سفر التكوين أن تظل في مناهج الدراسة في الأكاديميات والكليات العالية، لظن الجيل المقبل أن قاعدة صدقنا منحطة، لأن في هذا الكتاب خرافات ريفية، وتاريخاً مختلاً، وأخلاقاً وحشية، وأشكالاً لعبادة مبنية على سخائف، وأفكاراً خاطئة عن طبيعة الله، وعلوماً فجة...». ثم قال: هذا، وقد قرر الإكليريكيون في اجتماعهم الذي انعقد في كانتر بري يوم ٥ يوليو سنة ١٩١٧، حسب اقتراح بعض الإكليريكيين، تغيير السؤال الذي كان يوجه إلى الإكليريكيين عند تعيينهم وهو «هل تصدق تصديقاً حقيقياً بكل ما جاء في أسفار العهد القديم والعهد الجديد، التي تكوِّن الكتاب المقدس؟» فيكون الجواب «نعم نؤمن بصحتها» بهذه العبارة:

«هل تؤمن حقاً بأن أسفار الكتاب المقدس نقلت في كثير من أجزائها وبطرق شتى، الوحي الإلهي الذي تمم بعيسى؟» ويكون الجواب: «نعم نؤمن بذلك» ذلك لأن أكثر الإكليريكيون لا يعتقدون بصحة الأساطير والقصص والحوادث التي وردت في الأسفار».

٨ ـ وقال العلامة هورن في المجلد الرابع من تفسيره للكتاب المقدس:

«الحالات التي وصلت إلينا في باديء تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة بتراء وغير معينة، بحيث لا توصلنا إلى أمر معين، والمشايخ القدماء الأولون صدقوا الروايات الواهية وكتبوها، ثم قبل الذين جاءوا من بعدهم مكتوباتهم تعظيماً لهم. وهذه الروايات الصادقة والكاذبة وصلت من كاتب إلى كاتب آخر، وتعذر نقدها بعد انقضاء المدة».

٩ ـ وقال آدم كلارك في المجلد السادس من تفسيره للكتاب المقدس:

«هذا الأمر محقق، إن الأناجيل الكثيرة الكاذبة كانت رائجة في أول القرون المسيحية، وكثرة هذه الأحوال هيجت لوقا على تحرير الإنجيل، ويوجد ذكر أكثر

من سبعين من هذه الأناجيل الكاذبة، والأجزاء الكثيرة من هذه الأناجيل باقية وكان فابري سبوس جمع هذه الأناجيل الكاذبة في ثلاثة مجلدات».

١٠ ـ وقال وارد كاتلك في الصفحة ٣٧ من كتابه:

«ذكر راجرس، وهو من أعلم علماء بروتستانت، أسماء كثيرين من علماء فرقته الذين أخرجوا الكتب المفضلة من الكتب المقدسة، باعتقاد «أنها كاذبة» وهي الرسالة العبرانية، ورسالة يعقوب، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يهوذا، ومشاهدات يوحنا».

١١ ـ وقال الدكتور بلس من علماء بروتستانت:

«إن جميع الكتب ما كانت واجبة التسليم إلى عهد يوس بيوس». وأصر بلس: أن رسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، والرسالة الثالثة لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ليست من تصنيفات الحواريين، وكانت الرسالة العبرانية مردودة إلى مدة، والكنائس السريانية ما سلموا أن الرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يهوذا وكتاب المشاهدات، واجبة التسليم».

١٢ ـ وقال فاستس من علماء النصرانية وعظمائها:

«إن هذا العهد الجديد، ما صنفه المسيح ولا الحواريون، بل صنفه رجل مجهول الاسم، ونسبه إلى الحواريين.

١٣ ـ وقال صاحب كتاب «مرشد الطالبين» وهو مسيحي في الفصل السادس من الجزء الأول:

«في القرن الثاني من الميلاد كانت الأناجيل والرسائل تحت يد كنائس بعيدة، وقد ألحق بها زوراً ودسيسة، كتب أخرى أشتُهر واستعملت جداً، فلذلك وسوست بعض الكنائس في شأن قبول الرسالة العبرانية، ورسالة بطرس الثانية، ورسالتي يوحنا الثانية والثالثة، ورسالة يهوذا، وأعمال الرسل، وإنه لا

يوجد في الأناجيل تحريف في تعاليم التاريخ، ولا في قضاياه المهمة قصداً، بل قد يكون ذلك سهواً». إلى أن قال:

«ولا تعجبنّ من وجود اختلافات في نسخ الكتب المقدسة، لأن قبل ظهور صناعة الطبع في القرن الخامس عشر من الميلاد، كانت تنسخ بالخط، فكان بعض النساخ جاهلاً، وبعضهم غافلاً وساهياً، وربما أن كلا من النسخ يوجد فيها غلطة خاصة لا توجد في الأخرى، ولربما أن النساخ بجهالتهم ينيبون حرفاً مكان حرف آخر، أو كلمة مقام كلمة أخرى».

١٤ ـ وقال صاحب كتاب «الأدلة على صحة العقائد الأرثوذكسية» وهو مسيحي:

«إن البروتستانت يحرفون في الترجمة بما يوافق أهواءهم، ولهذا فإن ترجمتهم مخالفة لترجمة الكاثوليك».

١٥ ـ وقال القس هـ. ر. فنجتن رئيس الكنيسة الأسقفية الإنجليزية:

«إن الأناجيل كتبت حوالي سنة ٥٠، ١٠٠ بعد صعود المسيح وبعدها الرسائل الموجودة الآن في العهد الجديد، وأن العهد الجديد الموجود الآن هو ما أمكن انتخابه بعد عقد عدة مجامع لفحص هذه الكتب، وإخراج ما يجبه أن يكون قانونياً أو غير قانوني».

١٦ ـ وقالت مجلة «الشرق والغرب» التي تصدر في مصر (أي سنة ١٣٥١ هـ).

«إن أعضاء مدرسة العاديات الإنجليزية، وجدوا نسخة من إنجيل يوحنا في الكوم الكبير على ضفة النيل الشرقية جنوب أسيوط تاريخها (١٥٥٠)، وهي تخالف إنجيل يوحنا الحالي مخالفة جوهرية».

١٧ ـ وقال لاردنر في تفسيره للإنجيل:

«حكمَ على الأناجيل المقدسة لأجل جهالة مصنفيها بأنها ليست حسنة،

وذلك بأمر السلطان أناسطيثوس في الأيام التي كان فيها حاكماً في القسطنطينية فصححت مرة أخرى».

١٨ ـ وقال كروتيس المحقق الشهير وهو مسيحي:

«إن هذا الإنجيل كان عشرين باباً، فألحقت به كنيسة أفساس الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا».

١٩ ـ وقال الفيلسوف الروسي تولستوي في كتابه «الإنجيل الصحيح» أيضاً:

«لقد استرشدت عن صحة الأناجيل، القساوسة والرهبان والأساقفة والمطارنة وعلماء اللاهوت، فعجزوا عن إقامة الحجة، وكانوا فيما يقولون على تناقض بيّن، فلم أر فيهم فكراً قادراً على الحوم حول النقطة الجوهرية، ولعل سبب ذلك قلة يقينهم فيما يعتقدون، ثم وجدت غالب تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية موضوعاً غير معقول، وبالجملة فإن جميع الطوائف مصدقون لعقائد لا تنفع الحياة، ويقضي بفسادها العقل الصحيح». انتهى قوله بالاختصار.

«أقول»

أقول: هذه هي التصريحات التي أدلى بها عدد من علماء الغرب الدينيين والاجتماعيين ضد العقائد الباطلة بشأن عيسى وأمه، وما أبدوه من الآراء في الأناجيل المتبعة لدى طوائف المسيحية.

وقد رويناها بنصوصها عن المرجع المذكور بدون تعليق، كما آثرنا الحكمة في صرف النظر عن ختام تصريح الفيلسوف الروسي «تولستوي» لما كان فيه من حدة في الحكم، وشدة في الهجوم العام على الديانة المسيحية.

«وثيقة أخرى»

نشرت جريدة «الجمهورية» القاهرية في ملحقها الديني بتاريخ ١٩٦٦/٨/٥ النص الإنجليزي المنشور في جريدة «تايمس» في لندن بتاريخ ١٥ يوليه حول

وثيقة اكتشفت أخيراً[1]، وهي تتعلق بالعقيدة بشأن عيسى عليه السلام، وقد ترجمه وبعثه إلينا الأستاذ عبد الرزاق سلامة وكيل مصلحة الضرائب العام بالقاهرة مقترحاً نشره في بحث في مجلة «منبر الإسلام» فتقبلنا اقتراحه وكتبنا بحثاً تحت عنوان «وثيقة تؤيد حكم الإسلام، بشأن عيسى عليه السلام». وقد قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بنشره مسلسلاً، في أعداد: شوال، ذو العقدة، وذو الحجة من سنة ١٣٨٦، وعدد محرم سنة ١٣٨٧ الهجرية.

«بعض سطور النص»

ونحن ننقل هنا بعض سطور النص المذكور، ذلك لأنه يؤيد ما قلناه، كما يتفق (إجمالاً) مع ما شهد به عدد من علماء الغرب الدينيين والاجتماعيين في ضمن تصريحات رويناها (في ختام هذا الفصل من كتابنا) بشأن العقيدة بعيسى وأمه، والأناجيل المتبعة في الديانة المسيحية.

يقول النص الذي نشرته جريدة «تايمس» في لندن:

«تعتقد المسيحية أن عيسى ابن الله المقدس، ولكن مؤرخي الكنيسة يسلمون كثيراً، أن بعض أتباع المسيح من اليهود في العشريات الباكرة التالية لوفاته اعتبروه مجرد نبي آخر لبني إسرائيل».

ويقول: ولقد بزغ ضوء جديد غير عادي على عقائد بعض فرق اليهود الذين تنصروا ويسمون الناصورين أو النازارين، على شكل مخطوط عربي مكتشف في مخطوطات استانبول يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى.

ويقول عالم التوراة دافيد فلوسر في الجامعة العبرية بالقدس وهو أحد الخبراء العالميين في تاريخ الكنيسة الباكر:

«إن أهمية هذا الكشف لتاريخ المسيحيين الأول، كأهمية دراسة آثار البحر الميت، لتفهم أصل المسيحية».

---

(١) اكتشفها دكتور ساموبل ستيرن أستاذ الدراسات الإسلامية في أكسفورد.

ويقول النص:

«والوثيقة في ذاتها عجيبة في ٦٠٠ صفحة مخطوطة بخط رجل الدين المسلم عبد الجبار، في القرن العاشر، ويوجد من هذه الوثيقة ١٤٠ صفحة مكونة من ترجمة عربية لبيان سرياني قديم جداً للعقائد النازارية، ربما ترجع إلى القرن الخامس، وربما كان محررها بعض معتقدي هذه العقائد. النازارين هم الذين يعتبرون أنفسهم من أوائل أتباع المسيح الذين أخرجوا من فلسطين إلى سوريا حوالي ٦٢ بعد المسيح، إثر منازعات مؤلمة مع سائر المسيحيين».

ويقول النص:

«وكثير من نصوص النازارين التي نظمها عبد الجبار، تضم انتقاداً لتعاليم القديس بولس، وقد نسبت إليه أنه غيَّر تعاليم المسيح الصادقة إلى العادات الرومانية الوثنية، وأخطأ بإعلان المسيح أنه إله».

ويقول النص:

«والأكثر إثارة للدارسين للوثيقة المكتشفة أن بعض الفقرات ذات الرنين المتشابه لنغم الأناجيل تشمل كلمات منسوبة لعيسى (لم تكن معروفة من قبل) منها بعض التعاليم كما ترجمها «باينز»: «لن أحاسب الناس على أعمالهم، أو أحكم عليهم، الذي أرسلني هو الذي يصنع ذلك!». ويعتقد أن الوثيقة زادت نظرية بعض الدارسين قوة في نظريتهم التي تقول: «إن الأغلبية من أتباع عيسى الأولين في فلسطين، وليس قلة منهم، لم يعترفوا بألوهيته!».

ويقول النص في ختامه:

«إن علماء التوراة من النصارى في القدس يتساءلون بينهم عن الخلاصة الحاسمة التي ختم بها دافيد فلوسر، والتي انتهى إليها قائلاً:

«إننا يجب أن نصحح أفكارنا عن أصول المسيحية».

«وأما عبادة الخالق عز وجل»

لقد قلنا في أول الفصل «الإسلام ومقتضيات الفطرة» ما نصه:

«إذا نظرنا نظرة صحيحة إلى أصول الإسلام وفروعه (حتى الأحكام الجزئية) فإننا نجدها تنطبق على مقتضيات الفطرة، والعقل السليم والمنطق وعلى رأسها معرفة الخالق سبحانه والإيمان به وبوحدانيته».

وأثبتنا ما ادعيناه في معرفة الخالق سبحانه والإيمان به.

كما أثبتناه في وحدانيته، وذلك بالدلائل النقلية والعقلية، بطريقة آثرنا فيها الاختصار على ما قل ودل. وها نحن نقول:

وأما عبادة الخالق عز وجل، فإنها أيضاً مما تقتضيه الفطرة الإنسانية والعقل السليم والمنطق.

ذلك لأن العبادة (إجمالاً) عبارة عن شعور الإنسان بنعم الله عز وجل، وعن تقديره لحقوق ربه الذي أنعم عليه ما لا يحصى من النعم الظاهرة والباطنة «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الله لغفور رحيم» (الآية ١٨ النحل) لأن الإنسان بفطرته وضميره يقدر إنعام المنعم عليه فيحمده، ويمجد إحسان المحسن إليه فيشكره، وذلك بدون إيجاب من وحي، أو فرض من دين، بدليل أننا نرى الملحد الذي لا يؤمن بالله ولا بكتابه ولا برسوله، نراه ينحني لدى من أنعم عليه بشيء، أو أحسن إليه بأمر، ويشكره (كل بلغته التي يتكلم بها) اعتقاداً إنسانياً منه أن للمنعم حقاً على ذمته، ويقدر إحسان المحسن إليه، بما في وسعه واستطاعته من قول حسن، أو فعل حسن، حتى يجازي الإحسان بالإحسان.

«ومما يذكر هنا»

ومما يذكر هنا: إن هذا الشعور بالنعمة، والتقدير للإحسان، وعرفان الجميل، لا يختص بالإنسان، وهو يمتاز عن الحيوان بعقله الإنساني، بل يعم جميع الحيوان والطيور، وحتى المفترس منها، كما هو المشاهد في حياتنا بهذا الكون، فإنه يشعر بلطف صاحبه أو مدربه شعوراً واضحاً ملموساً لا يدع وراءه شكاً ولا تردداً في هذا الباب.

ونحن نلمس في طبيعة الكلب (حتى العقور) مثلاً: كل انحناء ووفاء

وتضحية لصاحبه، وفي هذا قصص واقعية كثيرة يطول الكلام بروايتها، ومن أراد الاطلاع فعليه بالمراجعة إلى مادة «الكلب» في «حياة الحيوان الكبرى» تأليف الشيخ كمال الدين الدميري[1].

هذا، وقد ثبت في التاريخ أن الإنسان قبل بعثة الأنبياء وإرسال الرسل، وفي أزمنة الفترة، كان يعبد من يعتقد أنه إله (ولو خطأ) وينحني ويركع أمامه خاضعاً، ويسجد له خاشعاً، إلى أن اهتدى من اهتدى إلى ما هو الحق، وهو الله سبحانه المعبود الحقيقي، وإلى طرق العبادة الصحيحة، وذلك عن طريق الوحي وبعثة الأنبياء وإرسال الرسل.

وهذا أيضاً مما يكفي للعاقل المنصف، في الاعتراف بأن عبادة الله سبحانه أيضاً مما تقتضيه الفطرة الإنسانية والعقل السليم، ويستوجبه الضمير الإنساني، مع ما في العبادة (بجميع أنواعها) من التأثير الواضح على أخلاق الفرد والمجتمع، وعلى هذا تصريح في قوله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ (الآية ٤٥ العنكبوت).

«وأما سائر أركان الإسلام وأحكامه»

وأما سائر أركان الإسلام وأحكامه في جميع شئون الحياة (الدينية والأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية) فقد ثبت أنها تتفق مع اقتضاء العقل السليم، والتفكير الصحيح، وتتضمن مصلحة الفرد والمجتمع الإنساني، وتتمشى مع الأقوام والقبائل من عالم البشرية، في كل زمان ومكان، مما يثبت أن الإسلام دين عالمي فطري أبدي.

وقد ألف علماء الإسلام والمؤرخون (في القديم والحديث) مؤلفات كثيرة في هذا الموضوع، واعترف بشأنه علماء الأجانب المنصفون (القدماء المتأخرون) كما يأتي فيما بعد من الفصول في هذا الكتاب.

---

(١) ولد سنة ٧٤٢هـ بالقاهرة، وتوفي سنة ٨٠٨هـ، ودفن في ضريحه بالحسينية.

هذا، وإذا تردد أحد من الناس أو شك في شيء من قولنا هذا فإنما هو من قلة اطلاعه، أو قصور شعوره، أو ضعف عقله، وسوء حظه، فعليه أن يوسع المطالعة، ويكثر المراجعة، وأن يعمق النظر، ويدقق الفكر، حتى يهتدي إلى ما هو الحق والصواب، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها. قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين». (الآية ٦٩ العنكبوت).

نعم: إن أصول الدين الإسلامي وفروعه، وجميع أحكامه الشاملة على شئون الحياة كلها تتفق مع الطبائع البشرية على اختلاف أنواعها، وتفرق أجناسها، ويتجاوب مع العقل البشري على تعدد مراتبه، وتفاوت درجاته، ولا سيما الأصل الأول، وهو اليقين بوجود الخالق سبحانه والإيمان به وبوحدانيته، مع التزام عبادته بجميع أنواعها الروحية والبدنية والمالية، ولهذا نقول بكل يقين وإيمان كامل:

إن الإسلام يحق له أن يسمى الدين الفطري الأبدي للعالم الإنساني عامة «فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (الآية ٣٠ الروم)، ولا شك في ذلك. وكيف؟ وقد أمضى الدين الإسلامي منذ عصره الأول إلى زماننا هذا ما يقرب من ١٤ قرناً، وفي كل دور من أدواره المتتابعة سجل منه التاريخ تجارب متينة للغاية، ونتائج مقدسة لدى أنظار العالم الإنساني، مع أتباعه وأتباع الأديان الأخرى، وأثبت قدسيته وعلويته وحكمته في جميع أحكامه وأهدافه، ومثله العليا، ومبادئه العامة، حتى كان أسوة حسنة لوضع قوانين وضعية لحياة سائر الشعوب والملل الغربية.

وبهذا وذلك فقد أقر التاريخ بقلم المحققين المنصفين أن الإسلام دين حق، وأنه دين فطري، وأنه دين خالد أبدي، وأنه دين يستحق أن يكون ديناً متبعاً لعامة البشر. وذلك بصورة واضحة ثابتة، لا تبقي أي شك لدى العاقلين، ولا تذر أي تردد لدى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، «وماذا بعد الحق إلا

الضلال، فأنى يؤفكون».

قال صاحب كتاب «محمد المثل الكامل» في وصف دعوة الإسلام:

«تلك دعوة مضى عليها ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن، وقد لباها عدد عظيم من الشرق، فأصبحوا بنعمة الله أفراداً في جماعة الأخوة الإسلامية الشاملة، ولا يزال الغرب مصماً آذانه عن سماعها؛ والأمل وطيد في أن يجيء الوقت الذي لا مناص له (للغرب) من إجابتها (دعوة الإسلام) لينجو من شر المشاكل المستعرّ لظاها، والتي إن لم تتدارك التهمت اليابس والأخضر» انتهى قوله.

وإني أقول: إن دعوة الإسلام الحقة، وحقائقه، وأهدافه السامية، ومثله العليا، قد زادت وضوحاً وانكشافاً في عصرنا، العصر العشرين (عصر تقدم العلوم والمعارف، عصر التحقيق والتدقيق، عصر الثقافة ونضوج الفكر البشري، عصر الانكشافات العلمية)، وقد فتح الغرب آذانه لسماعها، بل لاستماعها، بحيث انجذب نحو قبولها، واعتنق الدين الإسلامي كثير من الغربيين وبينوا بواعث اعتناقهم[1] ودعوا من حولهم لاعتناقه، مما يبشر عن مستقبل مدهش للإسلام، يزيد في صفحات التاريخ صفحات ذهبية أخرى. «فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» الآية.

وإنما ذلك إثر ارتقاء العلم والمعرفة، ونهضة الفكر والتقدم في الوعي والشعور، ولا سيما نتيجة البحث فيما يتعلق بالأديان والمباديء، للحصول على دين ينقذ العالم الراهن من الأخطار التي أحاطت به من كل جانب، وفي كل ناحية من نواحي حياته المضطربة.

وها هو الدين الإسلامي يزداد قوة، ويعلو تفوقاً على سائر الأديان والمباديء كلها، ولا يزال يزداد كلما مرت الأزمنة والأيام، ومضت الشهور والأعوام، وهذا هو شأن الحق كلما زادوا بحثاً وتحقيقاً ازداد ظهوراً، خلاف الباطل كلما

---

(١) كما سنذكره في ختام اعترافات الأجانب بتعاليم الإسلام العامة.

زدت حوله بحثاً زاد بطلانه ظهوراً، فزدت عنه إعراضاً ونفوراً، «وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً» (الآية ٨١ الإسراء).

ومما يجب التنبيه عليه: إن جيلا جديداً من المسلمين اليوم قد افتتنوا بالمدنية الغربية، وعلومها ومظاهرها الخلابة، فضعفت صلتهم الروحية، والاجتماعية بدينهم الإسلام إلى حد، وذلك بسبب قلة اطلاعهم على تعاليم دينهم، وضآلة ثقافتهم الدينية، مما جعل منهم جماعة يرون ما يتراءى أمامهم من المظاهر، ولا يرون الحقائق كما هي، مع الأسف الشديد.

وإني أقول: ولكن هذا حادث عارضي لا يدوم وسيزول عن ساحة الحق، وذلك ما دام في المجتمع الإسلامي عقل يميز بين الحق والباطل، وما دام فيه نور العلم وضياؤه، وسيرجعون إلى دينهم الفطري الخالد، ويؤمنون به إيماناً من جديد، ليعيشوا في ظله المقدس عيشة مرضية يرضاها الضمير الإنساني، ويستسيغها العقل البشري.

بل أزيد وأقول: إن العالم كله على اختلاف جنسيته وقوميته، وتشتت عنصره وأرومته، وميوله المختلفة، ونزعاته المتفرقة، سيلجأ إلى حظيرة الدين الإسلامي، لجوء من ظل تحت وهج الشمس إلى الظل، فلقد علم هذا العالم، ولا يزال يزيد علماً، أن الإصلاحات التي اهتدى إليها كبار رحال العلم في تهذيب أساليب النظر في شئون الحياة البشرية، وأن كل النتائج التي فاز بها الفلاسفة في تحديد الطبيعة الإنسانية وإقامتها على جادة مستقيمة تؤدي بالفرد والمجتمع إلى الخير المحض الخالص، قد سنها الدين الإسلامي بالنصوص الصريحة في كتاب الله وسنة رسوله.

وبعد زمن قليل سنرى الناس كافة أنهم في دين الإسلام، وفي ظل الإسلام وإن لم يعملوا للوصول إلى ذلك المقام. ذلك لأن الدين الإسلامي صبغة الله العليم الخبير التي تدوم ولا تتغير، وسنة الله التي تستمر ولا تتبدل، وفطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تنسخ، وتبقى إلى يوم القيامة.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الفيلسوف الألماني جوته حيث قال:

«إذا كان الإسلام هو هذا، فنحن إذن فيه». وقال أيضاً: «إذا كان الإسلام يعني الاستسلام لإرادة الله، فكلنا إذن مسلمون!».

وإني أقول: إن المؤمنين وحتى الكافرين خاضعون لهذا الدين الفطري العالمي الأبدي، ومنقادون لتعاليمه بحكم طبيعتهم البشرية وضميرهم الإنساني، رضوا أم كرهوا. وقد نبه الله عز وجل على هذه الحقيقة حيث قال: «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، وإليه ترجعون» الآية.

«وله من في السموات والأرض، كل له قانتون» (الآية ٢٦ الروم).

«تفاؤلي بأنباء السير إلى الفضاء»

وإني سجلت تفاؤلي (في مفكرتي لسنة ١٩٦٥ وما قبلها من السنوات) بأنباء السير إلى الفضاء والدوران حول الأرض الذي يقوم به رجال من أمريكا الرأسمالية، ورجال من روسيا الشيوعية.

فإن ذلك السير، أو الدوران حول الأرض، أو نجاح النزول على سطح القمر، أو الوصول إلى الزهرة وغيرها، سيزيد الإنسان اطلاعاً على شئون هذا الكون، وعلى ما فيه من عجائب الخلقة وغرائب الطبيعة، مما لا يذر أي شك أو تردد، في أن لهذا الكون العظيم خالقاً عظيماً خلقه وأوجده، وهو الذي يديره ويدبر شئونه، ويحفظ نظامه، حتى لا يبقى في الوجود من ينكر وجود الله خالق السموات والأرض، وخالق ذلك الإنسان السيار، وخالق غيره من المخلوقات والنباتات والجمادات.

فإن هذا السير أو الدوران، أو النزول أو الوصول، إنما هو تنفيذ من عند الله سبحانه لما وعده بقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ (الآية ٥٣ من سورة فصلت).

وبقوله: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون﴾ (الآية ٩٣ النمل).

ويؤيد ما قلناه: ذلك التطور الفكري، الذي حدث على تيتوف رائد الفضاء الروسي (وهو شيوعي لا يؤمن بالله سبحانه) وذلك حينما نظر من نافذة مركبته الفضائية إلى الكرة الأرضية فرآها أنها معلقة في الفضاء، فقال:

«ليت شعري، ما الذي تركها هكذا هناك»؟.

فقد اضطر الرائد المتفكر بضميره الإنساني أن يقول كلمة الإيمان من حيث لا يشعر. وقد نشرت الصحف هذا الحادث في وقته.

وقد أشرنا إلى هذا الموضوع تحت فصل «العصر العشرون ومعرفة الخالق» من كتابنا «مثنوي يا دكار زندان يا آيينه جهان» المنظوم باللغة الفارسية، الذي ألفناه في موازنة مثنوى مولانا جلال الدين الرومي المعروف المتوفي سنة ٦٧٢هـ، المدفون في قونية بتركيا. وكان تأليفه سنة ١٣٦٦هـ في كابل عاصمة افغانستان.

القسم الأول

«سرعة انتشار الإسلام»

«مع اعترافات الأجانب المنصفين»

قلنا فيما سبق أن الدين الإسلامي في أصوله وفروعه يتفق مع الطبائع البشرية، على اختلاف أجناسها وتفرق ميولها ونزعاتها، ويتجاوب مع العقل الإنساني وفطرته وضميره، على تعدد درجاته، وتفاوت مراتبه، واختلاف شعوره، وعلى رأسها معرفة الخالق سبحانه، والإيمان به، ووحدانيته مع التزام عبادته.

وفي النتيجة نقول: ولهذا الاتفاق والتجاوب (لا غير) انتشر الدين الإسلامي في ربوع العالم (بادئاً من جزيرة العرب إلى أقصى الشرق) بسرعة غير مسبوقة لم ير مثلها في انتشار أي دين من الأديان الأخرى. نعم كان انتشاره بهذه السرعة الفائقة بسبب ملاءمته لطبائع البشر وتجاوبه مع العقل الإنساني فحسب، لا عن طريق السيف واستعمال القوة. فقد ثبت في التاريخ (قديمه وحديثه) أن محمداً بن عبد الله ﷺ لما بعثه الله بهذا الدين المبين، كافة للناس ورحمة للعالمين، قام بدعوته سراً من أهل بيته وخاصة أصحابه، ثم من عشيرته الأقربين، امتثالاً بأمر ربه سبحانه «وأنذر عشيرتك الأقربين» ثم وجه دعوته إلى كافة الناس في جزيرة العرب، ثم إلى جميع أنحاء العالم وربوعه، ولم يستعمل رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، القوة المادية من السيف وغيره في نشر دينه المبين، وإنما قام بتأدية رسالته وواجب نبوته عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادل خصومه بالتي هي أحسن، وذلك امتثالاً منه بأمر الله سبحانه حيث قال: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. (الآية ١٢٥ النحل).

«الإيذاء، وصبر الرسول وشجاعته وثباته»

ولقد ذاق رسول الله ﷺ أذى كثيراً، وعداوة شديدة من المشركين وغيرهم من خصومه، شأن الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، وكان أشدهم له عداوة وأذى، جماعة المستهزئين، وعلى رأسهم أبو جهل عمرو ابن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي.

ولكن الرسول ﷺ كان يقابل كل أذى وكل قسوة بما أوتي من الصبر (صبر أولى العزم من الرسل) والشجاعة والثبات في تبليغ رسالته وتأدية أمانته، في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله ووحدانيته.

بدأ رسول الله ﷺ دعوته سراً كما أشرنا إليه، فكان أول من آمن به خديجة بنت خويلد زوجه، وعلي بن أبي طالب ابن عمه، وكان علي يعيش في كفالته ﷺ، كأحد أولاده، ثم آمن به زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي مولاه، ثم أم أيمن حاضنته التي زوجها لمولاه زيد.

وكان أول من آمن به ﷺ من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن كعب القرشي، لأنه كان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل النبوة، يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق، ولم يعهد عليه كذباً طول صحبته، فأسرع بالإيمان به والتصديق بنبوته، وقال: «بأبي أنت وأمي، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله».

ولهذا قال رسول الله ﷺ في شأنه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر». ثم قام أبو بكر بدعوة من يثق به إلى الإسلام من رجال قريش، فأجابه جمع، منهم عثمان بن عفان القرشي، والزبير بن العوام بن خويلد القرشي، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف القرشي الهاشمي، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، ثم سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي، وطلحة بن عبيد الله القرشي (وكان طلحة قد عرف من الرهبان ذكر محمد وصفته، وأنه سيبعث) وعبد الله

بن مسعود، وأبو ذر الغفاري وكان من أعراب البادية، وصهيب الرومي، وكان من الموالي، وعمار ابن ياسر وأبوه ياسر وأمه سمية، وغيرهم من القرشيين والقرشيات رضي الله عنهم وعنهن أجمعين.

نعم: بدأ رسول الله ﷺ دعوته سراً، ولم يكن الجهر بها بين مجامع قريش من الحكمة في بدء الأمر، فكان المسلمون يستخفون عبادتهم حذراً من سطوة أعداء الدين.

ولما دخل في الدين ما يربو على الثلاثين كان رسول الله ﷺ يجتمع بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي القرشي الذي كان من السابقين الأولين بالإيمان، ودامت الدعوة سراً حتى أنزل الله على رسوله أمره بالجهر حيث قال: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ (الآية ٩٤ سورة الحجر). فكان رسول الله ﷺ يقوم بالدعوة جهراً، وصعد رسول الله على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر! يا بني عدي! ـ نداء موجهاً لبطون قريش كلها ـ فجاء أبو لهب بن عبد المطلب مع جمع من رجال قريش.

فقال رسول الله ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب «تباً لك ألهذا جمعتنا؟» فأنزل الله في شأنه «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلي ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد».

كما نزل قوله سبحانه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك (أي العشرة الأقربون ولم يقبلوا إنذارك بالإعراض عن الإيمان) فقل إني بريء مما تعملون﴾ (الآية ٢١٤ الشعراء).

وقد أمر الله تعالى به رسوله محمداً ﷺ أن يقوم بإنذار خاص لعشيرته الأقربين، وهم بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو نوفل، وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف. فدعاهم الرسول ﷺ وجمعهم بين يديه وخاطبهم قائلاً: «إن

الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً (يعني فرضياً مع أنني لا أكذب أحداً، وقد جربتموني بالصدق) ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً (يعني فرضياً كما تدل عليه كلمة لو) ما غررتكم». وقال: «والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن كما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً» ولما سمعوه تكلموا كلاماً ليناً، إلا أن عمه أبا لهب وهو خصمه اللدود قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب! فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا. وبهذا أعلن حمايته للنبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا جهر رسول الله ﷺ، في مجمع من بطون قريش بأنه رسول من عند الله، وجهر بدعوتهم نحو الإيمان بالله وحده سبحانه وأنذرهم بما هنالك من الموت والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، ووعدهم بالجنة أبداً للمؤمنين، وأوعدهم بالنار أبداً للكافرين. فكانوا يستهزئون به ويقولون: هذا ابن أبي كبشة (نسبة إلى زوج مرضعته حليمة) يكلم من السماء، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء، وذلك كلما مر عليهم الرسول ﷺ، وهو يمر بهم مر الكرام، عندما يسمع اللغو من أولئك اللئام.

ولما عاب الرسول آلهتهم الذين يعبدونها من دون الله سبحانه، وقال لهم: «والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم!» ثارت ثورتهم، وقد أخذتهم الحمية، حمية الجاهلية، وذهبوا إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته عليه الصلاة والسلام من أيدي أعدائه، وطلبوا منه أن يخلي بينهم وبينه أو يكفه عما يقول، فردهم رداً جميلاً.

ومضى رسول الله ﷺ في دعوته لا يصده عنها شيء، فزاد القوم له حقداً وعداوة وحث بعضهم البعض على ذلك، حتى مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية وقالوا له: «إن لك سناً وشرفاً ومنزلة منا، وإنا قد طلبنا منك أن تنهي ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا وتسفيه

عقولنا وعيب آلهتنا».

لأن الرسول ﷺ لما كان يدعوهم إلى ترك الآلهة، والإيمان بالله وحده، كانوا يقولون: ألفينا آباءنا يعبدونها، فيقرأ عليهم من القرآن ما نزل منه في هذا الشأن، وهو قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله (من التوحيد) قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (الآية ١٧٠ من سورة البقرة).

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعملون شيئاً ولا يهتدون﴾ (الآية ١٠٤ المائدة).

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ (الآية ٢١ لقمان).

ولكن القوم لم يستمعوا إلى الحق، وتمسكوا بحجة التقليد الأعمى، فقالوا لأبي طالب وهم غاضبون متحمسون: إما أن تكفه، أو تنازله، وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. ولما انصرف القوم، عظم على أبي طالب فراق قومه، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه، فقال له: «يا ابن أخي، إن القوم جاءوني فقالوا لي كذا، فابق على نفسك، ولا تحملني ما لا أطيق!».

فقال رسول الله ﷺ بكل صبر وشجاعة وثبات قوله الحق الحاسم المعروف الذي سجله التاريخ العالمي الإنساني بكل تقدير وتجليل وهو: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه!» ثم بكى وولى.

فناداه أبو طالب: أقبل يا ابن أخي. فأقبل عليه، فقال له: «اذهب فقل ما أحببت، والله لا أسلمك» يعني لأعدائك من القوم، ولا أزال أحميك.

ودام رسول الله ﷺ في دعوة قومه جهراً، ولكنهم أصروا على التقليد

بآبائهم، حتى ولو جاء بأهدى مما كان عليه آباؤهم، فإنهم أظهروا الإصرار على الكفر، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وزادوا إيذاءً وعداوة على رسول الله ﷺ. ولكنه ﷺ صبر كما صبر أولو العزم من الرسل، في سبيل الدعوة إلى الحق، كما أمر الله حيث قال: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم».

وقال: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولاتك في ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (الآية ١٢٧ النحل).

نعم: لقد صبر وصابر هو ومن آمن به ﷺ، على أذى المشركين وخاصة على معاداة قومه من صناديد قريش، مما لا يساعده المجال، في مثل هذا الكتاب ولو بالإجمال.

وكان أصحابه رضي الله عنهم يدخلون عليه بين مضروب ومشجوج، ويطلبون الإذن للقتال مع المشركين والمنافقين، للذود عن دينهم الحق، والدفاع عن أنفسهم وكرامتهم الإنسانية، ولكن الرسول ﷺ يواجه أصحابه بقوله المأثور: «صبراً فإني لم أؤمر بالقتال».

ثم أشار إلى أصحابه بالهجرة إلى الحبشة حيث قال: «لو خرجتم إلى الحبشة فإن فيها ملكاً عادلاً لا يظلم، حتى يجعل الله لكم مخرجاً وفرجاً». وإنما ذلك فراراً بدينهم من تعرض المشركين، وابتعاداً بأنفسهم من أذاهم المستمر، فهاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان ذلك سنة خمس من البعثة، وعادوا إلى مكة بعد ثلاثة أشهر كما قيل، ذلك لأنهم كانوا من كبار قريش، وعلى رأسهم عثمان بن عفان مع زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وكانوا قلة وفي الكثرة بعض تسلية.

ولما قطع قريش، بني عبد مناف، لأنهم رفضوا مطالبتهم تسليم رسول الله لهم، وأرغموهم بالخروج من مكة إلى شعب أبي طالب والرسول ﷺ معهم،

أمر أصحابه جميعاً بالهجرة مرة ثانية إلى الحبشة، فهاجر إليها أكثرهم، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، وكان جميع المهاجرين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فأقاموا بالحبشة، إلى أن التحقوا برسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة وانتشار دينه وغلبته على أعدائه، وذلك سنة ست من الهجرة.

وقد قضى رسول الله ﷺ في مكة ١٣ سنة يبلغ رسالته، ويؤدي أمانته، صابراً صامداً أمام كل بلاء، وحيال كل إيذاء، كما هو معروف في سيرته المباركة.

ولما اجتمع صناديد قريش بدار الندوة فقرروا آخر قرارهم بشأن رسول الله ﷺ، أخبره ربه سبحانه عن ذلك حيث قال: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (الآية ٣٠ الأنفال).

وبهذا أذن الله لرسوله بالهجرة، فهاجر رسول الله ﷺ مختفياً عن أعين أعدائه قريش، متوجهاً نحو المدينة، وكان معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

والقصة طويلة وبالإجمال: وصل رسول الله ﷺ، والصديق إلى قباء، وكان ذلك في اليوم الثاني من ربيع الأول سنة ١٣هـ من البعثة الذي يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام على ما حققه المرحوم محمود باشا الفلكي المصري. وأقام بقباء أياماً (مع أصحابه الذين كانوا في استقباله) وأسس فيها مسجد قباء الذي وصفه الله سبحانه بأنه مسجد أسس على التقوى، وصلى فيه النبي ﷺ بمن معه من الأنصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون.

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة والأنصار يحيطونه وهم متقلدون سيوفهم، حتى نزل بدار أبي أيوب الأنصاري فقال: «ههنا المنزل إن شاء الله، رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين»، ثم بنى الرسول ﷺ مسجده في مبرك ناقته.

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وانتظر أمر ربه سبحانه إلى أن أذن الله

بالقتال حيث قال: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق. إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾ (الآية ٣٩ ـ ٤٠ الحج).

وكان الإذن بالقتال بسبب أن رسول الله وأصحابه صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، قد ظلموا من قبل قريش وسائر المشركين، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، على ما يدل عليه نص الآية.

ومما سبق يظهر للقاريء أن رسول الله ﷺ لم يستعمل السلاح (من السيف وغيره) في نشر دينه، دين الإسلام، وإنما استعمله بعد أن أذن الله له بالقتال، وأمر به في آيات أخرى، وذلك للدفاع عن النفس، ولا سيما للذود عن دين الله الحق.

هذا، ولسنا في صدد البيان لهذا وذلك، وإنما أردنا أن نشير (بما كتبناه من سطور) إلى شيء واحد، ألا وهو أن انتشار الدين الإسلامي وسرعة انتشاره، لم يكن قط باستعمال السيف والقوة، وإنما كان انتشاره أمراً طبيعياً من عند نفسه، وذلك كما بيناه في الفصول التي مضت، بسبب ملاءمة أصوله وفروعه للطبائع البشرية، وموافقته مع مقتضيات العقل الإنساني، ولكونه ديناً فطرياً، ديناً عالمياً ما دام الكون في الوجود، ديناً أبدياً خالداً، في كل زمان ومكان، وفي كل بقعة من بقاع الأرض «فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعملون» (الآية ٣٠ الروم).

«أقول»

أقول: وهذه هي الحقيقة التي تستند على الأمور الواقعية في صميم سيرة

رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام، وسيرة خلفائه الأربعة الراشدين، وسائر أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

وقد سجلها التاريخ (في القديم والحديث) بأحرف بارزة وبكل تقدير، واعترف بها الأجانب المنصفون، في ضمن ما اعترفوا به بكتاب الإسلام (القرآن المجيد) وبرسول الإسلام، وبتعاليم الإسلام العامة.

وسنورد كلا من الاعترافات في موضعه، بعد كل قسم من أقسام هذا الكتاب، مع ما يجب من التعليق على الاعتراف في بعض المواضع.

«تمهيد لاعترافات الأجانب»

مما يجب أن يعلم قبل أن نروي اعترافات الأجانب، أن العلماء الأجانب أو المستشرقين منهم، لم يعترفوا بأسباب سرعة انتشار الدين الإسلامي، أو بكتابه أو برسوله، أو بتعاليمه العامة، إلا بعد أن بحثوا عنه وحققوه من كل ناحية، واطلعوا على حكمه وأسراره إلى حد، ووقفوا على فلسفة أحكامه وتعاليمه بقدر ما أوتوا به من علم وثقافة، فأيدته عقولهم، واستساغته أفكارهم وأنصفت له ضمائرهم الإنسانية، وخضعت لدية طبائعهم البشرية.

نعم: حققوه شأن الإنسان في طموحه الطبيعي ونزعته الغريزية نحو الاطلاع على ما في الكون، وحرصه في الكشف عن حقائق الأمور، وإقناع الضمير، ولا سيما فيما يتعلق بالأديان والتعاليم السماوية.

فمنهم من شرح الله صدره للإسلام، أمثال المستشرق الإنجليزي «جون فيلبي» ولورد هادلي الإنجليزي سنة ١٩١٤، ومنهم من بقي على ما كان عليه من الدين والعقيدة لأسباب، ومنهم من لم يعلن إسلامه بعد أن أدلى بتصريحات تدل على أنه أسلم في غالب الظن كبرنارد شو، وكان ذلك بعد أن اضطرهم ضميرهم الإنساني بالاعتراف بالدين الإسلامي في كل ناحية من نواحيه.

ثانياً: وهناك كثيرون من الأجانب والمستشرقين (في الغابر والحاضر) نظروا

إلى الإسلام نظرة الخصوم. وقد بذلوا جهودهم الجبارة في العثور على أي عيب في أصوله أو نقص في فروعه، أو عدم تلاؤم في حكم من أحكامه، كما نظروا إلى رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ بعين هذه النظرة المخاصمة، والترقب العميق.

ووقفوا موقف الضد من كتاب الإسلام، وحاولوا أن ينتقدوا عليه بما توسوس به نفوسهم، وبما يوحيه شياطينهم من الإنس والجن، وأرادوا (إرادة اليائس المحصور) أن يقولوا إن الإسلام إنما انتشر هذا الانتشار عن طريق السيف والقوة، لكنهم خابت آمالهم، وفشلت محاولاتهم في كل ذلك، فقد ساقهم ضميرهم الإنساني، وقادهم ما أوتوه من العلم، نحو القول بالحقيقة والتصريح بما هو الحق، مائلين من الإجحاف إلى الإنصاف، ومن الإنكار نحو الاعتراف.

ذلك لأن الحق كلما بحث حوله، ونقب تنقيباً في شئونه، وحقق تحقيقاً فيما يتعلق به، يزداد ظهوراً أمام الباحثين، وتنكشف أسراره لدى المنقبين، ويتجلى بحقيقته الواقعية عند المحققين، وفي النتيجة:

لا يكون نصيبه من البحث إلا الخمول، ومن التنقيب إلا الأفول، «وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً» (الآية ٨١ الإسراء).

هذا هو شأن الدين الإسلامي شأن الحق، وشأن خلافه شأن الباطل، «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين» (الآية ٨٥ آل عمران).

نعم: هناك كثيرون ممن خانهم الحظ، وفاتهم اتباع الحق، وساد على آرائهم الزيغ، وغلب على أفكارهم الضلال، حيث أخذوا من الدين الإسلامي وكتابه ورسوله موقف المنتقدين أو المنكرين، رغم الضمير الإنساني، وخلاف الشاهد تحت النظر الصحيح «إنه لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» ومع ذلك فإن إنكار المنكرين، وانتقاد المنتقدين، لا يستطيع أن يؤثر في إيمان المؤمنين، وعقيدة أهل اليقين، واتباعهم الحق، واجتنابهم عن الباطل،

فإن مثل هذا الإنكار أو الانتقاد الضال لا يبرح حتى يزول زوال الظلمة أمام النور، وانتفاء الظل تحت شعاع الشمس، كما أنه لا ينال (ولن ينال أبداً) وزناً ولا قيمة لدى من له حسن الحظ، من الإدراك والإنصاف الذي انطلق إلى ميدان النضال بإظهار الحق والاعتراف.

وإلى هذا أشار شاعر إيران الحكيم، وفيلسوفها العظيم، سعدي الشيرازي، فقال:

كرنبيند بوزشب پره جسم

يعني: إذا لم ير الخفاش جسماً في النهار، فما هو ذنب محيا الشمس الوضاء؟ ورحم الله الإمام البوصيري الجليل، شاعر وحكيم وادي النيل، حيث يقول:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويقول شاعر عربي آخر:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

ولا كلام لنا مع هؤلاء، فإنه لا قيمة لمن لم يتصف بالإنسانية حق الاتصاف، ولم ينور باطنه بنور الإدراك والإنصاف.

والشاعر يقول:

لو كل عاو عوى ألقمته حجراً لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

وإنما كلامنا مع أولئك الذين يدققون النظر، ويحققون الفكر، في مسائل عالم البشر، فيعترفون بما هو الحق، وينحنون إليه، ويطأطئون رؤوسهم لديه، ولو على أنفسهم وآبائهم الأقدمين.

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

«اعتراف الأجانب في سبب سرعة انتشار الإسلام»

قال مسيو إدوارد مونتيه[1] مدير جامعة جنيف في محاضراته التي ألقاها في جنيف:

«. . . ولقد انتشر الإسلام منذ نشأته بسرعة، وقلما توجد ـ بل لا توجد أبداً ـ ديانات كانت تنتشر ـ ولا تزال تنتشر ـ بمثل هذا الانتشار، وأن ما صادفه الإسلام من أول عهده كان عظيماً وباهراً، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة، التي وطدت سلطة محمد (صلوات الله وسلامه عليه) وإصلاحه بعيداً عن حدود بلاد العرب، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن، إن نجاح العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف في عهد محمد وعهد خلفائه الأولين (يريد الخلفاء الأربعة) لكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع، فهي لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها.

ويلوح لي أنه لا شك في أن الإصلاح الإسلامي كان في أول عهده دينياً محضاً، وأن محمداً (ﷺ) كان نبياً بالمعنى الذي كان يعرفه العبرانيون القدماء. ولقد كان بدافع عقيدة خالصة أن قطع كل صلة بالوثنية، وأخذ يسعى لانتشال مواطنيه من ديانة جافة لا اعتبار لها بالمرة، وليخرجهم من حالة في الأخلاق والمدنية المنحطة كل الانحطاط، ولا يمكن أن نشك لا في إخلاصه ولا في حميته الدينية، التي كان قلبه مفعماً بها، فتلك هي الأفكار والعواطف التي أثارت في نفس محمد حب الدعوة إلى الإصلاح التي قام بها في مكة ثم في المدينة.

ثم قال مونتيه: «وقد أورد بعضهم تفسيرات أخرى لهذه الحقيقة ـ وهي سرعة انتشار الإسلام من أول عهده ـ إلا أنهم ذهبوا (على ما أظن) في البحث عنها بعيداً، بينما أنه يكفي ـ كما سبق أن أوضحنا ـ أن ننظر إلى الظروف العامة والطبيعية في حياة كل هيئة إنسانية.

---

(١) ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٩٢٧.

فقد ظن البعض أن انتشار الإسلام بمثل هذه القوة يرجع إلى مهاجرة الجنس العربي أخيراً للخروج من بلاده التي لم يجد فيها جميع الأسباب متوفرة لرقيه وتقدمه.

فإذا كنا رأينا من المفيد أن نأتي بهذا البيان الوجيز عن أسباب سرعة انتشار الإسلام في أوائل زمن الهجرة، فذلك لأن هذا الدين ما فتيء ينتشر في الوقت الحاضر، ولأنه في حركة تقدمه المستمرة هذه التي تسوقه دائماً إلى الأمام، نجد أن السببين الجوهريين اللذين بيناهما في أول نشأته لا يزالان العاملين القاطعين لدواعي نجاحه».

وقال مونتيه في ختام هذه المحاضرة:

«وإنا نجد في سيرة الإسلام الممتد وانتشاره في خلال القرن العشرين هذين النوعين من الأسباب المجتمعة: الأسباب الدينية البحتة، والأسباب السياسية الاقتصادية والاجتماعية».

وقال مسيو إدوارد مونتيه مدير جامعة جنيف في محاضرة أخرى:

«الإسلام في واقع الأمر ينتشر نوعاً ما من تلقاء نفسه، أريد أن أقول: إنه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم، لأن كل مسلم في البلاد الوثنية رسول لدينه مبدئياً.

فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوي العقيدة، وتلك خاصية من خاصيات الدين الإسلامي، أن يستحوذ تماماً على نفس المؤمن بكليته وجزئيته، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المبالين، فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الإسلامي، وإنني أكرر أن المسلم غالباً يحمل في جسمه أنسجة المبشر.

فالإسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه، فهو ينتشر بواسطة القوافل التي تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية، أو الديار التي تعبد فيها الأصنام، فرسل الإسلام تدفعهم الغيرة للتبشير، إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة والملائمة

لكل حالة خاصة في البلاد وفي الشعوب التي يقومون فيها بأداء عملهم الديني، وهنا نرى العامل الديني يعمل عمله بجانب العاملين الاجتماعي والاقتصادي.

فالإسلام في البلاد الشاسعة التي ينتشر فيها ويمتد نفوذه، ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية في أرقى الحالات، وتباعاً يعتبر من أولى وسائل التقدم والرقي».

ثم قال مونتيه:

«والإسلام في الواقع حضارة قائمة بنفسها، حضارة ترجع أصولها إلى قديم الزمان، فقد بلغت تلك الحضارة أوج مجدها في الشرق والغرب في الزمن الغابر، ثم أخذت في الهبوط والآنحطاط، ولكنها لم تنعدم قط في وقت ما، بل وسنرى في قسم آخر من هذه الأبحاث، كيف أن هذه الحضارة أخذت تسترد نضارتها وتستعيد نشاطها، فهذه الحضارة في المقاطعات الأفريقية الوطنية التي دخلت فيها، قد ظهرت بدرجة عالية من الرقي والتقدم من الوجهة الإدارية والاجتماعية، كما هي كذلك من الوجهة الفكرية والخلقية والدينية.

وهذا صحيح، حتى إن أحد النقاد المحايدين استطاع أن يجاهر بالقول ـ عند المفاضلة بين نتائج الإسلام في أفريقية الغربية، وبين نتائج تنصيرها، أو بالأحرى بين نتائج صبغها بالصبغة الأوروبية ـ وهو يريد أن يقابل بين تأثير عمل الإسلام، وتأثير عمل المسيحية في تلك البلاد من جميع الجهات، استطاع أن يجاهر بقوله: إننا بمقارنة مجموع النتائج التي تسببت عن دخول الإسلام، وبين نتائج النصرانية (ليس فقط من جهة عدد المعتنقين للدين، لأنه في هذه الوجهة نجد ضعف المسيحية واضحاً كل الوضوح، بل ومن جهة التأثير الفكري والخلقي والاجتماعي على الجماعات وعلى الأفراد) إذا قارنا بين كل تلك النتائج نجد بدون أي شك، أن المقارنة في مصلحة الإسلام.

فإذا كان الإسلام بداعي سموه له تأثير راجح في أفريقية، فإنه يجب علينا أن نثبت كذلك ـ وهذه هي ثاني ملاحظاتنا العامة ـ إن الإسلام يمتاز بخاصة الملاءمة لذكاء الشعوب الأفريقية، ذلك الذكاء الوقاد».

وهنا انتهى ما رويناه من محاضرة موسيو مونتيه، نقلناها من العدد ١٢١ - ١٢٢ من صحيفة «الصراط المستقيم» المنشورة من قبل جمعية الهداية الإسلامية ببغداد.

٢ ـ وقال الفيلسوف المعروف «وولتر»[١]: في سلسلة ما صرح به في وصف رسول الإسلام، محمد بن عبد الله ﷺ، ما نصه:

«وليس بصحيح ما يدعى من أن الإسلام استولى بالسيف قهراً، على أكثر من نصف الكرة الأرضية، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس لاعتناقه، بعد أن أقنع عقولهم.

وإن أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة الإسلامية هو اتصافهم بالشيم العالية، اتباعاً بالنبي محمد».

وفي الختام قال وولتر:

«وهذا القول النزر (القليل) مني يكفي لتنفيد كل ما ذكره لنا مؤرخنا وخطباؤنا فارتكز به في ضمائرنا كثير من الأوهام الباطلة والأراجيف المتوارثة (بشأن الدين الإسلامي) لأن من الواجب أن يدحض الباطل الحق».

٣ ـ وقال المستر وينتروب كيهمبال الإنجليزي، فيما صرح به بشأن تعاليم الإسلام ووصفها ما نصه:

«ولم ينتشر الإسلام في العالم أجمع هذا الانتشار العجيب من أقصى شواطيء المحيط الهادي، إلى أقصى شواطيء المحيط الأطلانتيكي، في مدة قصيرة، إلا إنه قد امتاز بالمساواة والعدالة.

وفي المدة الأخيرة ترى الدين الإسلامي يكتسح بلاد الملايو والصين واليابان والهند وأوروبا، لا بالسيف! ولكن بالعدالة والمساواة، وحرية الفكر ونشر روح الإخاء الحقيقي العملية، ومما يجدر بنا أن نلاحظ أن الإسلام ينتشر الآن في بلاد

---

(١) فرانسوا ماري أروئة، الفرنسي (١٦٩٤ - ١٧٧٨م).

لم يصلها الحكم الإسلامي، ولم تعرف فتوحات الإسلام، ولكن الإسلام كما هو معروف عنه، إنما ينتشر كانتشار النور لا يسد تياره شيء».

٤ ـ وقال السير سي. بي. راي الإنجليزي في ضمن ما صرح به في وصف الإسلام ما نصه:

«. . . وإن الإسلام بطريقته المثلى استطاع التقدم من حدود الباسفيكي إلى حدود المحيط الأطلانتيكي، وبعد هذا سار الإسلام بخطوات واسعة في شبه جزيرة ملايو، وليس بسبب وجود السيف ولكن بسبب سياسته الطيبة الحرة».

٥ ـ نشرت جريدة (الناقد) قبل ما يقرب من خمس وثلاثين سنة بحثاً تاريخياً صافياً تحت عنوان «كاتبة إنجليزية تتحدث عن نبي الإسلام» وقد جاء في سلسلة ذلك البحث أن الكاتبة تقول:

«. . . ورأى الناس (تريد الأوروبيين) هذا الانقلاب الاجتماعي، والسياسي والديني العظيم (بعد بعثة النبي محمد ﷺ) فطفقوا يسألون عن أسبابه الأساسية، فكان أكثرهم على عمى يتخبطون في ظلمات الخطأ، ولا يدركون أن انقلاباً عظيماً مثل هذا، لا يمكن أن يتم إلا بالقوة الإلهية، وأن الله هو الذي أرسل محمداً (ﷺ) كآخر نبي إلى الأرض، كان الناس لعماهم أو تعاميهم يعتقدون أن سبب انتشار الإسلام السريع، وانقلابه يعود إلى قوة السيف، غير مدركين أسبابه الإلهية التي لم يكن في وسع أحد إنكارها، مهما بلغ عداؤه للإسلام.

يقولون أن دين محمد دين السيف، مع أن دين محمد دين القوة الإلهية».

٦ ـ وقال توماس كارليل في كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) اتخذ فيه محمداً ﷺ مثلاً لبطولة النبوة، فقال ما معناه:

«إن اتهام محمد بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه، ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم

فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها».

٧ ـ وقال مسيو أوجين يوغ الفرنسي في كتابه «يقظة الإسلام والعرب»: «إن الإسلام عدا أنه دين ونهج سياسي حكيم، فإنه زبدة مختارة من البساطة والعدل، وهو كذلك النهج الاشتراكي الذي لا يمكن للعالم أن يتوفق إلى إيجاد نهج مثله من حيث سعة انتشاره، ومطابقته لمقتضيات العالم، وهو كذلك العدو الألد للاستعمار والشيوعية، ويلائم جميع الظروف، ويسير مع جميع المدنيات، وهذا هو السبب (لا غيره) الذي جعله يصادف انتشاراً واسعاً وسريعاً، وأن هذا الانتشار لدليل على أن الإسلام يوافق أمزجة البشر على اختلاف الجنسيات والنزعات والمشارب».

٨ ـ وقال مسيو هنري دي كاسبري في كتابه «الإسلام، تأثرات ومباحث»: «. . . وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر (المسلمين) للمقهور هي التي ضعضعت الديانة النصرانية جداً، حتى زالت بالمرة من شمال أفريقيا، على أن الإسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره (كما أن للنصرانية دعاة) ولم يكره على الأخذ (بالدين الإسلامي) أحداً، بالسيف، ولا باللسان، بل دخل القلوب عن حب واختيار، وكان هذا من آثار أودع في القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب».

أقول: يريد مسيو هنري ما في القرآن من البلاغة فوق طاقة البشر مما يدل على أنه وحي حق من عند الله تعالى، وما فيه من التعاليم والأحكام التي تتفق مع الفطرة، وتتجاوب مع العقل الإنساني، على اختلاف درجاته.

٩ ـ وقال «لوبون» في اعترافه بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف والقوة: «والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم». ثم قال في تعليل سرعة انتشار الإسلام:

«فهو (الإسلام) يخلو مما تراه في الأديان الأخرى، مما يأباه الذوق السليم من

المتناقضات والغوامض، وكل مسلم يستطيع أن يعرف أصول الإسلام في بضع كلمات سهلة، على عكس المسيحي الذي لا يستطيع أن يتحدث عن التثليث وغيره من الغوامض التي لا يعرفها غير علماء اللاهوت».

أقول: مع أن التثليث وما يتعلق به من القول والعقيدة باطل، كما أثبتنا بطلانه في فصل سابق من هذا الكتاب، مع تصريحات من نفس علماء الغرب الدينيين والاجتماعيين، بشأن بطلانه.

١٠ ـ وقال «ستانلي لين بول» في تعليل سرعة انتشار الدين الإسلامي: «لأن الإسلام يحتوي على مباديء وتعاليم سامية».

أقول: وهذا الاعتراف أجمل الاعترافات، وأشملها معنى.

١١ ـ وقال «دوزي» في سبب إقبال فارس لقبول الإسلام: «إنهم رأوا فيه اليسر والبساطة، مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة».

١٢ ـ وقال «أرنولد»: «إن سبب انتشار الإسلام يرجع إلى عاملين اثنين: أولهما نجاح العرب المسلمين الواسع النطاق الذي زعزع العقيدة المسيحية، فقد رأى المسيحيون ان هذه الفتوحات قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، مما يمتعهم بالنعيم في الآخرة أيضاً. أما العامل الثاني: فهو ما كان ينادي الإسلام به، من مثل عليا ترمي إلى إخوة المسلمين كافة في الدين».

أقول: إن أرنولد أشار إلى سبب انتشار الإسلام بإجمال يكفي للمنصف أن يتذكر به. نعم: إن تلك الفتوحات الإسلامية قد تمت بعون من الله الذي قال: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وأن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (الآية ١٦٠ آل عمران). وأن المسلمين يتمتعون بنعيم الدنيا والآخرة.

أما نعيم الدنيا، فإن الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (الآية ٨٧ المائدة). وقد

جاء في القرآن المجيد أيضاً: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا» (الآية ٧٧ القصص).

وأما نعيم الآخرة فإنه بما وفقهم الله بإطاعته وعبادته، وإطاعة رسوله واتباع سنته. والآيات كثيرة في هذا الباب.

وأما الأخوة في الدين والمساواة في الحقوق وعدم التفرقة بين عنصر وعنصر فإنها من مباديء الإسلام، وسنذكرها في قسم تعاليم الإسلام في هذا الكتاب.

وفي الختام أقول:

هذه كلمات من اعترافات الأجانب المنصفين، اكتفينا بروايتها، مما يكفي تذكر المتذكرين، في أسباب سرعة انتشار الدين الإسلامي.

القسم الثاني

«القرآن»

«مع اعترافات الأجانب المنصفين»

القرآن كتاب الإسلام المقدس، الذي يتمسك به المسلمون القاطنون في مشارق الأرض ومغاربها، في كل شئون الحياة، وعددهم الآن سبعمائة مليون. ذلك لأن أصول الدين الإسلامي ومبادئه وتعليماته، إنما تستند أولاً على آيات القرآن المجيد ـ كتاب الله ـ ونصوصها، مع ما يستنبط منها من الأحكام الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

فإن القرآن لم يدع شأناً من شئون الحياة البشرية في الدين والأخلاق، والاجتماع والاقتصاد والسياسة، إلا وقد تناوله بالصراحة، أو بالإشارة، وعين له حكماً وحدد له حداً بحيث لم يفته شيء.

وقد فسره رسول الله ﷺ بقوله وعمله آية بعد آية، وسورة إثر سورة وقت نزولها، وذلك بعدما بلغها إلى قومه ومن حوله من أصحابه تبليغاً لرسالته، وتأدية لأمانته، إلى أن تم نزول القرآن في مدة ٢٣ سنة، منها ١٣ سنة في مكة و١٠ سنوات في المدينة. ويسمى ما نزل من سور القرآن بمكة مكية، وما نزل منها بالمدينة مدنية.

كما أن أصول الدين الإسلامي ومبادئه وتعليماته تستند ثانياً على سنة رسول الله ﷺ، التي سنها قولاً أو عملاً أو تقريراً طول حياته القيمة، تلك السنة التي تتفق وروح كتاب الله (القرآن) تمام الاتفاق. وقد ترك رسول الله الكتاب والسنة دستوراً مقدساً لعامة أمته (بل لكافة أفراد الإنسانية) لكي يتمسكوا بها في شئون دينهم، وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حتى لا يضلوا بعد

وفاته، حيث قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكت بهما، كتاب الله وسنة رسوله» رواه الإمام مالك مرسلاً في الموطأ.

«نزول القرآن»

أول ما نزل من القرآن المجيد قوله عز وجل: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (أول سورة القلم).

وكان النزول حينما كان رسول الله ﷺ في خلوته وعبادته في غار بجبل حراء خارج مكة المعظمة، حيث ظهر له شخص وقال: «أبشر يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله ونبيه إلى هذه الأمة»، ثم لقن عليه: «إقرأ باسم ربك الذي خلق» إلى آخر الآيات، وكان هذا بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة الموافق لأول فبراير (أو يوليو) سنة ٦١٠ الميلادية، كما يستفاد من قوله سبحانه: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ (الآية ١٨٥ البقرة).

ثم بعد فترة أربعين يوماً ـ على أرجح الأقوال ـ نزل عليه قوله عز وجل: ﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾ (من سورة المدثر).

إلى أن تم نزول القرآن في مدة ثلاث وعشرين سنة.

وكان آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (الآية ٣ المائدة).

وكان ذلك بتاريخ ٩ ذي الحجة من سنة ١٠ بعد الهجرة بعرفات في حجة الوداع.

«نزول القرآن بالتنجيم»

وكان نزول القرآن بطريق التنجيم والتفريق آية فآية أو سورة فسورة، ولم

يكن نزوله جملة واحدة، ذلك لكي يمكن إبلاغه وقراءته للناس على تؤدة وترسل، فقد قال الله سبحانه: ﴿وقرآناً فرقناه، لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾ (آية ١٠٦ سورة الأسراء) مع ما كان في تنجيم نزول القرآن من الرعاية لجانب حفظ رسول الله ووعيه أيضاً. وفي ذلك قال الله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ (الآية ٣٢ سورة الفرقان).

هذه هي الحكمة في نزول القرآن بالتنجيم والتفريق على حسب الحوادث والأسباب المقتضية للنزول، حكمة الله العليم الحكيم.

«نزول القرآن بالعربية»

ومن حكمة الله الحكيم سبحانه إنزال القرآن بلغة العرب، لأنهم أول قوم يخاطبون بآيات القرآن، الأمر الذي يقتضي رعاية جانبهم، ذلك لكي لا يكون عليهم حرج في فهم معانيه وتعاليمه وأحكامه ورموزه، وليتيسر لهم حفظه، كما أنزل القرآن (لهذه الأغراض) على حسب مصطلحات العرب ومحاورات العرب وأسلوبهم في خطبهم ومفاهماتهم القومية.

وفي ذلك قال الله سبحانه: ﴿الر. تلك آيات القرآن المبين. إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (الآية ١ ـ ٢ يوسف)، وقال ﴿حم. والكتاب المبين، إنا جعلناه قرآناً عربياً، لعلكم تعقلون﴾ (الآية ١ الزخرف).

هذا. ولو أنزل القرآن بلغة العجم، لقال العرب لولا فصلت وبينت آياته بلغتنا حتى نفهمها، أقرآن عجمي، ورسول عربي، ومرسل إليه عربي؟. وفي هذا قال الله عز وجل: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته. أأعجمي وعربي؟﴾ (الآية ٤٤ فصلت).

«إعجاز القرآن»

ومن حكمة إنزال القرآن بلغة العرب ومصطلحاتهم وأسلوب كلامهم إعجاز

العرب عن الإتيان بمثله، لما في آيات القرآن من الفصاحة والبلاغة التي تفوق قدرة البشر، حتى يدركوا أنه ليس من قول البشر، وإنما هو كلام الله الذي أنزله على عبده النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ، فيؤمنوا به.

فقد تحداهم الله سبحانه بقوله: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداؤكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ (الآية ٢٣ - ٣٤ من سورة البقرة).

وبقوله: ﴿أم يقولون افتراء، قل فأتوا بسورة من مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (الآية ٣٨ من سورة يونس).

تحداهم أن يأتوا ولو بأقصر سورة من مثل القرآن في فصاحته وبلاغته، وهو بلغتهم التي تعودوا عليها، وبأسلوبهم في البيان، ولكن العرب عجزوا عن الإتيان بالمثل، مع أنهم كانوا في ذلك العهد بمكان مرموق، وفي ذروة من الفصاحة والبلاغة التي تكون تحت قدرة البشر.

نعم: عجزوا، لأن القرآن لم يكن من قول البشر، ولم يكن في قدرة البشر! مما يدل على أن القرآن منزل من عند الله سبحانه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

«اعتراف العرب بالقرآن»

وقد اعترف الخصوم من العرب بأنه ليس من كلام البشر، ولو في ضميرهم الإنساني وهم أكثرهم لا يظهرون اعترافهم بهذه الحقيقة في بدأ الأمر.

ولكن البعض من الخصوم لم يتمالكوا على أنفسهم عند استماعهم القرآن، فقد دفعتم هيبة الحق إلى إظهار اعترافهم لدى قومهم بما لا يرضيهم، وبما يمس شعورهم ويخالف ظنهم الخاطىء.

فهذا الوليد بن المغيرة عم أبي جهل، وكان من عظماء قريش، سمع القرآن

مرة من رسول الله ﷺ، فلما رجع إلى قومه بني مخزوم قال لهم: «والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى». فقالوا: صبأ والله الوليد، لتصبأن قريش كلها، فكان (فيما بعد) كما قالوا، فإن قريشاً صبأت عن دينها واحد إثر واحد، ودخلوا في دين الله، إلا من شقى ودام في عناده.

وأتى عتبة بن ربيعة العبشمي (من بني عبد شمس بن عبد مناف)، وكان سيداً مطاعاً في قومه - إلى رسول الله ﷺ مندوباً من قريش وعرض عليه ما عرضه. فقال الرسول ﷺ: «فقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. فقال: «اسمع مني»، وقرأ عليه أول سورة فصلت:

«حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعملون، بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (إلى قوله تعالى) فإن اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، أن لا تعبدوا إلا الله، قالوا لو شاء ربنا لأنزلنا ملائكة، فأنا بما أرسلتم به كافرون».

فلما سمعه عتبة أمسك بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك.

فلما رجع إلى قريش سألوه عما جرى بينه وبين محمد (ﷺ) فقال عتبة: «والله لقد سمعت منه قولاً ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر (يعني كما كانوا يقولون) يا معشر قريش! أطيعوني فاجعلوها لي. خلوا بين الرجل وبينه ما هو فيه فاعتزلوه! فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ (عظيم) فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم».

فقالوا: لقد سحرك محمد. فقال عتبة: هذا رأيي!.

أقول: فكان الواقع فيما بعد ما قاله عتبة من قول، وما رآه من رأي، فقد

أصبح لكلام محمد ﷺ (وهو ما قرأه من كلام الله عز وجل) نبأ عظيم، وآمن به الناس فرداً فرداً، حتى دخلوا في دين الله أفواجاً، بعد أن ظهر أن القرآن لم يكن إلا كتاباً أنزل على محمد من عند الله سبحانه. لأنه ليس من كلام البشر، ولهذا عجزوا عن الإتيان ولو بأقصر سورة من مثله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله لو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الآية ٨٨ من سورة الإسراء).

«حفظ القرآن من قبل الصحابة»

كان رسول الله ﷺ، كلما نزلت إليه آية أو سورة يبلغها إلى أصحابه، ويقرأها عليهم ويوصيهم بحفظها، ويعين لهم موضع كل آية بعد أية آية، وموضع كل سورة بعد أية سورة، وذلك حسب تعيين جبريل له عند كل نزول.

وبهذا يتبين أن ترتيب آيات القرآن وسوره بهذا الشكل المتواتر أمر سماوي، لا يجوز التصرف فيه، كما لا يسوغ فيه الشك.

فكان أصحابه يتلقون الآية أو السورة المنزلة، عن رسول الله ﷺ ويحفظونها، مع مراعاة الترتيب المعين. ثم يعرضون محفوظاتهم على الرسول، وذلك للتطبيق أو التصحيح إذا كانت له حاجة، كما يبلغونها ويقرأونها على من لم يسمعها عن الرسول، وذلك امتثالاً بقوله ﷺ: «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب» وقوله: «بلغوا عني ولو آية»، وبهذه الطريقة المتبعة، قد كمل حفظ القرآن (كما أنزل) حفظاً صحيحاً في قلوب المسلمين في حياة رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

«كتابة القرآن على الرقع وغيرها»

لم يكن حفظ القرآن عن التبديل والنسيان والخطأ منحصراً على حفظه في قلوب المسلمين، فإن رسول الله ﷺ كان يأمر كتاب الوحي أمثال زيد بن

ثابت، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبي ابن كعب، رضي الله عنهم، بكتابة كل ما نزل إليه من آية أو سورة بالترتيب المعين، عند النزول فوراً بدون أي تأخير. فكانوا يكتبونها كما أمروا على رقع من الجلود وعلى الأحجار الملائمة للكتابة وغيرها، حيث لم يكن الورق موجوداً في ذلك الوقت، ثم يعرضونها على الرسول للتثبت من صحة الكتابة. وبهذه الطريقة المتبعة قد كمل كتابة القرآن (كما أنزل) كتابة صحيحة متفرقة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«عرض القرآن على جبريل في رمضان»

«وعرضه من قبل الصحابة على رسول الله»

كان رسول الله ﷺ، يقرأ ما نزل من آيات القرآن وسوره ويعرضها على جبريل عليه السلام، وذلك في رمضان من كل سنة مرة واحدة، وفي سنة وفاته (سنة ١١ الهجرية) قرأ القرآن (كاملاً) وعرضه على جبريل مرتين على ما تدل عليه الأحاديث النبوية.

كما أن أصحابه رضي الله عنهم واحد بعد واحد كانوا يعرضون ما نزل من القرآن عن الحفظ أو الكتابة على رسول الله، وبهذا تم عرضه كاملاً من قبل الصحابة وبالخاصة سنة وفاته صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

«قراءة القرآن في الصلوات وختمه في التراويح»

وكانت آيات القرآن وسوره تقرأ في ركعات الصلوات الخمس كل يوم وفي الصلوات النافلة، وصلاة التهجد كل ليلة.

كما كان يختمُ القرآن في صلاة التراويح في رمضان كل سنة، مما يساعد على حفظه عن الخطأ، وفهم معانيه في جماعة خلف إمام حافظ للقرآن، وقد جمع عمر رضي الله عنه المسلمين خلف أبي بن كعب في صلاة التراويح لهذا العمل الحكيم، كما في الأحاديث الصحيحة.

ولهذا وذلك فقد ثبت وجود تعلم القرآن وتعليمه، وثبت سنية حفظه كله في القلوب، كما شرع قراءة آيات القرآن وسورها، كفرض أو واجب، أو مستحب في الصلوات المكتوبة والسنن والنوافل، على ما هو المفصل في الكتب الفقهية.

وختم القرآن في التراويح مرة سنة ومرتين فضيلة وثلاث مرات أفضل وهو المنصوص في الفقه الإسلامي.

كما ثبت سنية قراءة القرآن وتلاوته وختمه في خارج الصلوات، ووجب استماعه على المسلمين عامة، وذلك لكي يقرأوا كتابهم المقدس في كل يوم وليلة (ولو بعض آياته وسوره) ويستمعوه، ولا سيما في ختم التراويح من أوله إلى آخره خلف إمام حافظ لكامل القرآن، بحيث يكون للعلماء إفادة تأكيد، ولعامة الناس إفادة تعليم، وللناقصين إفادة تصحيح. ويؤدي (في النتيجة) إلى حفظ القرآن وتدارسه وفهم معانيه في المجتمع الإسلامي في كل قطر من أقطار العالم، ما لا يخفى على المفكرين (حكمة هذا التشريع وفوائده).

«كتابة القرآن وجمعه في الصحف»

إن القرآن المجيد لم يجمع في صحف أو مصحف في عهد رسول الله ﷺ، وإنما كتب من أول يوم لنزوله إلى آخر يوم له، على الرقع من الجلود وعلى الأحجار الملائمة للكتابة وغيرها، كما قلنا في الفصل السابق.

والواقع أنه لم يكن حاجة في العهد النبوي، إلى جمع القرآن، وإنما كان الواجب أن تبذل الجهود لحفظه من النسيان أو التغيير السهوي، وذلك بحفظه في القلوب وكتابته على الرقع والأحجار وغيرها مما يمكن الكتابة عليه.

ولما جلس أبو بكر الصديق على مسند الخلافة، حضر عمر بن الخطاب مجلس أبي بكر (رضي الله عنهما) بعد سنتين من خلافته، وقال: إن حفظة للقرآن متوجهون نحو فريضة الجهاد، وأخاف أن يرفع القرآن بشهادتهم في ميادين القتال، فلو جمعته في صحف...!.

فقال أبو بكر: أفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ ثم طلب زيد بن ثابت (أحد كتاب الوحي في عهد رسول الله) فأبلغ إليه رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنهم) فقال زيد بن ثابت مثل ما قاله أبو بكر: «أنفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟».

فقال عمر بن الخطاب: «وما عليكما لو فعلتما؟ إنه والله خير». فأحضر أبو بكر رضي الله عنه حفاظ القرآن من الصحابة الذين اتقنوا حفظ القرآن وأصبحوا موثوقين فيه وجمعهم في مجلس، وكان منهم كتاب الوحي الأولون وهم علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وعثمان بن عفان، وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين.

فكانوا يجتمعون عند أبي بكر في كل يوم، ويأتون بالمكتوبات المتفرقة من القرآن التي كتبت بأمر رسول الله ﷺ وإملائه ثم يبدأون بقراءة القرآن آية بعد آية وسورة بعد سورة، عن ظهر القلوب كما حفظوه، ويقابلون المكتوبات على ما قرىء من نصوص المحفوظات، بكل حيطة واهتمام ولا يثبتون آية أو سورة في الصحيفة إلا بعد التطبيق، ومن حيطتهم واهتمامهم، أنهم لما وصلوا إلى قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنيم رؤف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ (خاتمة سورة التوبة) لم يجدوا مكتوبتها، فانتظروا حتى وجدوها عند أبي خزيمة بن أوس الأنصاري، كما كانت نفس الحال في آية ﴿ن بالمؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ (الآية ٣٣ من سورة الأحزاب)، حتى وجدوا مكتوبتها لدى خزيمة بن ثابت رضي الله عنه.

هكذا وبهذه الدقة والاهتمام بالتطبيق بين المحفوظة وبين المكتوبة أكملوا كتابة القرآن المجيد في الصحف، وأودعوها (بالاتفاق) عند أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، وبعد وفاته نقلت الصحف إلى عمر بن الخطاب، فكانت عنده إلى أن توفي رضي الله عنه، فكانت الصحف عند ابنته ووصيته

حفصة زوجة رسول الله صلى الله عليه وعليها وسلم.

«كتابة القرآن في المصاحف»

ولما جلس عثمان بن عفان رضي الله عنه على مسند الخلافة أشار إليه بعض الصحابة، باستنساخ وكتابة القرآن من الصحف إلى مصاحف متعددة وتوزيعها وإرسالها إلى الممالك الإسلامية، ذلك لكي يجتمع المسلمون على مصحف واحد ونص واحد، فطلب عثمان تلك الصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنها، ووعدها بإعادتها إليها، فبعثها حفصة إليه.

فأحضر عثمان رضي الله عنه زيد بن ثابت وعبد الله بن زبير، وسعيد ابن عاص وعبد الرحمن بن حارث بن هشام رضي الله عنهم، وأمرهم حتى كتبوا مصاحف متعددة من القرآن المجيد استنساخاً من الصحف المذكورة، وأعاد الصحف إلى حفصة كما وعد به، ثم بعث عثمان رضي الله عنه إلى كل من مكة المعظمة، والكوفة والبصرة، ودمشق مصحفاً، وحفظ مصحفاً في المدينة عنده، وأمر بإحراق ما بقي في أيدي الناس، من مكتوبات آيات القرآن وسوره على الرقع وغيرها، ذلك لكي يجتمع المسلمون على مصحف واحد من القرآن المجيد، الذي جمع أولا باتفاق الصحابة، ثم كتب على أيدي كتاب الوحي رضي الله عنهم أجمعين، وهذا المصحف (الذي يسمى المصحف العثماني) هو الذي تداولته أيدي المسلمين عن عهد عثمان وعهد علي رضي الله عنهما وعهد الخلافة الأموية والعباسية، إلى يومنا هذا، وهو الأساس لما كتب بخط اليد، أو طبع (بعد اختراع المطبعة) من القرآن المجيد، منذ القرون التي مضت إلى القرن الحاضر.

هذا... أما جعل القرآن مشكولا ومنقوطاً فإنه كان بأمر من زياد بن أمية على يد أبي الأسود الدؤلي من كبار التابعين المتقنين لقراءة القرآن، كما أن أعجام حروف القرآن إنما كان على يد نصر بن عاصم بأمر حجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، وكان ذلك لحفظ قراءة القرآن عن اللحن والخطأ في التلفظ،

بعدما دخل الإسلام بلاد فارس والروم وغيرها.

ثم بذل حفاظ القرآن جهوداً في تعيين فواصل الآيات، وعلامات الوقف كما أن مشايخ المذاهب قسموا آيات القرآن إلى الركوعات، وصرحوا فوق كل سورة أنها مكية أو مدنية، مع عدد آيات السورة، وكلماتها وحروفها، وإنما ذلك بحفظ القرآن عن الزيادة أو النقصان، بمرور الزمان، على يد المغرضين أو المنافقين.

«مما يجب أن يعلم»

ولقد ظهر من التقارير التاريخية، والتصريحات العلمية التي رويناها، مدى الاهتمام الذي بذله رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ومن بعدهم بشأن حفظ نصوص القرآن في صوره وآياته وحروفه، وقد وعد الله سبحانه بحفظ القرآن، فقال بتأكيد بعد تأكيد «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» وحفظه واقعياً (كما وعد به) في أدواره المختلفة. وفي تلك القرون التي مضت عليه، حفظه الله (من عهده الأول إلى عهدنا ويومنا هذا) في قلوب المؤمنين به، وحفظه الله في المصاحف بسوره وآياته وكلماته وحروفه، فلم تمسه يد التحريف، ولم يطرأ عليه أي تبديل، ولن يطرأ أبداً.

وها هو القرآن محفوظ في يومه هذا كما كان محفوظاً في يومه الأول، وهو يؤدي رسالة الإسلام في أنحاء العالم محفوظاً بتمام المعنى، نافذة أحكامه المقدسة ملموس بين ما يزيد على سبعمائة مليوناً من المسلمين، مع ما له من نفوذ فعال وأثر ملموس في وضع القوانين الوضعية، حتى في المجتمع غير الإسلامي. وسيبقى القرآن (بلا شك) يؤدي رسالته الإسلامية، في عالم الإنسانية، وذلك في جميع شئون الحياة البشرية، الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلى أن ينزل المسيح عيسى بن مريم من السماء ليحكم على الناس عامة بأحكام القرآن فيقضي بها على الكفر والشرك والوثنية.

هذا هو القرآن كتاب الله المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه، تنزيل من حكيم حميد: «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم» (الآية ١٦٥ من سورة الأنعام).

«نبذة من أوصاف القرآن»

١ ـ إذا أردنا هنا نبذة من أوصاف القرآن المجيد، فأقرب الطريق للوصول إليها وأوثق المأخذ للحصول عليها، إنما هو ما وصفه الله به، وإنه لكثير. فأول ما جاء في كتاب الله من وصفه قوله تعالى: ﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ (أول سورة البقرة)، فقد وصفه الله عز وجل بأن القرآن ذلك الكتاب الذي وعد على لسان موسى وعيسى، بإنزاله على محمد نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام، كتاب لا ريب في أنه حق لا يسوغ إنكاره، وأنه هدى للمتقين (إلى آخر ما قال) وأفاد للعالم الإنساني بأن أتباع هذا الكتاب، هم الذين يهتدون به ويتخذون دستوراً مقدساً لشئون حياتهم كلها، وهم الذين يتقون الشرك والمعاصي، ويلتزمون التوحيد والأعمال الصالحة، ويؤمنون بما غاب عنهم مما أخبرهم محمد ﷺ، من البعث والنشور والحساب يوم القيامة، ويقيمون الصلاة ويؤدونها بشروطها وآدابها، وينفقون مما رزقهم الله، على الفقراء والمساكين، ويؤمنون بما أنزل إلى محمد ﷺ وبما أنزل إلى الرسل من قبله، من الكتب السماوية، لا يفرقون بين أحد من الرسل والأنبياء في الإيمان بهم وبما أنزل إليهم من الحق، ويوقنون بالدار الآخرة دار الجزاء، لا يشكون في وقوعها أي شك، ولهذه الأوصاف فإن أتباع هذا الكتاب على هدى من ربهم وعلى نور ورشاد من عنده سبحانه، وأولئك هم المفلحون، الفائزون في حياتهم والفائزون بعد مماتهم.

٢ ـ ومما وصفه الله به قوله تعالى: ﴿فإما يأتينكم مني هدى، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ (الآية ١٢٣ من سورة طه).

فقد أفاد الله عز وجل أن كل ما يأتي بني آدم من كتاب ورسول، فإن من اتبعه في شئون دنياه ودينه، لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، لأن الله هو الذي أنزله وبعثه إلى عباده وهو أعلم بما هو في صالحهم وغيره، وهذا شأن من اتبع القرآن وعمل به (من فرد أو مجتمع) في شئون حياته الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

٣ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء)، فقد وصف الله عز وجل كتابه «القرآن» بهذه الآية، أنه يهدي العالم البشري إلى الطريقة التي هي أصوب وأعدل، إذا اتبعها في شئون حياته الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وأنه يبشر المؤمنين به ويعملون الصالحات تحت ضوء تعليماته، بالأجر الكبير وهو الجنة، مع ما في اتباع طريقة القرآن من العزة والكرامة والمساواة وتعميم الأمن في المجتمع الإنساني ورعاية الحقوق، والتعايش السلمي على حقيقته، والتقدم في العلم والعمل والكشف والصناعة، والرقي الصحيح، والنهضة المعقولة وغيرها، مما يؤدي إلى سعادة البشرية في الحياة، وهذا شيء ثبت في تاريخ الإنسانية، وأصبح مما لا يجوز إنكاره عند من له عقل وإنصاف.

«ما هو سبب انحطاط المسلمين؟»

أقول: ويمكن هنا أن القاريء يعارضنا بانحطاط أكثرية المسلمين، (وهم أتباع القرآن) في شئون الحياة، وتأخرهم عن غيرهم (ملل الغرب مثلاً) في الثقافة والصناعة، والكشف، ومستوى المعيشة.

ويعارضنا أيضاً بما فيه الآن (بعضاً) تحت سيطرة الاستعمار الأبيض والأحمر والأصفر.

ونحن نقول: إن انحطاط أكثرية المسلمين اليوم في شئون الحياة، أو تأخرهم عن غيرهم في الملل، أو وقوعهم فيما وقعوا إنما هو أمر عارضي، عرض على

شئونهم بسبب ابتعادهم عن اتباع القرآن دستورهم السماوي، واتباع سنه رسولهم وسنة أسلافهم الصالحين.

وقد فصلنا الكلام في هذا الباب في الصفحة (١٥٢ ـ ١٦٦) من كتابنا «مثنوى يا دكار زندان يا آينية جهان» الذي ألفناه في موازنة مثنوه مولانا جلال الدين الرومي، وذلك بعد أن بينا أن اضطراب العالم البشري الراهن ووقوعه في الحرب العالمية الأولى والثانية، وكونه على شفا حفرة من نار حرب عالمية ثالثة ذرية، إنما هو من عدم كفاية القوانين الوضعية، وبعد أن دعوناه (ولا سيما ملل الغرب) إلى التمسك بتعاليم القرآن، الدستور السماوي المقدس: «فمن استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» الآية. نعم: إن نظرة واحدة إلى ما كان عليه المسلمون في العصر الأول وما بعده من العصور الذهبية، من الرقي والنهضة والقوة والانتصار بفضل اتباعهم الكامل بتعاليم الكتاب (القرآن) والسنة، ونظرة واحدة إلى ما ثبت في التاريخ من أولئك الأسلاف وكيف أصبحوا بمبادئهم السماوية، ومثلهم العليا القدسية أسوة حسنة لغيرهم من الملل (منها ملل الغرب) في العلوم والثقافة والصناعة وفي جميع ما يتعلق بشئون الحضارة، أريد أن أقول: إن تلك النظرة الواحدة وهذه، تكفي دلالة على صحة ما قلناه في جواب هذه المعارضة، وذلك لدى المنصفين الذين يستمعون القول (في حياد) فيتبعون أحسنه.

٤ ـ ومنه قوله عز وجل: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (الآية ١٥ و١٦ من سورة المائدة) فقد وصف الله القرآن في هذه الآية، بأنه «نور جاء من عند الله، لأن القرآن كشف ظلمات الشرك والشك ونور قلوب المؤمنين به بالتوحيد واليقين، ووصفه بأنه «كتاب مبين» لأن القرآن أبان العالم البشري ما كان خافياً على الناس من الحق مما يتعلق بشئون العالم في الدين والدنيا، كما وصفه بأن الله يهدي بالقرآن من اتبع رضوانه (يعني المؤمنين به المتبعين أحكامه التي أنزلها فيه) يهديهم إلى سبل السلامة والأمن، مما

يشمل السلم والصلح أيضاً في الحياة المشتركة في هذا الكون، ويخرجهم من الظلمات، ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والعلم والمعرفة، ويهديهم إلى صراط مستقيم، في حياتهم الدينية والدنيوية.

٥ ـ ومما جاء في أوصاف «القرآن» قوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (الآية ٨٩ من سورة النحل).

فقد وصف الله عز وجل القرآن في هذه الآية بأربعة أوصاف:

الأول: أن القرآن إنما نزل من عند الله إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ «تبياناً» أي بياناً بليغاً «لكل شيء» من أمور الدين وشئون الحياة، في هذه الدنيا، وأما ما بين من هذه الأمور والشئون عن طريق سنة رسول الله (أفعاله وأقواله وتقاريره) أو عن طريق الصحابة، أو عن طريق الإجماع، أو عن طريق القياس، فإنه مما يستند على أصل من نصوص القرآن أو إشارته ورموزه.

الثاني: أن القرآن إنما نزل «هدى» للعالم البشري من الضلالة، فقد هدى الله عز وجل بالقرآن المجيد من كانوا على الضلالة قبل نزوله، هداهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن العصيان إلى الطاعة، ومن الظلم إلى الإحسان، ومن التفرق إلى الإخوة والاتحاد، كما هدى به من جاء بعدهم من أجناس البشر، إلى ما هو الخير في الدين والدنيا زهاء أربعة عشر قرناً، ولا يزال يهدي به الأجيال القادمة إلى يوم القيامة.

الثالث: أن القرآن إنما نزل «رحمة» لعالم الإنسانية، ولولا القرآن لظل الإنسان في جهله لا يميز بين الخير والشر، ولا يهتدي إلى ما فيه مصلحته في دينه ودنياه وشئون حياته.

أجل! إن القرآن رحمة لمن اتبع تعاليمه، بل إن القرآن أصبح (ولا يزال) رحمة لغير أتباعه من الملل في بعض شئونهم في الحياة، وذلك عن طريق انتشار العلم المكتسب من المسلمين، في قارة أوروبا وغيرها، وقد اعترف به المنصفون من علماء الأجانب، كما سنرويه في موضعه.

الرابع: أن القرآن إنما نزل «بشرى» للمسلمين في الحياة الدنيا والآخرة، وهم الذين آمنوا به وعملوا بما فيه من الأحكام والتعاليم، واهتدوا به واتخذوه دستوراً مقدساً لشئونهم الدينية، ولحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، في كل ما يتعلق بالأفراد، وما يتعلق بالمجتمع الإسلامي والدولي، والتاريخ يشهد بذلك فيما كان عليه الأولون من المسلمين من العزة والكرامة والقوة والمنعة، والغلبة والفتوحات، والمكانة في العالم الإنساني في هذه الحياة، وكأنهم عاشوا في الجنة وهم في الدنيا، وسيعيشون في الجنة، وهم في الآخرة خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

«إفادة»

ومما يجب الإفادة به أن الله عز وجل بعد هذه الأوصاف التي وصف بها كتابه «القرآن المجيد» يقول: ﴿ن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون﴾ (الآية ٩٠ من سورة النحل).

وبهذا يبلغ إلى أسماع العالم الإنساني، أن الله سبحانه يأمر في القرآن عباده الأولين والآخرين إلى ثلاثة أمور، وينهاهم عن ثلاثة أمور.

أما الأمور الثلاثة التي يأمر بها:

فالأول: أن الله تعالى يأمر عباده «بالعدل» وهو المساواة في الحقوق فيما بين الناس، وترك الظلم وإيصال كل ذي حق إلى حقه، بمعنى يعم حقوق الأفراد، وحقوق المجتمع من الحرية، وتعيين المصير والحكم المستقل لكل شعب ولكل قوم، بدون فرق بين جنس وجنس، وبين لون ولون.

فبالعدل يسود بين الأفراد الأنس والمحبة والتعاضد والتعاون في الحياة، وبالعدل يستتب الأمن والصلح والتعايش السلمي الحقيقي في المجتمع الإنساني وبالعدل يتقدم الإنسان نحو الرقي في ميادين العلم والعمل، وينطلق نحو ما ينشده من النهضة المعقولة في حياته.

ولهذا فإن الله الكريم يتوجه إلى عباده توجه الخالق إلى مخلوقه، ويشرفهم بخطابه القدسي ويقول: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ (الآية ٥٨ من سورة النساء).

والثاني: أنه تعالى يأمر عباده بالإحسان في عبادته، وقد فسره رسول الله ﷺ بقوله: ﴿أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك﴾. كما يأمر بالإحسان فيما بينهم، فإنه يولد الأنس ويؤلف بين المتخالفين ويستجلب القلوب.

وإليه أشار أبو الفتح البستي حيث قال:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

والثالث: أنه سبحانه يأمر عباده بإيتاء ذي القربى أي إعطاء ما يستحقه من صلة الرحم وحق القرابة، وهو مما يحفظ به على العلاقة النسبية، ويوطد التعاضد والتعاون والمساندة بين الأقرباء، سواء كانت القرابة قريبة أو بعيدة.

وأما الأمور الثلاثة التي ينهي الله تعالى عباده عنها:

فالأول: أنه تعالى ينهي عباده عن الفحشاء، وهي الذنوب المفرطة في القباحة كالزنا وقتل النفس بغير الحق والاعتداء على حق الفرد أو المجتمع، أو كل ما قبح من القول أو العمل.

ولا شك في أن الفحشاء بهذا المعنى، فساد في حياة الأفراد، وفساد في حياة المجتمع، وبالانتهاء عن الفحشاء يحسن شأن الأفراد والمجتمع الإنساني.

والثاني: أنه تعالى ينهي عباده عن المنكر، وهو كل ما ينكره العقل ويأباه الضمير من الأقوال والأفعال، ولا شك في أن المنكر بهذا المعنى مما يفسد بين الأفراد، ويهيج الفتنة في ساحة المعيشة، ويخل بالأمن الاجتماعي، وبالانتهاء عن المنكر، يصلح شأن الأفراد ويصلح شأن المجتمع.

والثالث: أنه تعالى ينهي عباده عن البغى، وهو التطاول على حقوق الأفراد والمجتمع بالظلم والطغيان، وتسلط القوي على الضعيف، مما يوقع الفساد في نظام الحياة الفردية والاجتماعية، وبالانتهاء عن البغى، يقل وطأة الشر ويترجح ميزان الخير في حياة الفرد والمجتمع.

وفي ختام الآية يخاطب الله سبحانه عباده مرة أخرى ويقول: ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾ حيث يدعوهم أجمعين إلى قبول وعظه بالائتمار بأمره والانتهاء عن نهيه، والتذكر به تذكراً عملياً.

وبعد فأقول: إن هذه الآية أيضاً تصف القرآن بأوصاف جامعة، ولها ما لها من سمو الأهداف، وعلو الأغراض، مما يلين القلب القاسي، ويستجلب الداني والقاصي.

قال النسفي في تفسير هذه الآية ما نصه:

وهذه الآية كانت سبب إسلام عثمان بن مضعون رضي الله عنه، فإنه قال: ما كنت أسلمت إلا حياء منه عليه الصلاة والسلام لكثرة ما كان يعرض علي الإسلام، ولم يستقر الإيمان في قلبي حتى نزلت هذه الآية، وأنا عنده، فاستقر الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق، وما هو بقول البشر».

وقال أبو جهل: (وهو أشد صناديد قريش عداوة، وأصلبهم عناداً على الرسول حتى مات على جهله وكفره). إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق.

ثم قال النسفي: وهي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولهذا يقرؤها كل خطيب على المنبر في آخر كل خطبة، لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهى). انتهى.

٦ ـ ومما وصف الله به القرآن قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (الآية ٢١ من سورة الحشر).

فقد وصف الله سبحانه بهذه الآية ما في معاني القرآن من هيبة الحق، وجلال الصدق وروعة التعبير بأنه لو أنزل القرآن على جبل (بعد أن خلق له تمييزاً) لخشع أي لطأطأ وخضع، وتشقق وتصدع مع صلابته ورزانته وقوة تحمله للحوادث، وذلك من خشية الله عز وجل في أن لا يؤدي حق الله في تعظيم القرآن، ولكن بعض الإنسان مع ماله من عقل يميز به بين الحق والباطل، غافل عما في معاني القرآن، وعما يتضمنه من العبر والمواعظ والوعد والوعيد، قاسي القلب لا يلين بالقرآن قلبه، ولا يتأثر به شعوره، حتى يؤمن به حق الإيمان ويعمل بما فيه من الأحكام، ويهتدي به إلى ذكر الله الذي أنزله ليخرج به العالم الإنساني من الظلمات إلى النور.

٧ ـ ومنه وقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث، كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾، (الآية ٢٣ من سورة الزمر).

فقد وصف الله سبحانه القرآن المجيد بهذه الآية، بأن القرآن أحسن الحديث وفخمه بأن الله هو الذي نزله فهو كلامه المقدس.

وكون القرآن أحسن الحديث من ناحيتين:

الأولى: ناحية اللفظ والمبنى فإنه أفصح الكلام وأجزله وأبلغه، وليس هو من جنس الشعر ولا من جنس الخطب، وإنما هو نوع يخالف الجميع في أسلوبه، ولهذا فقد عجز البلغاء والفصحاء عن الإتيان بمثله، ولو بأقصر سورة منه، كما سبق بيانه.

الثانية: ناحية التوجيه والمعنى، فإنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، منزه عن التناقض والاختلاف، مشتمل على أخبار الماضين وقصص الأولين، وعلى أخبار الغيوب، وعلى الوعد والوعيد، وكل ذلك بأسلوب أخاذ للقلوب، مثير للشعور الإنساني، ومنبه للضمير البشري.

ووصفه ثانياً: بأنه كتاب متشابه، يشبه بعضه بعضاً في الحسن، ويصدق بعضه بعضاً في الغرض والإفادة.

ووصفه ثالثاً: بأنه مثاني، يثنى فيه ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والأخبار والأحكام، مما فيه صناعة البديع، والتثبت في القلوب.

ووصفه رابعاً: بأنه تقشعر منه (إذا تليت آياته) جلود الذين يخشون ربهم وذلك عند ذكر الوعيد وقصص هلاك المنكرين والكافرين والمشركين، ثم تلين منه قلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله عز وجل، وتميل إلى مزيد طاعته وعبادته، وذلك عند ذكر الوعد، وقصص المؤمنين والصالحين.

«إفادة وتنبيه»

قال الخازن في تفسير هذه الآية: روي عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تماتت عنه ذنوبه كما يتمات عن الشجرة اليابسة ورقها».

وقال قتادة: «هذا نعت أولياء الله الذي نعتهم الله به أن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان».

وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قريء عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. فقلت لها: إن أناساً اليوم إذا قريء عليهم القرآن خر أحدهم مغشياً عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما مر برجل من أهل العراق ساقط، فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: إنه إذا قريء عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، فقال بن عمر: «إنا لنخشى الله ولا نسقط».

أقول: لعل حدوث الغشيان أو السقوط عند قراءة القرآن أو ذكر الله عز وجل لبعض الصادقين من المتأخرين، إنما هو من عدم النضج الروحي وضعف الطاقة الروحية، وأما السلف فقد كانوا أنضج وأقوى في كل خصالهم رضي الله عنهم أجمعين.

٨ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشاد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً﴾ (أول سورة الجن).

ويستفاد من هذه الآية أوصاف أربعة للقرآن المجيد:

الأول: أن القرآن عجيب بديع في حسن نظمه وروعة تعبيره، وسمو معانيه، بحيث لا يشبه كلام البشر مهما كان فصيحاً بليغاً، مما يثبت أنه كلام الله عز وجل لا ريب فيه.

الثاني: أنه يهدي المستمعين لآياته إلى الرشد والصواب.

الثالث: أنه يؤدي بمن استمع له إلى الإيمان به، بأنه منزل من عند الله سبحانه إلى نبيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

الرابع: أنه يقضي على الشرك، ويجعل المشرك موحداً، وذلك إذا استمع لآياته البينات حق الاستماع، ووعى ما فيها من التوجيه الذي يتمشى مع العقل الإنساني، ويتفق مع مقتضى الطبيعة البشرية.

«إفادة»

يستفاد من الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، في وقت قد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشعب منعاً لهم عن الاستراق (بعدما كانوا يسترقون السمع في عهود سائر الأنبياء) فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ فأجابوا أنه حيل بيننا

وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب منعاً لنا عن استراق السمع، فقالوا: وما ذاك إلا من شيء قد حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا متفرقين إلى ربوع الأرض ونواحيها، فمر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي ﷺ وهو بنخلة يصلي بأصحابه صلاة الفجر (في طريقهم إلى سوق عكاظ) فلما سمعوا القرآن (من قراءة الرسول في الصلاة) استمعوا له، فقالوا: «هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء» فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا «إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً» فأنزل الله على نبيه: ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن﴾ (إلى آخر الآية) وقد أمر الله ورسوله ﷺ أن يظهر لأصحابه واقعة الجن، ليثبت كما أنه مبعوث إلى الإنس مبعوث إلى الجن أيضاً، ولتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن وعرفوا إعجازه وما فيه من سمو المعاني وقدسية الأهداف آمنوا به أنه حق، وأنه منزل من عند الله سبحانه إلى محمد بن عبد الله ﷺ وأنه رسول من الله إلى الإنس والجن.

«دلالة واقعة الجن»

١ـ تدل هذه الواقعة على وجود الجن، كما يدل عليه قوله تعالى: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان» (الآية ٣٣ من سورة الرحمن). وقوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (الآية ٨٨ من سورة الإسراء). وقوله تعالى: «وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن» (الآية ٢٩ من الأحقاف). وغيرها من الآيات، والأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن الأخبار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين تدل عليه، فالإنكار على وجود الجن جهل وكفر[1].

(١) سنفرد هذا البحث في كتاب خاص إن شاء الله الموفق.

٢- وتدل الواقعة أيضاً أن أولئك النفر من الجن قد آمنوا بالقرآن بأنه منزل من عند الله سبحانه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك بدليل نص قولهم: «فآمنا به». كما يدل عليه قولهم في هذه السورة: «وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به» وغيره.

٣- وتدل أيضاً أن أولئك النفر كانوا مشركين فأصبحوا موحدين، بدليل نص قولهم «ولن نشرك بربنا أحداً».

٤- ويستفاد من حديث عبد الله بن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له علم من مرور نفر الجن به. ثانياً: أنه لم يرهم وإنما علم مرورهم به واستماعهم القرآن بوحي إليه من عند الله سبحانه، ويدل على الثاني بالصراحة. وعلى الأول رمزياً قوله تعالى: «قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن» (الآية). كما لا يخفى على المحققين.

٩- ومما وصف الله به القرآن قوله عز وجل: «وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به، يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض، وليس له من دونه أولئك في ضلال مبين» (الآية ٢٩ و ٣٢ من الأحقاف).

ويستفاد من هذه الآيات ثلاثة أوصاف للقرآن المجيد:

الأول: أن القرآن أنزل مصدقاً لما بين يديه من الكتب التي أنزلت كما تدل عليه آيات أخرى.

الثاني: أن القرآن يهدي إلى الحق، وهو ما لا يسوغ إنكاره لدى العقل البشري والضمير الإنساني من العقيدة والعمل، والتعليمات والمباديء.

الثالث: أن القرآن يهدي العالم البشري (والجن أيضاً) إلى طريق مستقيم يجب اتباعه في شئون الأفراد والمجتمع، سواء كانت دينية أو اجتماعية أو سياسية، كما قال تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتعزق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» (الآية ١٥٣ من سورة الأنغام).

«تنبيه»

إن النفر من الجن، غير أولئك النفر من الجن الذين نزلت فيهم سورة الجن، وذلك بناء على الدلائل التي يطول ذكرها وهو خارج عن موضوع هذا الكتاب. وسنذكرها في كتابنا «وجود الجن» إن شاء الله الموفق.

١٠ ـ ومما وصف الله به كتابه القرآن قوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ (الآية ٨٢ من سورة الإسراء). فقد وصفه بأنه شفاء من أمراض القلوب، ورحمة وتفريج للكروب، وتطهير على الرذائل والعيوب، وذلك في حياة الأفراد والمجتمع، للمؤمنين به، الذين يتبعون تعاليمه الحقة، وينفذون أحكامه الحكيمة في حياتهم الفردية، ومعيشتهم الاجتماعية. هذا ولا شك في أنه قد ثبت في أدوار التاريخ أن القرآن كان (ولا يزال) شفاء ورحمة في الواقع لأتباعه الصالحين المتمسكين بأهدافه السامية، ومبادئه القدسية، بل عمت رحمته على العالمين، وما يعقلها إلا العالمون.

١١ـ ومنه قوله تعالى: «ولقد ضربنا في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون» (الآية ٢٧ و ٢٨ من سورة الزمر)، فقد وصف الله سبحانه القرآن في هذه الآية بثلاثة أوصاف:

الأول: أنه يشتمل على ضروب من المثل، وذلك لكي يتذكر الناس به ويتبعوا الحق، لأن المثل تمهيد للفهم، وإقناع للعقل، وتيسير للوصول إلى ما هو الغرض.

الثاني: أنه قرآن عربي أنزل بلغة العرب، وهو أنسب لغة للقرآن لأنه أنزل

إلى نبي عربي، في قوم عربي، لكي لا يكون عليهم حرج في فهم معانيه، ولا شك في أن رعاية حال أول قوم ينزل فيهم الكتاب أنسب وأحكم من رعاية أحوال سائر الأقوام (من عالم البشرية) الذين يشملهم نزول الكتاب، مع ما في رعاية أحوالهم من الصعوبة في تبليغ أحكامه وتفهيم معانيه وهو التزام عدة لغات في إنزاله.

الثالث: أن القرآن غير ذي عوج، لأنه مستقيم بريء من التناقض والاختلاف، وأنه غير ذي عوج في أحكامه وتعاليمه وأهدافه، فإنها مستقيمة، وكلها صواب وحكمة وانطباق على العقل البشري والضمير الإنساني.

١٢ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ (الآية ١ ـ ٤ من سورة الكهف).

فقد وصف الله سبحانه كتابه القرآن المجيد في هذه الآيات بخمسة أوصاف:

الأول: أن القرآن منزل من عند الله عز وجل على عبده (نبيه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ)، ولا يوجد في معانيه عوج، بمعنى أنه لا اختلاف في أحكامه، ولا تناقض في تعاليمه، ولا خروج لشيء مما فيه من الحكمة، بل كله حكمة ومصلحة تتم لعالم البشرية.

الثاني: أن القرآن قيم، بمعنى أنه قيم على سائر الكتب المنزلة مصدق لها، شاهد عدل بصحتها.

الثالث: أن القرآن ينذر الذين كفروا إنذاراً صادراً من عند الله تعالى بالبأس الشديد، لكي ينصرفوا إلى الإيمان والتوحيد.

الرابع: أن القرآن يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات، بالأجر الحسن وهو الجنة، خالدين فيها أبداً، لكي يثبتوا في إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

الخامس: أن القرآن ينذر (إنذاراً خاصاً) الذين قالوا اتخذ الله ولداً، قولا لم يصدر عن علم، وإنما هو صادر عن جهل وتقليد أعمى لمن سبقهم من آبائهم، كمال قال الله سبحانه في ختام هذه الآيات: ﴿ما لهم به من علم ولا لآبائهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً﴾.

وندد به وشدد على عقيدة اليهود والنصارى بنسبة الابن إلى الله تعالى، وقد قدمنا في الرد على هذه العقيدة وأمثالها فصلاً مفصلاً فيما سبق من فصول هذا الكتاب.

١٣ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ (الآية ١٠٥ من سورة الإسراء)، فقد وصف الله سبحانه القرآن بهذه الآية، أنه منزل من عند الله عز وجل بالحق (ليس إلا) ونزل ملتبساً بالحق، وإنه حق وحكمة كله لا غير.

قال النسفي: في تفسير هذه الآية:

وما أنزلنا القرآن إلا بالحق والحكمة، وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. انتهى.

١٤ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿الر. كتاب أنزلناه إليك، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ (الآية ١ من سورة إبراهيم)، فقد خاطب الله سبحانه في هذه الآية نبيه ورسوله محمداً ﷺ فقال في وصف القرآن: إنه كتاب أنزلناه إليك، لتخرج به الناس (الأولين والآخرين) من ظلمات الجهل والكفر والشرك وغيرها من الأخلاق السيئة التي تؤدي إلى فساد حياة الأفراد والمجتمع البشري، إلى نور العلم والإيمان والتوحيد، وغيرها من مكارم الأخلاق والخصال التي تؤدي إلى صلاح الأفراد والمجتمع، والتي هي وسيلة فوز العالم الإنساني بسعادة الدنيا والآخرة.

وإنما ذلك «بإذن ربهم» أي بتوفيق الله وتيسيره «إلى صراط العزيز» المتصف

بالعزة والغلبة، «الحميد» المحمود في كل ما أراده لعباده. هذا، ويشهد التاريخ في قديمه وحديثه بأن هذا الوصف للقرآن المجيد قد تحقق عملياً في ساحة حياة الأفراد والمجتمع، وذلك على يد نبي الإسلام ورسوله محمد ابن عبد الله ﷺ، وعلى أيدي خلفائه الأربعة الراشدين، وأيدي أصحابه والتابعين وتابع التابعين رضي الله عنهم أجمعين، ولا يزال القرآن يتحقق وصفه هذا (وسائر أوصافه) على أيدي المصلحين الحاملين لواء الحق بين كل قوم وقبيلة، وبين كل شعب وطائفة في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة.

فقد قال الله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

١٥ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿الم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك القرآن بالحق، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل، هدى للناس وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام﴾ (الآية ١ ـ ٤ من سورة آل عمران).

فإن الله سبحانه في هذه الآيات بعدما نبه العالم البشري على أنه لا إله إلا هو، وأنه «الحي» الدائم الباقي، وأنه «القيوم» القائم بذاته الذي يقوم بتدبير أمور الخلق كله، وفيه العالم البشري، وبمصالحهم فيما يحتاجون إليه في شئون دنياهم وآخرتهم.

أريد أن أقول: بعدما نبه الله العالم البشري (وفيه المشركون) على هذا كله وصف كتابه القرآن بأنه منزل تنجيما من عنده سبحانه على نبيه محمد ﷺ «بالحق» أي بالصدق والعدل، بمعنى أن كل ما في القرآن صدق وكل ما فيه عدل، كما أن كلا من التوراة والإنجيل منزل من عند الله قبل القرآن، ووصف الجميع، (من القرآن والتوراة والإنجيل) بأن إنزاله هدى للناس، لما فيه من الأحكام والشرائع، التي تتعلق بشئون العالم البشري، وأنه تعالى: أنزل الفرقان (في آيات هذه الكتب) أي الفارق الذي يفرق بين الحق والباطل، ثم أنذر الذين كفروا بآيات الله بقوله: ﴿لهم عذاب شديد﴾ وأن الله «عزيز» غالب «ذو انتقام» ممن كفر به.

١٦ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿الر. كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ألا تعبدوا إلا الله، إنني لكم منه نذير وبشير. وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير، إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير﴾ (الآية ١ ـ ٤ من سورة هود﴾. فقد وصف الله سبحانه في هذه الآية كتابه القرآن، بأنه كتاب أحكمت آياته أي نظمت نظماً رصيناً محكماً كالبناء المحكم، بحيث لا يقع فيه نقص ولا خلل، ولا ينسخه كتاب، ثم فصلت كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام والأمثال والمواعظ والقصص، أو جعلت فصولا سورة وسورة.

ووصفه ثانياً: بأن القرآن إنما هو منزل من لدن حكيم لا يخلو فعله ولا أمره ونهيه من حكمة، خبير بأحوال عباده، عالم بما يصلحهم، وما لا يصلحهم من خير وشر ونفع وضر، لا يخرج من علمه شيء وهو على كل شيء قدير.

وبقوله: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ بين الله الغرض الأول من تنزيل القرآن وإحكامه وتفصيله، ألا وهو التوحيد وعبادة الله وحده، بخلع الأنداد والأصنام، والرجوع إلى الله بدخول الإسلام: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ثم أمر الله نبيه ورسوله محمداً ﷺ أن يقول لعباد الله سبحانه (وفيهم وفد نجران الذين نزلت فيهم السورة) إنني لكم منه نذير وبشير، وأن يدعوهم جميعاً إلى طلب المغفرة من الله عما أسلفوه من الكفر والشرك والذنوب، وأن يتوبوا إليه، وأن يبشرهم بأن الله يمتعهم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى يتوفون فيه، بأن يبسط عليهم من الدنيا وأسباب الرزق ما يعيشون به في أمن في الحياة وسعة في الرزق، وخير في الشئون. هذا في دنياهم، وأما في الآخرة فإن الله تعالى يعطي كل ذي عمل صالح أجره وثوابه: «إن الله لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» الآية.

وفي ختام الآيات أمر الله نبيه ورسوله محمداً ﷺ أن ينذرهم قائلاً: وإن تولوا (معرضين عما بلغته إليكم من اتباع الهدى)، فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير

(يوم القيامة) إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير.

أقول: هذه هي جملة من أوصاف القرآن المجيد التي وردت من عند الله عز وجل في آيات بينات ذكرناها، وبينا ما فيها من الدلالة على أن القرآن المجيد كتاب الله الذي أنزله بالحق إلى رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، كما أوضحنا ما فيها من البيان لأهداف القرآن وتعاليمه الحقة، وأن القرآن كله صدق وكله عدل: ﴿تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾(الآية ١٦٥ من سورة الأنعام).

«إيذاء الرسول في تبليغ القرآن»

ولقد أوذي رسول الله ﷺ في تبليغ القرآن بما يطول ذكره من الكفار والمشركين وعلى رأسهم صناديد قريش.

ولم يكن يهود المدينة أقل منهم أذى على رسول الله، عن طريق الموالاة للمشركين، وإثارتهم ضده ودفعهم لمحاربته. وكان ذلك حسداً منهم لبعثته ونبوته ﷺ، حيث كانوا يطمعون في أن يبعث نبي من اليهود، فقد قال الله عز وجل في شأنهم: ﴿ترى كثيراً منهم﴾ يعني من اليهود مثل كعب ابن الأشرف، وأصحابه يتولون الذين كفروا يوالون المشركين من أهل مكة حينما خرجوا وسروا إليهم ليجيشوا على رسول الله ﷺ، «لبئس ما قدمت لهم أنفسهم، إن سخط الله عليهم» فقد استحقوا سخط الله وغضبه عليهم في الدنيا، «وفي العذاب هم خالدون» في الآخرة خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، «ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي» يعني موسى «وما أنزل إليه، يعني التوراة حق الإيمان، «ما اتخذوهم» أي المشركين «أولياء» ضد رسول الله محمد ﷺ، بل آمنوا به، فإن النبي موسى أخبرهم بمبعث محمد بما أنزل إليه في التوراة «ولكن أكثرهم فاسقون» خارجون عن دينهم فلا دين لهم أصلا.

ثم قال الله عز وجل: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ حيث خاطب سبحانه نبيه ورسوله محمداً ﷺ وأكد خطابه بلام

القسم، فوصف له شدة عداوة اليهود للمؤمنين، وصعوبة إجابتهم للحق، وجعلهم قرناء للمشركين عبدة الأصنام في العداوة والقيام ضد الحق، هذا شأن اليهود في صدر الإسلام وما بعده من التاريخ، وهذا شأنهم في زماننا هذا، لا تفوتهم فرصة لعداوة المسلمين حتى تشريدهم وإخراجهم من الوطن، فنعوذ بالله من شر اليهود.

أما مذهب النصارى فإنه خلاف اليهود، فإن الإيذاء في مذهبهم حرام، وأن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرئاسة ومن كان كذلك كان شديد العداوة (والحسد) لغيره.

وأما النصارى فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها، وترك طلبه الرياسة، ومن كان كذلك فإنه لا يحسد أحداً ولا يعاديه. بل يكون لين العريكة في طلب الحق، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا في كتبنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، فأثابهم بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾، (الآية ٨٠ ـ ٨٥ من سورة المائدة).

وقد نزلت الآيات من قوله تعالى: ﴿لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا (إلى قوله تعالى) وذلك جزاء المحسنين﴾ بشأن النجاشي ملك الحبشة الذي آمن بنبوة محمد ﷺ مع من حوله من القسيسين والرهبان بعد ما سمعوا سورة مريم من قراءة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وبشأن من حضروا إلى المدينة في صحبة جعفر وهم سبعون رجلاً، اثنان وستون من الحبشة وثمانية من الشام، وآمنوا بعد ما سمعوا سورة يس من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«قصة النجاشي مع المهاجرين وإيمانه»

لما بعث الله سبحانه، نبيه ورسوله محمداً ﷺ إلى العالم البشري، وأخذ بتنزيل القرآن آية فآية وسورة فسورة، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وقام رسول الله ﷺ بتبليغ رسالته، وتأدية أمانته بدءاً من عشيرته الأقربين، قامت قريش وعلى رأسها صناديدها ضده ومن آمن به بأنواع التعذيب والإيذاء، ولما رأوا صبر الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين به وصمودهم أمام الأعداء، وانتشر دين الإسلام في مكة وبين القبائل على رغم خصومه الذين «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

فعند ذلك: تآمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من آمن فأذوهم وعذبوهم، فافتتن من افتتن منهم، وعصم الله من شاء منهم، ومنع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين، ولم يأمر بعد بالجهاد، أمر أصحابه بالخروج والهجرة إلى أرض الحبشة وقال: «إن بها ملكاً صالحاً لا يظلم، ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً»، فخرج إلى الحبشة أحد عشر رجلا وأربع نسوة[1] وعلى رأسهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان ذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث الرسول، وهذه هي الهجرة الأولى، واستقبلهم النجاشي ملك الحبشة بصدر رحب، ولكنهم رجعوا بعد ثلاثة أشهر، حيث لم تتيسر لهم الإقامة في دار الغربة وهم قلة ـ وفي الكثرة بعض الأنس ـ ثم أنهم أشراف قريش، ومعهم نساؤهم، فلا يطيب لهم عيش بهذه الحالة.

ثم أجمع كفار قريش على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولدى عبد مناف، لأنهم رفضوا عرض كفار قريش في تسليم رسول الله إليهم مقابل دية مضاعفة

---

(١) وقال صاحب نور اليقين «عشرة رجال وخمس نسوة».

أو مقابل سيد من شبابهم، واتفقوا على إخراجهم من مكة والتضييق عليهم، فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فكان القوم في جهد حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وهم في شعب أبي طالب ومعهم الرسول ﷺ، فأمر رسول الله جميع المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة (هجرة ثانية) حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب، فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً، وثماني عشر امرأة، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص (وكان ذلك قبل إسلامه، لأنه أسلم قبيل فتح مكة) مع جماعة بهدايا إلى النجاشي وبطارقته وذلك ليرد المهاجرين إلى مكة، فدخلوا عليه ثم قال عمرو: «أيها الملك إنه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش، وزعم أنه نبي، وأنه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك، فأحببنا أن نخبرك خبرهم، وأن قومهم في مكة يسألونك أن تردهم إليهم». فقال النجاشي: حتى نسألهم. فأمر بهم حتى أحضروا وعنده عمرو وجماعته: فسألهم قائلاً: ماذا يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ فقال جعفر بن أبي طالب: «يقول هو عبد الله ورسوله، وكلمة الله، وروح منه، ألقاها إلى مريم العذراء، ويقول في أمه مريم إنها العذراء البتول». فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: «ما زاد صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود!».

فكره عمرو وجماعته قول النجاشي وتغيرت وجوههم، ثم قال: هل تعرفون شيئاً مما أنزل على صاحبكم؟ فقالوا: نعم! قال: إقرأوا، فقرأ جعفر سورة مريم، وكان عند النجاشي قسيسون ورهبان وغيرهم من النصارى فعرفوا ما قرأه، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق.

فقال النجاشي مخاطباً لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي. أما عمرو فقد خرج وأصحابه وعادوا إلى مكة خائبين، وأقام المهاجرون عند النجاشي بخير دار وخير جوار، إلى إن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وظهر أمره وقهر أعداء دينه، وذلك سنة ست من الهجرة.

وكتب النجاشي إلى النبي ﷺ وقال فيما كتبه:

«يا رسول الله إن أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفراً وأسلمت لله رب العالمين، والسلام عليك يا رسول الله».

أقول: وهكذا نال النجاشي الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ بعدما اقتنع بما هو الحق، وحصل على السعادة الأبدية، وقد ساعده في ذلك اطلاعه على ما في الإنجيل من التبشير ببعثة النبي محمد على لسان عيسى عليه السلام، نعم إنه نال السعادة. وقد روى الإمام أبو داود في سننه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور».

وقال على القارىء في المرقاة في شرح هذا الحديث ما نصه:

«قولها (على قبره نور) أي في الحبشة، والمعنى أن هذا الأمر مشهور فيما بيننا ومذكور عمن رأى نور قبره منا، ولا يتصور اتفاقنا على الكذب، فهو كاد أن يكون متواتراً» انتهى.

هذا وقد وافى جعفر بن أبي طالب وأصحابه عائدين من الحبشة إلى رسول الله ﷺ وهو في خيبر، وكان مع جعفر سبعون رجلاً من النصارى، منهم اثنان وستون رجلاً من الحبشة وثمانية من الشام، فقرأ عليهم رسول الله سورة يس فبكى القوم حينما سمعوا القرآن وآمنوا.

هذه خلاصة القصة استخلصناها من أقوال المفسرين والمؤرخين، ولا يخفى ما فيها من التأثير الروحي في القرآن المجيد، ونفوذه في القلوب، وما يدل على أن القرآن حق وصدق أنزل من عند الله سبحانه إلى عبده ورسوله محمد ﷺ، مع ما في القصة من لين عريكة أولئك النصارى من النجاشي والقسيسين والرهبان، ومن كانوا مع جعفر في عودته، وخضوعهم لدى استماع القرآن وعدم استكبارهم عن قبول الحق والإيمان به، «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، وأن الله هو العلي الكبير» (الآية ٣٠ من سورة لقمان).

«ما ورد من الأحاديث النبوية بشأن القرآن»

وقد وردت الأحاديث النبوية عن النبي ﷺ بشأن القرآن:

الحديث الأول: منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

فقد نص رسول الله ﷺ (بالتأكيد) على أن خير الحديث إنما هو كتاب الله وهو القرآن المجيد، وبهذا أشار إلى قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ (الآية ٢٣ من سورة الزمر).

وقد ذكرنا هذه الآية وما فيها من أوصاف القرآن في الفصل الذي سبق.

١ ـ كما نص على أن خير الهدى ـ السيرة والطريقة ـ هدى محمد التي تقتبس من القرآن وتستند على نصوصه ورموزه وأسراره.

٢ ـ ونص على أن شر الأمور (أي في شئون الدين) محدثاتها، التي أحدثتها أيدي الضالين المضللين زيادة على الدين وباسم الدين، وبهذا أشار إلى قوله[1]: ﴿من أحدث في أمرنا هذا (أي في ديننا دين الإسلام) ما ليس منه (أصلا أو بناء فهو رد) أي مردود، لأن أمر الإسلام قد كمل فقد قال الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (الآية ٣ من سورة المائدة)، وهي آخر آية من القرآن نزلت سنة ١٠هـ في عرفات بحجة الوداع.

٤ ـ ونص على أن «كل بدعة» شيء لم يكن من شئون الدين في عهد رسول الله ﷺ، ولم يبن على أصل من الكتاب والسنة وهي البدعة السيئة «ضلالة» أي

---

(١) رواه الإمام البخاري ومسلم في صحيحها.

سبب ضلالة الأمة وعليها أن تجتنبها، وتجتنب مبتدعها، وقد روى البيهقي عن إبراهيم بن ميسرة قال، قال رسول الله ﷺ: «من وقر صاحب بدعة (في الدين) فقد أعان على هدم الإسلام» نعوذ بالله منه.

«الحديث الثاني»

وروى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ[1] أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله». فقد نص رسول الله ﷺ على أن دستور الأمة المحمدية إنما هو ما في كتاب الله (القرآن المجيد) وسنة رسوله، وهي عبارة عن أقواله وأفعاله وما ورد منه من التأييد أو السكوت على أقوال الصحابة وأفعالهم، وكذلك ما بنى عليهما من أقوال الفقهاء وغيرها من القوانين، فما ورد في كتاب الله وسنة رسوله من التعليمات والمباديء، يجب اتباعه كأصل وتنفيذه عملياً بالتمسك به حق التمسك، حتى لا تضل الأمة عن طريق الصواب في حياتها الدينية والدنيوية، ولهذا قال: «لن تضلوا ما تمسكتم بهما».

ويؤيد هذا الحديث من ناحية، ما روى الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين».

أي يرفع به أقواماً يؤمنون به ويعملون بأحكامه وتعاليمه، ويضع به أقواماً لا يؤمنون به ولا يعملون.

«الحديث الثالث»

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل القرآن على خمسة أوجه: حلال وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وفي رواية المصابيح بزيادة «وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال».

---

(١) مرسلا في الموطأ.

أقول: هذا الحديث واضح في معناه بحيث لا يحتاج إلى شرح، أما قوله ﷺ: «وآمنوا بالمتشابه» يعني بدون تأويل كالراسخين في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.

وبهذا النص أشار الرسول ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات من أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ (الآية ٧ من سورة آل عمران).

«الحديث الرابع»

وروى[1] رزين عن مفسر الصحابة عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: «من تعلم كتاب الله ثم اتبع ما فيه، عداه الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب» وفي رواية قال: «من اقتدى بكتاب الله لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، (ثم تلا هذه الآية)، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. أقول: والحديث ذكره صاحب مشكواة المصابيح في باب الاعتصام بالكتاب والسنة.

«الحديث الخامس»

وروى العلامة أبو الفداء الدمشقي في «فضائل القرآن» عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: «القرآن هو الفصل ليس بالهزل، من ابتغى الهدى في غيره ضل، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل».

أقول: قوله «هو الفصل» يعني القول الجدي الفاصل بين الحق والباطل، وقوله: ﴿من ابتغى الهدى في غيره ضل﴾ لأن القرآن هو الهدى (لا غيره) للعالم البشري. كما جاء في الآيات التي ذكرناها في الفصل السابق، وقوله: ﴿ومن قال به إلخ...﴾، لأن القرآن كله صدق وعدل، فقد قال الله عز وجل:

---

(١) وهو أبو الحسن رزين بن معاوية العبدري من التابعين.

﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ (الآية ١٦٥ من سورة الأنعام).

«الحديث السادس»

وروى العلامة أبو النداء الدمشقي في «فضائل القرآن» أيضاً عن فقيه الصحابة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن هذا القرآن حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به: ونجاة لمن تبعه، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد».

أقول: إن الجملة الأولى تشير إلى قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (الآية ١٣٠ من سورة آل عمران). والمراد بحبل الله هو كتابه القرآن، لأنه سبب الوصول إلى الله عز وجل ورضاه، وفي النتيجة إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وتشير الجملة الثانية إلى قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (الآية ١٥ من سورة المائدة).

وتشير الجملة الثالثة إلى قوله سبحانه: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ (الآية ١٠١ من سورة آل عمران).

والمراد بالاعتصام بالله إنما هو الاعتصام بحبل الله وهو القرآن:

وتشير الجملة الخامسة إلى قوله سبحانه: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ (الآية ١٢٣ من سورة طه).

وأما قوله: ﴿لا تنقضي عجائبه﴾ معناه أن في آيات القرآن ورموزه عجائب وأسراراً لا تنقضي، وإنما تنكشف كلما تقدم العالم البشري في العلم، وكلما نضج العقل الإنساني، كما نشاهده في عصرنا هذا.

وأما قوله: ﴿ولا يخلق من كثرة الرد﴾ معناه: لا يخلق كما يخلق الثوب بكثرة

الاستعمال، بل القرآن جديد دائماً وسيدوم جديداً تبتنى عليه حياة البشرية وشئونها إلى يوم القيامة.

«إفادة»

قال العلامة النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ تمسكوا بالقرآن، لقوله عليه الصلاة والسلام: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم».

٢ ـ قال الخازن في تفسير هذه الآية، وفي إفراد مسلم من حديث زيد ابن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة».

٣ ـ وقال الخازن أيضاً: وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به» ذكره البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي صاحب المصابيح).

«الحديث السابع»

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

أقول: والحديث واضح في الدلالة على مدلوله بمثل حكيم، وقد رويناه في سلسلة الأحاديث التي وردت في وصف القرآن، لأن النبي ﷺ إنما أتم ذلك البناء كلبنة، بوحي من الله سبحانه وهو القرآن، وما تركه من سنته وسيرته «الحمد لله الذي هدينا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله».

وفي الختام أقول: لقد اعتمدنا في بيان أوصاف القرآن، على ما وصفه الله

به، فإنه كتابه الذي أنزله على نبيه ورسوله محمد ﷺ، وهو أعلم به وبحقائقه وأهدافه السامية، ومقاصده القدسية، ثم عززناه بما جاء في وصفه على لسان الرسول الذي أنزل إليه، والذي لا يخفى عليه أدق أسراره، وأخفى حكمه الغامضة.

نعم اعتمدنا فيه على هذا وذلك، واكتفينا بهما عن ذكر أوصاف نظمها فصحاء العرب وبلغاؤهم في سلك النظم أو النثر، ولكن تنازلنا عند رغبة الجيل الناشيء في ذكر جانب من اعترافات الأجانب، ظناً من أكثرية هذا الجيل أن ما قاله الأجانب (أو الغربيون) تستند على علم، وها نحن نذكر جانباً من اعترافات الأجانب المنصفين بشأن القرآن المجيد أيضاً.

لأن المثل العربي يقول: «انظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى من قال».

«اعتراف الأجانب المنصفين»

١ ـ تقول دائرة المعارف البريطانية في مفتتح كلامها عن (القرآن المجيد): «إن كتاب الإسلام المقدس، يقوم عليه دين أكثر من مائتي مليون من المسلمين، ويعتبرونه كلمة الله المباشرة، واستعماله في العبادة والمدارس دعا لزيادة انتشاره إلى أبعد حدود الانتشار، حتى إن القرآن ليتفوق من هذه الجهة على الإنجيل تفوقاً واضحاً، فهو بحق أحظى الكتب بالتداول في الدنيا بأسرها».

وتقول: «وهذا وحده يكفي لتتجه إليه عناية واسعة عميقة، وليبحث عن وجوه ملاءمته لذوق المسيحيين واتفاقه مع دينهم وفلسفتهم».

وتقول: «وهو ـ القرآن ـ إلى جانب هذا من أكبر العوامل التي مكنت النبي محمداً من أن يدعو لدينه، وأن ينجح في دعايته، إلى درجة مكنته من أن يكون أكثر الأنبياء نجاحاً».

وفي الختام تقول: «لقد تناول القرآن أفاضل علماء الغرب بالبحث والدرس، حتى أن (فلوجل) الألماني عمل قاموساً نستطيع به أن نعرف مكان كل كلمة في القرآن سورة وآية حتى الحروف».

وإني أقول: هذا اعتراف لا بأس به، حيث أنه ينطبق على حقيقة ما للقرآن من وصف إجمالي.

وأما قولها: (يقوم عليه أكثر من مائتي مليون من المسلمين) تخمين، أو اتباع لما هو المشهور في أوروبا، وإنما الصحيح الآن ما يزيد على سبعمائة مليون، وأما

قولها: (لتتجه إليه عناية واسعة عميقة، وليبحث عن وجوه ملاءمته لذوق المسيحيين، واتفاقه مع دينهم وفلسفتهم). فإني أقول في التعليق عليه:

«إن العناية اتجهت فعلاً منذ أواخر القرن التاسع عشر (ولا سيما القرن العشرين) وانكشفت حقيقة القرآن على ألسنة وأقلام العلماء في قارتي أوروبا وأمريكا، وقد أنصفوا في التصريح بها والكشف عنها، كما اعترف كثير منهم بملاءمة القرآن لذوق المسيحيين واتفاقه مع أصل دينهم المسيحي. وذلك باستثناء ما لا يتفق مع العقل السليم والمنطق من شتى العقائد الباطلة بشأن المسيح عيسى وأمه العذراء.

لأنها ليست من أصل الدين المسيحي الذي ينص عليه الإنجيل الصحيح، وقد اعترف ببطلان تلك العقائد عدد من علماء الغرب الدينيين والاجتماعيين وصرحوا بأنها ليست من الإنجيل، أو أقوال المسيح.

منهم: القس هـ. د. ا. ماجور رئيس معبد ربيون بأكسفورد بلندن، والدكتور راشدال في خطبته بمؤتمر الأساقفة والقسيسين بأكسفورد سنة ١٩٢١.

ولا سيما جرجس أو بن اليسوعي في مقدمة ترجمة الإنجيل طبع بيروت سنة ١٨٧٣م، ومستر ولز المؤرخ الشهير الإنجليزي في كتابه (الله الملك الخفي)، والعلامة المسيحي دوان في كتابه (خرافات التوراة وما يماثلها في الديانات الأخرى) ومستر كانون بارنس الأسقف في وستمنستر.

والعلامة هورن في المجلد الرابع من تفسيره للكتاب المقدس (الإنجيل)
والعلامة كلارك في المجلد السادس من تفسيره للكتاب المقدس.
والعلامة لاردنر في تفسيره للكتاب المقدس.

والفيلسوف الروسي (تولستوي) في كتابه (الإنجيل الصحيح)، وغيرهم من العظماء الباحثين.

وقد روينا اعترافاتهم وتصريحاتهم الخطيرة مع ذكر وثيقة جديدة اكتشفها دكتور ساموبل ستيرن أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد من بين

مخطوطات استانبول، ونشرتها جريدة «تايمس» في نص إنجليزي نشرته جريدة الجمهورية في القاهرة. تلك الوثيقة التي تدل على بطلان تلك العقائد، وتؤيد حكم القرآن بشأن المسيح عيسى وأمه العذراء[1].

هذا، ولم يقف المنصفون في كشف حقيقة القرآن عند هذا الحد، بل قام عدد منهم في ترغيب الغربيين إلى تعاليم القرآن ومبادئه وتعاليمه، كما تنبأ بعضهم أمثال (برناردشو) المتوفي سنة ١٩٥٠، بأن أوروبا ستعتنق الدين الإسلامي عن قريب.

نعم: لقد انكشفت حقيقة القرآن، وانكشف أنه يلائم ذوق المسيحيين ويتفق مع أصل دينهم الذي ينص عليه الإنجيل الصحيح، كما أنه يتفق مع طبائع البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم، ذلك لأن القرآن إنما أنزل لعالم الإنسانية جميعاً، وأنه كتاب الدين العالمي، الدين الفطري الأبدي.

٢ ـ جاء في تقرير الحكومة البريطانية المرفوع إلى هيئة الأمم المتحدة: «أن تعاليم القرآن التي صانت فلسطين قبل الحرب من شرور الخمر وويلاتها لا تزال تعصمها من التردي إليها بعد الاحتلال».

٣ ـ وقال (فلادستون) رئيس وزراء بريطانيا في عهد الملكة فكتوريا وهو يحمل القرآن المجيد في مجلس العموم البريطاني ويصيح صيحته: «إنه ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض، فلن يقر لنا قرار في بلادهم».

أقول: إن اعتراف (فلادستون) اعتراف بالحقيقة، وإن صيحته هي صيحة يأس حقاً، أجل، لا يقر (ولن يقر) للاستعمار قرار في بلاد المسلمين ما داموا متمسكين بتعاليم القرآن المجيد، فإنه يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ (الآية ٥٩ من سورة النساء).

ويأمر المؤمنين بإطاعة الله وإطاعة رسوله، وإطاعة أولى الأمر (يعني الحاكم

---

(١) إرجع إلى فصل «القول الحق، بشأن عيسى عليه السلام».

ومن حوله من رجال الحكومة) وفي نفس الوقت يحصر إطاعة المؤمنين على أولى الأمر من نفس المؤمنين.

وبهذا يحرم عليهم إطاعة الأجنبي، وإنما ذلك بكلمة «منكم» التي تعتبر في الأصول القيد المخرج، ومن نصوص الأصول قولهم «التنصيص في الرواية نفي لما عداها».

وهناك آيات أخرى نزلت في نهي المؤمنين عن إطاعة الأجنبي، وذلك حفظاً لكرامة مجتمعهم الإسلامي وحرصاً على حريتهم واستقلال بلادهم.

منها: قوله تعالى ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم الناو﴾ (الآية ١١٣ من سورة هود).

ومنها قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (الآية ١٣٩ من سورة آل عمران).

ومنها ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾ (الآية ١٤٩ من سورة آل عمران).

نعم: هذه هي نصوص القرآن وتعاليمه القدسية ضد الاستعمار فلا يقر (ولن يقر) للاستعمار قرار في البلاد الإسلامية، ما دام المسلمون (عرباً وعجماً) متمسكين بنصوص القرآن وتعاليمه، أما نجاح الاستعمار أو دوره في بعض البلاد الإسلامية، فإنه كان بسبب ابتعاد حكامها وزعمائها عن تعاليم القرآن، مع الأسف، وخضوعهم للمستعمرين في سبيل الحفظ على عرش الملك، أو كرسي الرئاسة في ظل الاستعمار.

٤ ـ وقال جوستاف لوبون:

«إن القرآن وما اشتق منه (يريد الأحكام والتعاليم التي استخرجها المجتهدون من نصوص ورموز القرآن) هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الأيام لا يعوقه عائق».

٥ ـ وقال (جوته) الفيلسوف الألماني المعروف:

«إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحياة الفكرية، لقوم معتزين بتقاليدهم، متمسكين بعاداتهم القديمة».

٦ ـ وقال كارليل الفيلسوف الإنجليزي المعروف:

«إن علوية القرآن في حقيقته العملية، فإنه حافل بالعدل والإخلاص والدعوة التي بلغها محمد بالقرآن حق وحقيقة».

٧ ـ وقال ألكسي لوازون الفيلسوف الفرنسي:

«خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة، وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام كامل بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية».

أقول: لأن تعاليم القرآن تتفق مع الطبيعة البشرية، التي تتطلب مثل تعاليمه، وتنجذب إليها، إذا خليت هي ونفسها.

٨ ـ ورد في مجلة (اليقين) البغدادية صفحة ٢٤١ ج/٣ ما نصه: «حينما اجتمع الفرنسيون لإعلان حقوق الإنسان سنة ١٧٨٩م صرح أحد حكمائهم من الحاضرين قائلاً:

«السلام عليك يا أيها النبي العربي العظيم (يريد محمداً ﷺ) فقد تفضلت على العالم بقواعد الحرية والمساواة حتى لم تترك زيادة لمستزيد».

أقول: إنه صريح وجريء وموقف مشرف للاعتراف بما هو الحق وإعلانه أمام أهل الحل والعقد. إنه يريد بالقواعد تعاليم القرآن، وبهذا فقد صدق الحكيم الفرنسي حديث رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، حيث قال:

«تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله».

٩ ـ وقال تشامبر في دائرة معارفه ما معناه:

«تلك الآداب العالية لا توجد في سورة واحدة أو اثنتين أو ثلاث من القرآن فحسب، وإنما هي مثل الخيوط الذهبية قد نسجت في المنسج المحمدي الديني

العظيم، فالظلم والكذب، والكبر وحب الانتقام والغيبة والسخرية، والشح، والتبذير، والفسق، وسوء الظن، وعدم الثقة، كلها مذمومة جداً، ومعتبرة موبقات وفسقاً عن أمر الله، في حين أن فعل الخير، والجود والعفة، والاحتمال والصبر، وكظم الغيظ والتقشف، والإخلاص والاستقامة وحب السلام والحق، وفوق الجميع الثقة بالله والإذعان لإرادته، قد اعتبرت في القرآن أركان التقوى».

أقول قوله «قد نسجت في المنسج المحمدي الديني العظيم» إنما هو تعبير أدبي من تشامبر، لأنه يعترف أن القرآن ليس من كلام النبي محمد ﷺ، وإنما هو منزل إليه من عند الله عز وجل، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

١٠ ـ وقال دفنبورث في كتابه (محمد والقرآن):

«من بين المناقب التي يمتاز بها القرآن بحق، اثنتان في غاية الوضوح.

الأولى: نعمة الروعة والاحترام التي تلاحظ فيه إذا تكلم عن الألوهية، التي لا يكاد ينسب (القرآن) إليه (إلى الله) شيئاً من نقائص البشرية وميولها.

الثانية: تنزه القرآن التام عن جميع الخبائث المنافية للآداب، وعن الأفكار المستنكرة في عباراته ونقلياته، وعن غير ذلك من المخجلات التي هي عار وشنار، وهي كثيرة الوقوع في كتاب اليهود المقدس».

وفي الختام قال دفنبورث:

«حقاً أن القرآن لمنزه عن هذه العيوب حتى إنك لا تجد فيه ما يستحق أدنى لوم، ويمكن أن يقرأ من أوله إلى آخره دون أن يوجد فيه شيء يحمر له وجه الحشمة والأدب».

أقول: انتهى هنا ما رويناه من اعتراف دفنبورث نقلاً عن كتابه «محمد والقرآن» وهو يستحق التحسين والتقدير، فقد عبر فيه عما هو الحق، ونريد أن

نعلق على بعض كلماته ونقول: إن كتاب اليهود المقدس هو التوراة، وهي كتاب أنزله الله سبحانه إلى رسوله وكليمه موسى عليه السلام، ولهذا فإن التوراة في أصل ذاتها ومحتوياتها منزهة عن تلك العيوب التي يشير إليها دفنبورث، وإذا كانت فيها، فإنما هي من تحريفات اليهود الذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه، وذلك لأغراضهم المذهبية والنفسية.

١١ ـ وقال جوستاف لوبون أيضاً:

«القرآن كتاب الدين الإسلامي، قانون ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ قرون كثيرة في العالم الإسلامي، والمسلمون إخوة، لأنهم يعبدون إلهاً واحداً وشريعتهم واحدة، يبغضون ما يبغضون ويحبون ما يحبون، ويجمع الحج جماعات المسلمين من كل صقع ولغة، في مكة كل سنة».

أقول: ليست أحكام القرآن نافذة منذ قرون كثيرة في العالم الإسلامي فحسب، بل أنها أفادت المجتمعات غير الإسلامية أيضاً إفادة كثيرة، وهذه أوروبا استفادت في وضع قوانينها الوضعية في شئونها المختلفة من أحكام القرآن (تعاليم الإسلام الحكيمة) كثيرة، يشهد له التاريخ ويثبته الأمر الواقعي، وقد اعترف به علماء أوروبا المنصفون فيما اعترفوا به، كما سنرويه في موضعه.

١٢ ـ وقال «دفنبورث أيضاً في كتابه» (محمد والقرآن).

«إن آداب القرآن قد هوجمت بظلم وتعسف، لم يكن أقل من التحامل والجور الذي هوجمت به عقائده.

لقد شدد القرآن النكير على الفسق والاستهتار بالذات بجميع أنواعه، وعلى الربا، والشح، والكبر، والغيبة والنميمة، والرياء والتلهف على حطام الدنيا.

وبعكس ذلك قد أمر القرآن بالصدقة، والحنو على الأولاد، والشكر لله، والوفاء بالعهد، وخصوصاً في أمر اليتامى.

وبغير محاباة ولا استثناء أمر القرآن بالعفة والصون حتى في الألفاظ، كما أمر القرآن بعتق الرقاب، والإنابة إلى الله، والصبر، وفعل الخير، وغفر الذنوب

ودرأ السيئة بالحسنة، والسير في طريق الفضيلة، لا رياء للناس وطلباً لمرضاتهم، بل لنيل القبول عند الله».

١٣ ـ وقال مستر جريجوري[1]:

«لقد نظرت كثيراً فيما وجهه المسيحيون من الاعتراضات على القرآن فلم أجدها تختلف في شيء عما وجه إلى الإنجيل، وما دفع به المسيحيون عن أنفسهم يؤيد القرآن تأييداً تاماً».

وفي الختام قال جريجوري:
«وان حال محمد رسول الإسلام وسيرته، لتدل على أنه كان بعيداً كل البعد عن تلفيق المعجزات».

١٤ ـ وقال ألفار (Alvar) المسيحي:

«إن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى أن المسيحيين لم يسعهم الا قراءته والإعجاب به، ولما كان أشهر رجال الدين المسيحيين قد تأثروا عميقاً من جراء اتصالهم بالمسلمين، جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام في مسيحيي أوربا كان عظيماً».

ثم قال: وليس أدل على ذلك هذا القول من التفكير في عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ١٩٣٦ للبحث في أحسن الوسائل التي تحول دون أن تفسد هذه العلاقة، من صفاء الدين المسيحي ونقائه».

أقول: نعم، قرأوا وأعجبوا به، مع أنهم لم يقرأوا إلا ترجمة القرآن، فلم يطلعوا على روحه ومعناه الكامل ورموزه الدقيقة، وقد تأثر أشهر رجال الدين المسيحيين أيضاً باتصالهم بالمسلمين، واطلاعهم على تعاليم القرآن إلى حد.

ذلك لأن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

---

(١) هو من الكتاب الغربيين المنصفين، وقد ثار ضد المسيحيين في تحاملهم على الإسلام وعلى رسوله وكتابه، وأثر فيهم تأثيراً يذكر في التاريخ.

تنزيل من حكيم حميد، وأن أحكام القرآن وتعاليمه تتفق مع العقل السليم والتفكير الصحيح، أو قل مع الضمير الإنساني، وتتجاوب مع فطرة البشر، الأمر الذي لا يحول دون تأثيره شيء، أو عقد مجمع أو حيل أخرى.

ومما يذكر هنا أن هذا الكاتب مسيحي متعصب معروف ضد الإسلام، ولكن تعصبه، وكلامه بلا تحفظ أدى به إلى التصريح بما تم لمدح الإسلام، فقد أنطقه الله الذي أنطق كل شيء، في تأييد ما هو الحق.

١٥ ـ وجاء في دائرة معارف (بوبيلز) القسم السابع صفحة ٢٢٦:

«إن لغة القرآن تعتبر المثل الأعلى للبلاغة، ولها أسلوب ساحر شعري بديع الجمال، إلى حد أنه قد بقي طول الدهر، ولم يستطع أحد أن يأتي بمثله.

ثم قال: «أما قواعده الأدبية (الأخلاقية) فهي واضحة عالية، فأي رجل عمل بها فإنه يحيى حياة طيبة مملوءة بالتقوى».

أقول قوله: «إن القرآن قد بقي طول الدهر ولم يستطع أحد أن يأتي بمثله» قول بالحقيقة، أجل: لم يستطع أحد طوال أربعة عشر قرناً أن يأتي بمثل القرآن في بلاغته وأسلوبه، كذلك لن يستطيع أحد أبداً فيما يأتي من القرون.

وكيف؟ وقد عجز بلغاء العرب الأولون عن الإتيان بمثله، ولو بأقصر سورة منه، مع أن بلاغتهم كانت في ذروتها مما يمكن أن يكون تحت قدرة البشر، ولهذا قال الله سبحانه:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الآية ٨٨ من سورة الإسراء).

١٦ ـ قال بن ستانلي في كتابه (الكنيسة الشرقية) ص ٢٧٩:

«في دائرة محدودة قد عملت شريعة القرآن بلا ريب، تأثيراً أعمق من الذي عملته النصرانية، وشريعة التوراة».

١٧ ـ قال إرفنج في كتابه (محمد) ص ٢١٨:

«القرآن يشتمل على قواعد كفيلة بالطهارة والرقي والإحسان».

«١٨ ـ وقال القسيس (روبرتسن):

«إن القرآن لم يبق ولم يذر شيئاً في إنكاره للحسد والنفاق والحقد، والكبر والتفاخر، والحكم القاسي وما أشبه ذلك، ومن أوضح أمور القرآن أنه يحث على فضيلة الصبر، والشكر والإخلاص، والخوف من الله سبحانه».

١٩ ـ وقال الدكتور هنري إستب[1]:

«إن لغة القرآن وأسلوبه في درجة معدومة النظير، حتى إن محمداً (ﷺ) اتخذه أكبر شاهد على صدق رسالته، لأنه خارج عن طوق البشر، وتحدى العرب بأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات، فعجزوا، والمسلمون يعتبرون كل آية من آيات القرآن معجزة، ويقولون إذا كانت المعجزات براهين على صدق الأنبياء، كل منها معجزة قائمة بنفسها شاهدة لمحمد (ﷺ) بالنبوة والرسالة».

ثم قال: «ولمحمد فوق ذلك معجزات أخرى تجل عن الحصر، غير أنها في الاقناع دون القرآن الكريم. لأنها لم تقع إلا مرة واحدة، ولم يشهدها إلا قليل من السلف تقبلها الخلف عنهم تعويلا على نزاهتهم ودرجات عقولهم.

من أجل ذلك كان حقاً ما يقال من أن الله سبحانه وتعالى ميز محمداً فأرسله للناس كافة بمعجزة خالدة. لتكون حجة قائمة في جميع العصور تتداوله العصور، ولم يبق من معجزات النبي محمد إلا تلك المعجزة التي تحدى بها العرب أجمعين وقد كانوا أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة، وفيهم الشعراء المفلقون، ودعاهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، حتى وضح صدق نبوة محمد ورسالته عند أشد الناس كفراً، وكان خليقاً أن يتحدى الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، إذ يقول: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً».

---

(١) هو طبيب معروف عاش في القرن السابع عشر الميلادي.

وقال هنري في ختام اعترافه:

«لا جرم أنه لا يليق بأهل الفطنة والذكاء والبيان أن يماروا في طلاوة القرآن، فهو مقياس للغة العرب وبلاغتهم، وليس بمنصف من ينسب إليه التنافر والاختلاط والأخطاء في إيراد الحوادث التاريخية».

أقول: إن اعتراف الدكتور هنري (ولا سيما ختامه) صحيح يستحق التقدير، وأني أضيف عليه قائلاً: «إن سائر معجزات محمد ﷺ أيضاً وصلت من السلف إلى الخلف عن طريق السند الصحيح المتصل بكل نزاهة وتقوى في الرواية (كما أشار إليه هنري) وقد أقرها التاريخ فيما أقره من معجزات سائر الأنبياء والرسل، وإن معجزات محمد ﷺ لها دلالة قائمة باقية على صدق نبوته ورسالته (بعد دلالة معجزة القرآن) كبقاء دلالة معجزة العصا وغيرها على صدق نبوة موسى، وبقاء دلالة خلق الطير وإبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله سبحانه، على صدق نبوة عيسى عليه السلام».

٢٠ ـ وقال أميل دير مانجم في كتاب (حياة محمد):

«إن كل نبي يجب أن يأتي ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة».

والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة، فإن جماله الأدبي الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزاً لم يحل، وهما يضعان من يتلوه، ولو كان أقل الناس تقوى في حالة خاصة من الحماسة.

ثم قال ديرمانجم:

«لقد تحدى محمد الأناس والجن أن يأتوا بمثل القرآن، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل، ولم يكن الأمر في القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية، فإن محمداً كان يحتقر الشعراء، ودفع عن نفسه أن يكون واحداً منهم، ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر، وهو الفرق بين وحي الإله وإلهام الشياطين».

أقول: إن اعتراف أميل ديرمانجم اعتراف لا بأس به، ولكن أرى من

واجبي بعض الإيضاح والتعديل حول بعض كلماته.

أولاً: يقول ديرمانجم: «والقرآن معجزة محمد الوحيدة».

وأني أقول: القرآن معجزة محمد رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام على صدق رسالته ونبوته، ولكنه ليس معجزة وحيدة، فإن هناك معجزات ظهرت منه أو بين يديه تدل على صدق محمد ﷺ، كما في كتب السيرة النبوية.

ثانياً: ويقول: «فإن جماله الأدبي الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزاً لم يحل» وأنا أقول: وهذا ليس بصحيح بعدما ثبت أن القرآن وحي منزل من عند الله، كما يعترف به نفس ديرمانجم وذلك بجماله الأدبي الفائق وقوته الروحانية، الأمر الذي أعجز الفصحاء والبلغاء عن الإتيان بمثله حتى بأقصر سورة، عند التحدي به.

ثالثاً: ويقول: «فإن محمداً كان يحتقر الشعراء».

وأنا أقول: وهذا أيضاً (إذا لم يكن من الخطأ في المطبعة) غير صحيح، فإن محمداً ﷺ لم يكن شاعراً، وذلك لحكمة دقيقة، تتم لمصلحة رسالته بكون القرآن من عند الله لا من عنده.

ولكنه لم يكن يحتقر الشعراء الصادقين، بل كان يتمثل بقول بعضهم، وقد ثبت في التاريخ أن محمداً ﷺ كان يكرم أولئك الشعراء، منهم كعب بن زهير، فقد أكرمه حينما عرض قصيدته المعروفة (بانت سعاد) عليه في جماعة من الصحابة، وألبس عليه بردته الشريفة، وكان كعب يهجو المسلمين قبل إسلامه، واستمر على ذلك إلى حين فتح مكة، فأمر رسول الله ﷺ بإهدار دمه، حتى حضر ومعه قصيدته يطلب العفو حيث يقول فيها:

أنبـأت أن رسول الله أوعـدني والعفو عند رسول الله مأمـول

هذا... وإذا كان الخطأ من أخطاء المطبعة وكان الصحيح «يحتقر الشعر» فلا بأس به، فإن له محملا صحيحاً من جهة براءة محمد ﷺ من قرض الشعر.

٢١ ـ وقال جوهان ولفانج جوته الذي يعد كبير أدباء الألمان، وقد عاش في القرن الثامن عشر الميلادي، وقد اعتكف على تلاوة القرآن المجيد مع قراءة ترجمة من إنتاج المستشرق (مرجرلين) وذلك سنة ١٧٧٢م:

«إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة، وهو لا يرى في هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون، لأن محمداً لم يرسل برسالة شاعر للتفنن في القول والتنويع في ضروب الكلام وعرض الصور المروقة من الأخيلة، والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب.

بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف، وإنما محمد نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها».

٢٢ ـ وجاء في دائرة المعارف البريطانية أيضاً (١٦ ـ ٥٩٩) ما يلي:

«إن محتويات أقسام القرآن المختلفة، متنوعة جداً، فكثير من المواضيع يشتمل على الإلهيات والآداب، ويذكرنا بالعظمة والإحسان وتقوى الله، بواسطة الطبيعة والتاريخ، وبما أنزل على الأنبياء، ولا سيما بما أنزل على محمد، ويعظم الله بأنه واحد، وعلى كل شيء قدير، وينكر الوثنية وتأليه المخلوق (كعبادة المسيح على أنه ابن الله) إنكاراً شديداً.

٢٣ ـ وقال سروموير:

«القرآن مشحون بالحجج المأخوذة من الطبيعة، ومن الحكمة الربانية، المبرهنة على وجود الله، وأنه هو الحاكم الأعلى، ويحتم وجوب الحكم إليه، ووجوب طاعته وشكره على النوع الإنساني، والجزاء في الدار الآخرة، على الخير والشر، ويحتم وجوب اتباع الفضائل وتجنب الرذائل، وتأدية الواجب ويحتم كون سعادة الخلق في تقوى الله وعبادته، وهذه الأمور قد ذكرت في القرآن بلغة هي آية الجمال، مزينة بالشعر الحقيقي في مواضع كثيرة.

إلى أن قال: وكذلك أثبت القرآن البعث بحجج قوية معقولة، واستدل عليه

بدلائل قوية ولا سيما قياس البعث بأراضي الجهات الجنوبية التي تكون يابسة ميتة زماناً، ثم تحيى بغتة وتهتز وتربو حين ينزل عليها المطر الغزير من السماء، فتنبت من كل زوج بهيج». أقول: قوله «مزينة بالشعر الحقيقي في مواضع متعددة» يريد به الآيات الموزونة المرتبة على قافية حرف واحد مثل النون أو الميم أو الهاء وأمثالها، وإلا فإن القرآن ليس بشعر على ما هو المعروف به والذي لا يسوغ إنكاره.

والله سبحانه يقول في وصفه: «وما هو بقول شاعر».

٢٤ ـ وقال نولديكي:

«ولئن خاطب القرآن بقوة وإقناع، قلوب سامعيه، ولم يزل يتسلط على العناصر البعيدة منه، المتعادية المتضادة، ويربطها ويجعلها جسماً واحداً، وينفخ فيها روح الحياة التي كانت ولا تزال مسئولية على الفكر العربي، فذلك لأن بلاغته بالغة أوج الكمال مع السذاجة، وبذلك خلق أمة متمدنة من قبائل متوحشة، وألحم بلحمة جديدة مدى التاريخ».

أقول: إن تعريف القرآن بهذه البلاغة صحيح، ولكن البلاغة وحدها لم تترتب لها هذه النتائج، وإنما بلاغة القرآن جعلت العرب الأولين يعترفون بأنه ليس من كلام البشر، بل هو منزل من الله سبحانه، وقد كانت أحكام القرآن الحكيمة وتعاليمها السليمة التي تتمشى مع العقل الإنساني، وتنطبق على مقتضى الفطرة البشرية، هي التي قرعت قلوب السامعين، وأقنعتهم، فجعلت منهم أمة مسلمة مؤمنة (بعد أن كانوا قبائل متوحشة) يوحدون الله، ويتبعون نبي الله، ويعيشون عيشة المتمدنين، ويحيون حياة سعيدة في الدنيا والآخرة، فقد وصف الله كتابه فقال: ﴿إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم﴾ الآية.

٢٥ ـ وقال الدكتور موريس الفرنسي:

«إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية الأزلية لبني البشر، وإنه كتاب لا ريب فيه».

أقول: يشير بقوله «لبني البشر» إلى أن القرآن دستور سماوي لعالم البشر عامة، من غير اختصاص لقوم دون قوم، أو جنس دون جنس.

٢٦ ـ وقال كارليل:

«والقرآن خارج من فؤاد محمد ومن عند ربه، فهو جدير أن يصل إلى قلوب سامعيه وقارئيه».

٢٧ ـ وقال هنري دي كاستري:

«إن القرآن يستولي على الأفكار، ويأخذ بمجامع القلوب، ولقد نزل على محمد (ﷺ) دليلا على صدق رسالته».

أقول: . . . وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم، في أمور الدين وشئون الدنيا، ذلك لأن القرآن دستور سماوي خالد للعالم البشري كله.

٢٨ ـ وقال واشنطن إيروينج:

«إن القرآن يحوي أسمى المباديء وأكثرها فائدة وإخلاصاً».

٢٩ ـ وقال جوته الفيلسوف الألماني المعروف:

«إن تعاليم القرآن عملية، ومطابقة للحاجات الفكرية».

٣٠ ـ وقال المستشرق ليبون:

«حسب هذا الكتاب جلالة ومجداً، إن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف، ولو بعض الشيء، من أسلوبه الذي لا يزال غضاً كأن عهده بالوجود أمس، ولم يكن هذا النبي الجليل داعياً بالقرآن إلى الآخرة وحدها، بل أمر أتباعه أن يأخذوا نصيبهم من هذه الحياة».

أقول: يشير إلى الآية: «وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا» من القرآن المجيد.

٣١ ـ قال البستاني المسيحي في كتابه «العرب في الجاهلية والإسلام».

«القرآن مثل أعلى للبلاغة، سواء في إيجازه، أو في قوة تعبيره، أو في ائتلاف ألفاظه، وانسجام كلماته، ويمتاز القرآن برقته وسهولته، وبعده من الغريب المستهجن، ولمقاطع القرآن رنة لذيذة ظنها الأعراب في أول أمرهم شعراً حتى نزلت الآية:

«وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»، وقد يوازن القرآن ويسجع، ولكنه لا يتكلف السجع ولا الموازنة، وإنشاء القرآن يرافق أغراضه في الشدة واللين، فهو في المواقف العاطفية ـ مواقف الوعد والوعيد ـ قصير الآيات، فيه لفظ لزيادة التهويل أو لزيادة التقرير، كثير السجع قوي الرنة عند المقاطع، وأغلب ما يكون في السور المكية ولا سيما القصار كسورة القارعة، وهو في غير المواقف العاطفية طويل الآيات قليل السجع خفيف الرنة عند المقاطع».

ثم قال: «للقرآن فضل عظيم على اللغة العربية، فهو الذي هذب عبارتها، ووحد لهجاتها، ونشرها شرقاً وغرباً بانتشار الدين الإسلامي وسحر الناس ببيانه فحفظوه، وأثر بهم أسلوبه فرقت ألفاظهم، ولطفت معانيهم، وقد ظهر هذا التأثير في الشعر والنثر معاً، ولا سيما الإنشاء الخطابي» ثم قال:

«ومن فضل القرآن على اللغة أن علم النحو وضع خدمة للقرآن وإشفافاً من اللحن في قراءته، وأن علم المعاني وضع توصلا لمعرفة أسرار القرآن، وأن أشعار العرب في الجاهلية وصدر الإسلام جمعت ليستعان بها على تفسير آياته.

ولولا القرآن لتلاشت اللغة العربية بغارات التتر والأتراك، بعد أن أزيل سلطان بني العباس، ولكن القرآن وقف في وجه الفاتحين يدافع عن لغته الفصحى، فلم يجرأوا أن يتعرضوا له بسوء بعد أن أسلموا، فظلت لغة القرآن الفصحى لغة الدين والدواوين والمراسلات، ولم يؤثر فيها انتشار اللهجات العامية، وطمطمانية الأعاجم، فاللغة العربية في جميع أدوارها كما ترى مدينة بآدابها وحياتها للقرآن». وقال البستاني أيضاً:

«يخاطب القرآن في سوره المكية شعباً غير مؤمن، فيدعوه إلى ترك عبادة الأصنام، وأن يعبد الله وحده، ويؤمن بالكتاب والرسول المنزل إليه، فيظهر له عظمة الخالق، ويحثه على التأمل في عجائب خلق الإنسان وسائر المخلوقات، كالشمس والقمر والنجوم والرياح والليل والنهار، ويرشده على أن في الآخرة لثواباً وأن فيها لعقاباً، ويقص عليه أخبار الأنبياء والمرسلين وأخبار شعوبهم، وكيف كان جزاء المؤمنين منهم، وعقاب الكافرين؟ كما أن القرآن يتناول صناديد قريش فيسفه آراءهم ويرد على الذين يجادلون النبي محمداً أو يستهزئون منه، فيهددهم ويحقر أصنامهم، ويبين لهم أنها لا تجدي من يعبدونها نفعاً، ولا تضر من يكفرون بها، ويفيض القرآن في وصف الجنة، وما أعد فيها للذين آمنوا من نعيم خالد، ويفيض في وصف النار، وما أعد فيها للذين كفروا من عذاب خالد، فترى في وصف الجنة أرغب تأميل، وترى في وصف النار أرهب تهويل.

ويخاطب القرآن في سوره المدنية جماعة مسلمة تؤمن بالله ورسوله وبكتابه المنزل، ولكنها تجهل شرائعها، وطرق عبادتها، ويعلمها ما لم تعلم، ويفرض عليها الصوم والزكاة والحج، ويبين لها ما حرم عليها، وأحل لها، ويسن نظام الزواج والطلاق والميراث وحجاب المرأة والجهاد في سبيل الله ورسوله».

٣٢ ـ وقال القس ج، كمرون د. د.:

«لقد أوجد القرآن للشرقيين أكمل صورة للكلام، وأعلى وحي شعري ناله الإنسان، لكن الأوربيين أيضاً إذا قرأوه لا يحرمون من نيل فوائد جديرة بالإعجاب، ومقوية لأدب لغاتهم، بل الأدب العالي الذي يقتبسونه منه».

٣٣ ـ وقال البليغ الكبير إبراهيم اليازجي المسيحي:

«ما أتقنت الكتابة إلا بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم، فهو كنز الذي لا ينفد، وذخيرتها للمتأدب، وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة، إن لم يحيى لياليه سهراً في مطالعة القرآن والتبحر في عالي أساليبه».

٣٤ ـ وقال ا. ه. يامر:

«لا ينبغي أن ينسى أن تحدي القرآن بمعجزة البلاغة كان ولا يزال عند العرب مما لا نزاع فيه».

أقول: وسيعجزون عن الإتيان بمثل سورة من القرآن، كما عجز العرب الأولون، مع أنهم كانوا في أعلى قمة من قمم الفصاحة والبلاغة.

٣٥ ـ وقال جوته الألماني المعروف:

«مهما أكثرنا النظر في القرآن تشمئز منه نفوسنا لأول وهلة، لكنه لا يلبث أن يستميلنا ويدهشنا، وفي النهاية يجبرنا على تعظيمه، إن أسلوب القرآن في مطابقته لمعانيه وأغراضه قوي عظيم رائع، يجذبك شيئاً فشيئاً إلى أن تتحقق علوه، وهكذا سيستمر هذا الكتاب عظيم التأثير في جميع الأعصار».

٣٦ ـ وقال بن جونسون المؤلف الإنجليزي المعروف:

«إن القرآن لصوت نبيّ ساميّ (نسبة إلى سام بن نوح) نافذ إلى صميم الفؤاد، يحمل معنى عالمياً أبدياً، وستحمله جميع الأصوات في الأعصار شاءت أو أبت، وسيسمع صداه فوق القصور العالية».

أقول: إن اعتراف بن جونسون بفضل القرآن يستحق التقدير، نعم: إن صوت القرآن نافذ إلى صميم الفؤاد، لأنه كلام الله الذي أنزله إلى عبده ورسوله محمد ﷺ فأبلغه إلى العالم بصوته، وإن القرآن يحمل معنى عالمياً أبدياً، لأنه كتاب دين عالمي أبدي، وقد صدق بن جونسون في تفاؤله (أو تنبئه كما يقال) بالقرآن المجيد، حيث حمله جميع الأصوات في العصور السابقة طوعاً أو كرهاً، وقد سمع صداه فوق القصور العالية كل طائع أو طاغ من الملوك والجبابرة، والرؤساء والأكاسرة، وها هو القرآن (كتاب الله، دستور العالم البشري) في العصر العشرين أكثر انتشاراً، يسمع صوته في أنحاء العالم وأرجائه، كل من له سمع من بني الإنسان، بيضه وسوده وصفره، عن طريق الأثير والإذاعة، وذلك أكناف الليل وأطراف النهار.

وسيزيد القرآن انتشاراً، ويزداد صوته سمعاً، كلما تقدم العلم، ونضج

العقل البشري والوعي القومي

ذلك لأن القرآن مع ما له من حلاوة وطلاوة تستميل آذاناً صاغية وقلوباً واعية، يحمل أسمى رسالة، فإنه يحمل أمر الله سبحانه إلى عالم البشرية، ويقول: ﴿ن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ (الآية ٥٨ من سورة النساء).

ومن المعلوم أن تأدية الأمانات إلى أهلها، مما يريده الإنسان في حياته، ولا سيما العدل، وهو المساواة بين الناس في الحقوق، وترك الظلم والتجنب عن الميل إلى القوي ضد الضعيف، وإيصال كل ذي حق حقه، بمعنى يعمُّ حقوق الأفراد والمجتمع، كما سبق بيانه في هذا الكتاب[1].

٣٧ ـ وقال جيمس منشبر في مقال له:

«إن القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو بكل التأكيد أيسر الكتب حفظاً وأشدها أثراً في الحياة اليومية لمن يؤمن به، فليس طويلا كالعهد القديم من الإنجيل، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر». وفي الختام قال جيمس:

«ومن مزايا القرآن أن القلوب تخشع عند سماعه وتزداد إيماناً وسمواً».

٣٨ ـ وقال الفيلسوف هنري ديكاستري في وصف فصاحة القرآن:

«من الصعب أن يظن الإنسان أن الفصاحة البشرية تستطيع أن تؤثر ذلك التأثير (يعني تأثير القرآن) وكيف؟ وفصاحة القرآن فصاحة تصدر بغير ضعف أبداً، وتتجدد رفيعة معجزة، يقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء، إذن ففصاحة القرآن إلهية».

٣٩ ـ وقال بن جونسون في تكميل اعترافه الذي رويناه آنفاً وعلقنا عليه:

«وسيسمع صوت القرآن في الصحارى المقفرة والمدن، والممالك

(١) انظر إلى فصل «نبذة من أوصاف القرآن».

(الإمبراطوريات). ولقد أضاء نور القرآن أولا في القلوب المختارة لفتح العالم (يريد أصحاب الرسول ﷺ) ثم جمع نفسه في قوة مجددة كل نور في آسيا واليونان، فاخترق ظلمة أوربا النصرانية، حينما لم تكن في النصرانية إلا ملكة الليل (يريد آلهة قديمة للنور عند الإيطاليين) انتهى.

٤٠ ـ وقال جوستاف لوبون في ص ١٤٥ من كتاب «حضارة العرب»:

«إن القوة لم تكن عاملا في نشر القرآن، لأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم، فإنما ذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى، وقد عامل العرب الفاتحون أهل سورية ومصر وإسبانيا، وكل قصر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم، وحفظ الأمن بينهم». وفي الختام قال جوستاف لوبون:

«والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب وذلك بفضل اتباعهم وتمسكهم بتعاليم القرآن».

٤١ ـ وقال الأستاذ عبد المسيح الأنطاكي بعد أن ذكر آيات القتال من القرآن: «وفي هذه الآيات الكريمة تتجلى روح الإسلام السامية العادلة بأجلى تجليها لدى المنصفين، وأنت ترى من هذه الآيات ما يجدر أن يصدر عن الإله الواحد، العادل المؤدب، القهار الرحيم، وذلك لجمعها بين الدفاع عن النفس، وتأديب المعتدين، وإبطال الفتنة، والانتصار لدين الله».

٤٢ ـ وقال توماس ويتاكر في كتابه «مصادر النصرانية»: «إن القرآن هو الكتاب التاريخي الوحيد، دون سائر كتب الأديان الأخرى».

أقول: يريد توماس بقوله: «إن القرآن هو الكتاب التاريخي الوحيد» الكتاب الذي يستحق تمجيد التاريخ البشري وتقديره، وهو صحيح في التعبير ولكن

قوله: «دون سائر كتب الأديان الأخرى» خارج عن دائرة الأدب حيال الكتب السماوية، فإن سائر كتب الأديان الأخرى، كالزبور، والتوراة، والإنجيل لها إيضاً حقها في تمجيد التاريخ البشري وتقديره، وكلها مقدسة. وأظن أن توماس يشير إلى أفضلية القرآن، وإلى أنه ناسخ الأديان.

٤٣ ـ وقال مسيو هوداس:

«إن القرآن يحيط بجميع العلوم والدين والشريعة ومكارم الأخلاق التي يمكن للعقل البشري إدراكها».

أقول: إن اعتراف هوداس اعتراف إجمالي في ألفاظه، ولكنه اعتراف شامل في معانيه، لما في القرآن المجيد من الأوصاف القدسية، وأضيف إليه قائلا: ولهذا فإن القرآن استحق أن يكون كتاباً لدين البشرية الفطري الأبدي، ودستوراً للحياة الإنسانية، في شئون الدين والدنيا، فقد قال الله عز وجل في وصف القرآن: ﴿ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين﴾[1]. (الآية ٨٩ من سورة النحل).

٤٤ ـ وقال مستر ادوارد الامريكي:

«هكذا أنزل القرآن الكريم، كتاب الله المقدس للناس في زمن كانوا فيه بحاجة شديدة إليه، فأوقع برهان فرقان الحق، والرعب والهلع في أفئدة الرجال، وأخضعهم بحقائقه التي لا تدحض، وبلاغته وفصاحته، وجلاله ونقائه وسمو آرائه، حتى صمم العرب أن يكفروا عن سيئاتهم الماضية، فكانت النتيجة أن اهتدى كل سكان شبه الجزيرة العربية إلى الإسلام».

ثم قال مستر ادوارد:

«وهكذا تغيرت بلاد العرب فجائياً عجيباً خلال مدة وجيزة. إذ بدلا من الكفر والإلحاد وإنكار الوحي والتعصب الديني، أخذ الناس يعبدون الله الواحد العظيم، الذي أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق. وبدلا من الأتوقراطية ونظام

---

(١) انظر إلى فصل «نبذة من أوصاف القرآن».

الإقطاع، أنشئت الديمقراطية الحقيقية والأخوة التي لم تر الدنيا مثلها قط. وبدلا من معاملة الأطفال والنساء المعاملة الفظيعة القاسية، أخذ الرجال يجلونهم ويحبونهم. وبدلا من الهمجية والتوحش، أصبح المسلمون يحملون نور العلم والمعارف. وبدلا من انشقاق القبائل وانفصام عرى المودة بينهم، اتحدوا وأصبحوا أمة واحدة وكتلة عظيمة لا تتجزأ، وكان لها في الواقع قوة وسيادة وسيطرة غير محدودة. وبدلا من ذلك المجتمع الفاسد المهين، وجد مجتمع آخر ذو مواهب عقلية، وأخلاق سامية، ورابطة متينة، لم يلبث أن أصبح فيما بعد أعجوبة للعالم أجمع. ولا شك في أن التحول العجيب من أحط درجات الجهل والرذيلة، إلى أعلى درجات الحضارة والمدنية، لم يكن إلا نتيجة الوصايا والفرائض والأوامر التي احتوى عليها القرآن المجيد كتاب الله المقدس».

٤٥ ـ قال البحاثة الكبير سنكس:

«قال مسيو بارتلمي سنتيلير: إن القرآن قد أبقى أجمل أثر للغة التي أنزل بها، ولم أر ما يشبه ذلك في جميع أدوار التاريخ الديني للعالم الإنساني، وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذي أحدثه هذا الكتاب على العرب، الذين اعتقدوا أن محمداً في معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب، وأنه لا بد أن يكون قد أملاه عليه جبريل من عند الله».

٤٦ ـ قال مستر ادوارد ورمسي المستشرق الأمريكي أيضاً:

«أتى الوحي ـ القرآن ـ من عند الله إلى رسوله ونبيه الكريم محمد، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلية، فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان الرذيلة المظلمة».

٤٧ ـ قال مسيو بيرك في بعض خطاباته في البرلمان الإنجليزي:

«إن تعاليم القرآن أحكم وأعقل وأرحم تشريع عرفه التاريخ».

«أقول»

هذه مقتطفات من بين الاعترافات الكثيرة التي صرح بها الأجانب المنصفون

في حقيقة أوصاف «القرآن المجيد» كتاب الله المقدس، دستور الدين الإسلامي وقانونه السماوي القدسي.

وقد اكتفينا بروايتها للقراء الفضلاء، وأبناء الجيل الناشيء الأعزاء، رجال مستقبل البشرية، والمسئولين فيما بعد عن مصير الإنسانية.

لقد أنزل الله عز وجل كتابه المجيد على نبيه ورسوله، وخاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله ﷺ، لا ليهدي به من كانوا حول رسوله من الناس، أو من كانوا يعيشون في شبه جزيرة العرب من قبائل العرب فحسب، وإنما أنزل إليه كتابه ليهدي به عالم البشرية كافة إلى ما فيه سعادته في حياة الدنيا الفانية، وفوزه في حياة الآخرة الباقية.

فقد قال سبحانه في وصف كتابه: ﴿إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ (الآية ٩ من سورة الاسراء).

أنزل كتابه إلى رسوله ليردع كافة الناس في ربوع الدنيا ـ على اختلاف أجناسهم وعناصرهم وألوانهم وألسنتهم ـ عن الزيغ والضلالة في العقيدة والمبدأ وعن الخروج عن الخطة الصحيحة، والانحراف عن الطريق المستقيم، في سبيل الحياة والانطلاق نحو الغاية المنشودة والحصول على ما يرغب من المطالب والآمال، وقد أشار إلى هذا حيث قال: ﴿من اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ (الآية ١٢٣ من سورة طه).

إن هداية كتاب الله ـ القرآن المجيد ـ وأثره الباهر في إخراج عالم البشرية من الوحشية إلى الإنس، ومن البربرية إلى التمدن المعقول والحضارة الصحيحة، ومن حضيض الجهل إلى ذروة العلوم والمعارف مما لا ينكر ـ ولا يجوز أبداً أن ينكر ـ وكيف؟.

وقد أثبتته الحقائق الواقعة مدى العصور، وأقر به التاريخ البشري في كل دور من أدواره، ومن المعلوم المبرهن أن إنكار ما ثبت بالحقائق الواقعة جهل

وتحكم فارغ، وإن مما اتفق عليه أرباب التحقيق والإنصاف أنه لا يمكن إنكار ما اعترف به التاريخ وسجله في سطوره تسجيلا لما حدث، وكان من الأمور الثابتة.

ومما يذكر هنا: إن نور العلم والمعرفة إنما دخل في قارة أوربا وانتشر في أرجائها تحت تعاليم القرآن، وذلك عن طريق فتح أندلس وأسبانيا، وقد اعترف به المؤرخون الأجانب، حتى إن قارة الغرب إنما استمدت روح نهضتها المعقولة في شئون الحياة وتطورها من النهضة الإسلامية التي تبتنى على تعاليم القرآن المجيد وإرشاده الحكيم وهديه المستقيم.

ولا مرية في ذلك، فإن نفس المؤرخين الغربيين قد صرحوا قائلين: إن علوم القرآن وآدابه هي التي أيقظت أوربا من سباتها العميق ورقدتها المديدة.

وها هو القرآن المجيد كتاب الله الحميد، في عصرنا هذا (عصر العلم والكشف، وعصر نضج العقول) يظهر ظهوراً أبرز من ذي قبل، فقد أثرت تعاليمه القدسية وأحكامه الحكيمة وإرشاداته السليمة في وضع القوانين الوضعية في سائر الملل والنحل في أنحاء العالم، وأحدث (ولو عن طريق غير مباشر) انقلاباً واضحاً وتطوراً ملموساً في جميع نواحي التقنين في الدول الراقية.

وكيف لا؟ وقد تجسمت تعاليم القرآن ـ أو قل قوانينه السماوية ـ (لدى عقول من درسها من فلاسفة الدنيا وحكمائها) بحكمتها البالغة، وفلسفتها الرائعة وتجسمت بما فيها من العطف على الفقراء والمساكين والعجزة والمعوزين، مع التفكير الصحيح والتدبير الناجح المعقول والقرار المفيد، لحياتهم المعيشية في كل دور من أدوارها، وفي كل ظرف من ظروفها، وتجسمت بما لها من الفوائد الصحية في معالجة كثير من الأمراض وإنقاذ الإنسانية وحمايتها عن فتكها، وعلى الأقل في وقاية بني البشر عن إصابتها، ولا سيما الأدواء النفسية.

وتجسمت بما فيها من الديانة الحقة مع السماحة والتيسير، وتقدير ظروف المعذور، وعدم التكليف فوق الطاقة.

وتجسمت بما فيها من الدعوة إلى النهوض بالفرد والمجتمع نحو المثل العليا، والأخلاق الفاضلة، والمساواة والحرية، والوطنية النزيهة، والشجاعة والتضحية في سبيل الوطن ومصيره.

وتجسمت بمكافحتها الفعالة ضد الاستعمار (بجميع ألوانه وأشكاله) ومناهضتها مباديء الشيوعية وغيرها من المباديء الهدامة.

أريد أن أقول: تجسمت تعاليم القرآن وقوانينه السماوية بهذا وذلك أمام الباحثين، فأخذت بمجامع قلوبهم، وأسرت عقولهم، وجذبت ضمائرهم الإنسانية، بجاذبيتها الروحية، حتى اضطرت المنصفين منهم للإنصاف، وأنطقتهم بالاعتراف، ودفعتهم نحو الخضوع لديها، والانجذاب الشديد إليها، وأدت بهم إلى الانحناء والتعظيم للذي أنزلها» ألا وهو الله عز ذكره وجل ثناؤه، خالق السموات وما فيها والأرض ومن عليها، خالق هذا الكون العظيم، خالق عالم الإنسان الذي علمه البيان، وهداه إلى ما ينفعه وما يضره في حياته في هذه الدنيا، وفي مصيره الخالد في الآخرة.

وأقول: وها هو القرآن المجيد في العصر العشرين (عصر القنابل الذرية والهيدروجينية، عصر الصواريخ والأقمار الصناعية، عصر التطلع والاستطلاع، عصر الأسفار الخطيرة نحو القمر الطبيعي وسائر الكواكب) يطبق على الإنسانية الناهضة والبشرية الراهنة، وما وعده الله سبحانه بقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ الآية من آيات وجوده ووحدانيته، ودلائل قدرته وعظمته، في آفاق الدنيا، وفي أنفس أفراد الإنسانية.

ذلك لكي يتبين لهم (ولا سيما للملحدين المنكرين، وضعفاء العقيدة والدين) أن القرآن حق لا يسوغ إنكاره، وأن خالق هذه الآفاق والأنفس ومبدع هذا الكون العجيب المتقن حق، بحيث يجب الإيمان به حق الإيمان.

«ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار؛ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان

أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا وما وعدتنا على رسلك، ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد» آمين.

القسم الثالث

«رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام»

«مع اعترافات الأجانب المنصفين»

وعددها ٦٤

مع التعليقات المهمة من المؤلف

مما ثبت في التاريخ أن رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ كان أعظم شخصية في هذا الكون بين العظماء، وخير نبي بين الأنبياء، وأفضل رسول بين الرسل بلا مراء، صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

وقد بعثه الله عز وجل إلى العالم الإنساني ليخرجه من الظلمات إلى النور، ويهديه إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ملك السموات والأرض، وقد بلغ رسالته بما فيه من عظيم الخصال، وأدى أمانته بما له من جميع الفضل والكمال، حتى أتم ما تستوجبه نبوته الإلهية، وما تقتضيه مهمته القدسية، ثم التحق بالرفيق الأعلى في جوار ربه راضياً مرضياً، ولسنا في صدد تعريف عظمته، وما أوتي به في نبوته، أو اختص له في رسالته، كما أنه ليس من أهداف هذا الكتاب العلمية، تفصيل خصاله السنية، وبيان صفاته العلية، فلو أردنا أن نبين نبذة من حسن صورته، وعلو خلقته، ومنطقه وفصاحته، وكمال عقله وفطنته، وبطولته وشجاعته، وسمو خلقه وإنسانيته، وجميل معاشرته وسياسته، وعفوه عن أعدائه عند مقدرته، وإعراضه عن الدنيا ورغبته، وإنابته إلى ربه سبحانه وخشيته، لطال بها الكتاب، في فصول وأبواب، فقد كتبوا في هذا وذلك، وسلكوا في الإجادة كل مسالك، وتركوا للطالبين مغانم وفيرة، وأعدوا للسالكين مراجع كثيرة، مما فيه بلوغ إلى المرام، وغنى عن إطالة الكلام، جزاهم الله عن المسلمين والإسلام.

مع أن الكتابة عن أوصاف هذا النبي العربي الكريم، والرسول القرشي

العظيم، والإفادة عن أخلاقه العظيمة، ومبادئه الحكيمة، مما أعجز الأقدمين وأعيى المتأخرين. وقد أصاب الشاعر العربي فيما يقول:

لم يبق للمداح فضل بعد ما نطقت بك الآيات من رب السما
كلا ولو جعلوا القوافي أنجما أيروم مخلوق ثناءك بعدما
أثنى على أخلاقك الخلاق

والواقع إن أي فرد من العقلاء المنصفين النبلاء، إذا فكر فيما وصفه الله به من آياته، وأثنى عليه في أسلوب كلماته، وحقق في معانيها تحقيقاً، ودقق في رموزها تدقيقاً، لاكتفى به عما سواه، ووجد فيه ما يهواه، فآمن به إن لم يكن من المؤمنين، أو زاد إيماناً وأصبح من الموقنين. وإليك أيها الإنسان وقد متعك ربك بالعقل والوجدان، عدة من آيات القرآن، وبينات من الهدى والفرقان:

١ ـ ﴿، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وإن لك لأجراً غير ممنون، وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (الآية ١ ـ ٤ من سورة القلم).

٢ ـ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم[1] عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ (الآية ١٢٨ ـ ١٢٩ من سورة التوبة).

٣ ـ ﴿يا أيها النبي، إنا إرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً، ولا تطع الكافرين والمنافقين، ودع أذاهم وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا﴾ (الآية ٤٥ ـ ٤٨ من سورة الأحزاب).

٤ ـ ﴿ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ (الآية ٤٠ من سورة الأحزاب).

٥ ـ ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السموات

---

(١) يعني من جنسكم، لأنه بشر.

والأرض، لا إله إلا هو، يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي، الذين يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون﴾. (الآية ١٥٨ - من سورة الأعراف).

٦ - ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾.

٧ - ﴿قد جاءكم نور، وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (الآية ١٥ - ٦١ من سورة المائدة).

٨ - ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعملون﴾ (الآية ٢٨ من سورة سبأ).

٩ - ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء).

هذا. وبالإشارة إلى الآيتين الأخيرتين قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب من مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» رواه الإمامان البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ورحم الله الإمام البوصيري حيث يقول:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حا ... ل سناً منك دونهم وسناء
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء فوقها علياء

«سيرته في قومه قبل بعثته»

كان محمد بن عبد الله ﷺ قبل بعثته في أحسن سيرة بين قومه. وكان أحسن بني قومه في الخلق، وأصدقهم في الحديث، وأفضلهم في المروءة، وأكرمهم في

الجوار، وأعظمهم في الحلم، وكان معروفاً بين قومه بالأمانة ـ وقد سموه «محمد الأمين» ـ يعتمدون عليه في فصل الخصومة، ومن الدلائل على هذا:

إن قريشاً أرادوا تحديد بناء البيت (الكعبة) ولما أتموا ما أتموه من البناء وهم متفقون، وأرادوا وضع الحجر الأسود موضعه، تنافس أشراف قريش من ذلك، فاختلفوا اختلافاً كاد أن يوقع بينهم حرباً تشب نارها عليهم، وتقضي على اتفاق كلمتهم، ودام هذا الخلاف إلى أربعة أيام، فقال أبو أمية ابن المغيرة المخزومي (وكان أكبر قريش في السن): يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه. فقال قريش: نكل الأمر لأول داخل، وحينما كانوا منتظرين لذلك، دخل الأمين المأمون، فاستبشروا وقالوا: «هذا الأمين رضيناه، هذا محمد» ذلك لأنهم كانوا قد عرفوه بالأمانة والعدالة حينما يتحاكمون إليه في بعض أموزهم حيث كان لا يداري أحداً ولا يماري، فلما علم سبب الاختلاف بسط رداءه وقال: ليأخذ رجل من كل قبيلة بناحية من الرداء، ثم وضع فيه الحجر الأسود، وأمرهم أن يرفعوه إلى ركن الحجر، حتى أخذه بيده ووضعه في موضعه، وبهذا الحكم قضى على خطر الحرب بين قبائل قريش، لأنه أشرك رجالهم جميعاً في رفع الحجر الأسود فلم يبق هناك تنافس ولم يكن لهم بد من الاستسلام لمحمد الأمين ليأخذ الحجر بيده ويضعه في موضعه[1]. وهكذا أراد الله سبحانه أن يرفع شأن عبده محمد ابن عبد الله (الذي سيبعثه نبياً ورسولاً لكافة الناس ورحمة للعالمين عليه الصلاة والسلام) لدى قومه.

وأني أقول: وكان أمر الحجر الأسود وشأنه في تلك القصة إرهاصاً لنبوته، وإعلاماً لرسالته، وليكون حجة عليهم حينما يختلفون بشأنه ويتفرقون من بعد ما جاءتهم البينة.

وقد وقع ذلك بعد أن بعث محمد رسول الله ﷺ حيث اختلفوا فيه، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر وقال أنه ساحر.

---

(١) وكان محمد الأمين عليه الصلاة والسلام في الخامسة والثلاثين من عمره الميمون.

فقام النضر بن الحارث من بني عبد إله الذي كان من ألد أعدائه، ولكن الله عز وجل أنطقه بالحق حيث قال النضر لقريش: «قد كان فيكم محمد غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم إنه ساحر! لا والله ما هو بساحر!».

هذا ـ وكان رسول الله ﷺ قبل بعثته جامعاً للخصال الحميدة والصفات السديدة، مما أعده الله به، لأنه يبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وأسوة حسنة لأمته في مشارق الأرض ومغاربها، حتى إن الله تعالى قد حفظه في صغره من كل أعمال الجاهلية إلى أن جاء شرعه يستنكرها ويردع الناس عنها.

وقد بغضت إليه (ﷺ) الأوثان بغضاً شديداً، حتى لم يحضر لها احتفالا أو عيداً، مما كان قومه يقومون به، فقد أخبر الرسول ﷺ بعد بعثته «لما نشأت بغضب إلى الأوثان وبغض إليّ الشعر، ولم اهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله».

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب[1]، ولقد حرم الخمر على نفسه، وشربها شايع بين قومه كل الشيوع قبل تحريمها.

نعم: هكذا كان رسول الله ﷺ قبل أن يبعث نبياً ورسولاً، يخالف عادات قومه، ويرفض تقاليدهم السيئة، وطقوسهم الباطلة، لا بنزول أمر سماوي، بل بطبيعته، وإرادة من ربه سبحانه الذي أراد أن يربيه بتربيته الإلهية، ويؤدبه تأديباً، ويعده لمقام النبوة والرسالة إلى العالم البشري، كما أخبره عن نفسه بعد البعثة، وقال «أدبني ربي فأحسن تأديبي». ذلك ليكون على استعداد لتلقي الوحي وتحمل الرسالة وتأدية الأمانة.

وأني أقول: ويظهر من هذا أنه ﷺ كان معصوماً من الأدناس، ومتخلقاً بمكارم الأخلاق، قبل البعثة وبعدها، أما قبل البعثة ليكون أهلاً للأمر العظيم الذي سيحمله الله على عهدته، وأما بعدها ليكون قدوة لأمته. شأن سائر

---

(١) وهي حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد.

الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا كان عدد من قومه يحسنون الظن به ويستبشرون بما سيظهر له في قريب من الزمن، ومنهم عمه أبو طالب. فقد قال في ضمن كلمته التي ألقاها يوم إتمام خطوبة السيدة خديجة رضي الله عنها له ﷺ: «. . . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قِلّاً، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مستردة، (ثم قال): وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل».

لم يرث ﷺ عن والده شيئاً، فقد ولد يتيماً عائلاً، ولما استرضع على حليمة السعدية، وبلغ من الطفولة ما يمكنه للعمل، أخذ يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع، ولما عاد من بني سعد إلى مكة كان يرعى الغنم لأهلها على قراريط. هذا، ولا يخفى أن حياة الأنبياء على الفاقة والفقر قبل بعثتهم من حكمة الله في إرادته، لأن الفقر يعودهم على القناعة بالقليل والعيش على الكفاف، ويؤنسهم بالفقراء والمساكين، ويربطهم بالعجزة والمعوزين بربطة الحياة، الأمر الذي يكون له أثر قوي، بعد بعثتهم في المجتمع، وإصلاح شئون الأفراد في الناحية الاجتماعية، مع ما فيه من تعويدهم على التجرد من الدنيا والزهد فيها، وحياتها الفانية، والرغبة إلى الآخرة وحياتها الباقية.

أما رعي الغنم في سيرة الأنبياء قبل بعثتهم، فإنه أيضاً عمل فيه حكمته وأثره الذي لا يخفى، فإن رعي الغنم (وهي أضعف البهائم في خلقتها وخصالها) يستوجب الرعاية واللطف والعدالة والسهر على تربيتها والاهتمام في تنميتها، والاعتناء في حراستها، واليقظة في شئونها ليلا ونهاراً، مما يعودهم ويدربهم على الرعي وما يستوجبه عليهم من حقوقه، فحينما يبعثون إلى عالم البشرية بالنبوة والرسالة فإنهم ينتقلون من رعي الحيوان إلى مقام رعي الإنسان، فيحسنون رعيه ورعايته في كل ما يتعلق بشئون حياته الدينية والدنيوية.

الأمر الذي تقتضيه نبوتهم، وتستوجبه رسالتهم، من عند الله في عالم الكون.

ولقد عمل رسول الله ﷺ بالتجارة بمال السيدة خديجة قبل زواجه بها وبعده، وبهذا اختلط بالناس من التجار وغيرهم، واطلع على ما يجري بينهم في سبيل التجارة من الميل إلى الحلال والحرام، ومن القناعة أو الحرص، ومن الأمانة أو الخيانة في التعامل المتبادل، والكسب المشروع وغير المشروع، وأمثالها مما تدعو إليه طبائع التجار، من الصالحين وغير الصالحين.

وهذا أيضاً مما لا يخلو عن الأثر بعد بعثته ﷺ في الشئون الاقتصادية. وتلك حكمة بالغة تتبعها حكمة بيناها هنا بكل اختصار، ولقد أراد الله بها أن يعد عبده محمداً للنهوض بأعباء الرسالة التي تستند إليه فيما بعد ليكون مستعداً لتحملها وتأديتها كما يجب لخير عالم البشرية.

«تبشير التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم»

لقد أنزل الله سبحانه التوراة على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام، وفيها الشرائع والأحكام التي تستلزمها حياة بني إسرائيل في ذلك الزمن.

وجاء فيها ذكر كثير من الأنبياء الذين بعثهم إلى أقوامهم، أو سيبعثهم فيما بعد.

فمما جاء فيها ما بشر الله ببعثه نبينا محمد ﷺ وهو يخاطب نبيه موسى عليه السلام ويقول: «وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به، فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجتريء علي بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره به، أو باسم آلهة أخرى فليقتل، وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك: إن ما قاله النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه، ولذلك لا تخشاه»[1].

ويدعي اليهود أن هذا التبشير ليوشع بن نون خليفة موسى، وهذا الادعاء قد

---

(١) الإصحاح الثامن: سفر التثنية.

ظهر بطلانه بأوجه:

الوجه الأول: إن اليهود كانوا ينتظرون في عهد رسالة عيسى عليه السلام نبياً آخر وهو يدل على أن التوراة كانت تبشر بنبي آخر بعد عيسى وهو النبي محمد بن عبد الله ﷺ، فإنه هو الذي بعث بعده.

الوجه الثاني: أن التوراة تقول في وصف النبي الذي سيبعث أنه مثل موسى، وقد نصت التوراة في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى، فبقي ذلك تبشيراً ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثالث: لقد ورد في نص هذا التبشير أن النبي الذي يجترىء على الله بأنه نبي، يقتل، وهذا النص يتفق مع ما نزل من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين﴾ (الآية ٤٤ من سورة الحاقة).

وهذا يدل على أن هذا التبشير إنما كان ببعثة محمد ﷺ، ذلك لأنه قد مكث بين أعدائه من المشركين واليهود ثلاثاً وعشرين سنة، وهو يقول إنه نبي ورسول بعث من عند الله ويدعوهم إلى الله، ولم يحدث له قتل، بل عصمه الله وحفظه طول حياته، حتى أتم رسالته وأظهر الله دينه على الدين كله، ثم التحق بالرفيق الأعلى راضياً مرضياً. فكان الواقع كما أنزل الله عليه في كتابه تطميناً له حيث قال: ﴿الله يعصمك من الناس﴾ (الآية ٦٧ من سورة المائدة).

وكما أنزل الله إليه بشأنه: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾. (الآية ٩ من سورة الصف).

الوجه الرابع: لقد ورد في هذا التبشير أن العلامة لتمييز كذب النبي عن صدقه عدم وقوع ما أخبر به باسم الرب سبحانه.

وقد وقع كل ما أخبر به محمد ﷺ، مما يدل على أنه كان نبياً صادقاً حقاً لا يجوز إنكاره. هذا ويؤيد بطلان إدعاء اليهود ما رواه القاضي عياض في الشفاء [1]،

(١) وقد رواه الإمام البخاري في الجامع الصحيح.

إن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو ابن العاص عن صفة رسول الله محمد ﷺ فقال: أجل! والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن وهو ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين. أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويفتح به أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً﴾.

وقد روى مثله عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود بالمدينة قبل إسلامه، وكذلك عن كعب الأحبار رضي الله عنه.

وكان اليهود قبل البعثة يستفتحون على العرب بالمدينة برسول منتظر، وأنه سيبعث، فقد حدث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا للإسلام ـ مع رحمة الله تعالى لنا ـ ما كنا نسمع من أحبار اليهود، إنهم كانوا أهل كتاب، وكانت لا تزال بيننا شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: «قد تقارب زمان نبي يبعث، الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم» فكثيراً ما كنا نسمع منهم ذلك. ثم إن الصادق المصدوق نبينا محمد ﷺ قد أخبر عن صفته التي جاءت في التوراة حيث قال: «عبدي أحمد المختار، مولده مكة، ومهاجره بالمدينة، وأمته الحما دون الله على كل حال».

ولكن اليهود داموا على ادعائهم الباطل، وأصروا في إنكار ما جاء في التوراة من التبشير بنبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، بل حرفوه بوقاحة سجلها التاريخ الإنساني، ألا من هداه ﴿منهم من آمن به ومنهم من كفر، أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾. (الآية ٥٢ من سورة النساء).

«تبشير الإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم»

وكذلك جاء التبشير بنبوة محمد ﷺ في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام بـ «الفار قليط» ويقرب معناه من معنى محمد وأحمد ويصدقه في القرآن ما أخبر به الله سبحانه عن لسان عيسى عليه السلام: «وإذا قال عيسى بن مريم يا بني

إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد». (الآية ٦ من سورة الصف).

وروى أبو داود في سننه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يأتوا النجاشي وذكر الحديث[1]، وفيه قال: «سمعت النجاشي يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه».

وروى الخازن في تفسير هذه الآية عن كعب الأحبار رضي الله عنه أن قال: إن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال نعم أمة أحمد، حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم في الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل».

هذا. وقد وصف المسيح عيسى عليه السلام هذا الفار قليط وصفاً لا ينطبق إلا على نبينا محمد ﷺ فقد قال: «إنه يوبخ العالم على خطيئته، وأنه يعلمهم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع من عند الله، وهو ينطبق على ما في القرآن «وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى» (الآية ٣ ـ ٤ من سورة النجم).

مع أنه قد ورد في إنجيل برنابا الذي ظهر منذ عهد قريب اسم الرسول محمد ﷺ، وذلك بعد أن أخفته يد الجهالة والتضليل، وقد ترجم هذا الإنجيل إلى العربية وطبع في مصر.

وكان أمية بن الصلت كثيراً ما يقول: «إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا» وكان أمية نصرانياً عربياً له علم في الكتب السماوية.

وحدث سلمان الفارسي رضي الله عنه، أنه صحب قسيساً وكان يقول له:

---

(١) حديث اجتماع المهاجرين مع النجاشي ملك الحبشة ومحادثتهم عن بعثة محمد ﷺ، وقد رويناه فيما سبق من هذا الكتاب.

«يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة».

ومما يدل على أن الكتب السماوية كانت تبشر بنبوة محمد ﷺ، ما كان من ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها، حينما جاءت إليه بمعية زوجها سيدنا محمد ﷺ، وذلك عندما نزل جبريل بأول وحي من عند الله سبحانه إلى عبده محمد وهو في غار حراء، ليعلنه أنه قد بعث رسولاً ونبياً إلى الناس كافة وإلى العالمين رحمة، وقال له: أبشر يا محمد أنا جبريل (وكان في صورة رجل) وأنت رسول الله إلى هذه الأمة، ثم قال له: إقرأ، قال ما أنا بقاريء (لأن رسول الله كان أمياً لم يتعلم القراءة) فأخذه فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله وهكذا إلى ثلاث مرات ثم قال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» فرجع رسول الله ﷺ وقلبه يرجف مما حدث له من الروع الذي أحدثه أول لقائه بالملك، ودخل على زوجته خديجة وقال لها: «زملوني، زملوني» أي لفوني في ثوبي؛ فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر عما حدث.

فقالت له خديجة بعد أن هدأته بكلمة: «ولا مراء في أن الله عز وجل قد اختارك لهداية قومك» ثم حضرت بمعينه عند ابن عمها ورقة بن نوفل لكي تتثبت في الأمر ممن لهم علم بحال الرسل، لأن ورقة كان ممن اطلعوا على الكتب السماوية، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وقد أصبح شيخاً كبير السن وعمي بصره، قالت خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك: قال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رآه في غار حراء، فقال له ورقة: هذا الناموس ـ جبريل ـ الذي نزله الله على موسى. ثم قال وهو يعبر عن علمه بأن محمداً قد بعثه الله إلى الناس رسولاً: «يا ليتني فيها جذعاً ـ شاباً جلداً ـ إذ يخرجك قومك من بلادك التي

نشأت بها، لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم».

فاستغرب رسول الله ﷺ قوله وقال: أو محرى هم؟ فقال ورقة: «لم يأت نبي قط بمثل ما جئت به إلا عودي». ثم قال ورقة في ختام كلامه وهو يشير إلى كمال تصديقه برسالة محمد ﷺ: «وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزراً ـ معضداً». ولكن ورقة لم يلبث أن توفى، ولم يدرك اليوم الذي تمناه.

هذا. وأنت ترى أيها القاريء العزيز في أسلوب كلام ورقة، وفي كمال تصديقه ما يدل على أنه كان مطلعاً على تبشير الكتب السماوية، ولا سيما الإنجيل بنبوة محمد ﷺ، حتى أنه أخبره ما يحدث ضده من معاداة قومه.

وروى الإمام البغوي بسنده عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال: أني أجد في التوراة مكتوباً: «محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكنه يعفو ويصفح، أمته الحمادون يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل مجد، يأتزرون على أنصافهم، ويغضون أطرافهم، صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جو السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده مكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام» انتهى.

ومما يذكر هنا: أنه لما أرسل رسول الله ﷺ رسلا يحملون دعوته للإسلام إلى ملوك الأرض لم يهن منهم أحد رسالته ولا كتابه إلا كسرى، لأنه لم يكن عنده علم من الكتب السماوية. أما جميع الملوك من النصارى، كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فقد أكرموا وفادة رسله، ومنهم من آمن به وهو النجاشي، ومنهم من رد رداً باللطف، وكان أن يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من بعث إليه هدايا كالمقوقس، وكان السبب في ذلك أنهم كانوا نصارى (أهل الكتاب) ولهم علم على لسان عيسى أن أحمداً (وهو نبينا محمد ﷺ) سيبعث عن قريب.

نعم: إن الله عز وجل قد أخبر في كلامه المجيد عن وجود التبشير برسالة ونبوة محمد بن عبد الله ﷺ، وعن وقوعه في التوراة والإنجيل حيث قال: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (الآية ١٥٧ من سورة الأعراف).

قال الخازن في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ يعني يجدون صفته ونعته ونبوته مكتوبة عندهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم، ولكن اليهود كتموا ذلك وبدلوه وغيروه، حسداً منهم له، وخوفاً على زوال رياستهم (ببعثة محمد ﷺ) وقد حصل ما كانوا يخافونه فقد زالت رئاستهم ووقعوا في الذل والهوان﴾.

«إسرائيل ليست بدولة، واليهود لا يزالون في الذلة»

وتعليقاً على قول الخازن «وقد حصل ما كانوا يخافونه، فقد زالت رئاستهم ووقعوا في الذل والهوان».

أقول: إن بعض الناس وفيهم الشباب الناشيء المثقف (بعد عدوان إسرائيل الأخير على البلاد العربية) يقولون: «وها هي إسرائيل اليهود أعادوا رئاستهم وتخلصوا من الذل والهوان، فقد احتلوا فلسطين وأسسوا سنة ١٩٤٧ دولة، أخذت تنمو وتزيد قوة حتى استطاعت هذا الهجوم المدهش في ٥ يونية سنة ١٩٦٧ على الدول العربية ولا سيما مصر» وتقدموا إلي بالسؤال في هذا الموضوع غير مرة، فقلت: «إن اليهود لم يملكوا رئاسة، ولم يتخلصوا من الذل والهوان باحتلال فلسطين، وأنهم لا يزالون في الذل والهوان، ذلك لأن إسرائيل ليست بدولة في الحقيقة، ولو اعترفت بها الدول الاستعمارية وما في فلكها الاستعماري، وإنما هي معسكر جمع فيه الاستعمار اليهود من هنا وهناك، لكي

يستعملهم يوماً ضد العرب وضد المسلمين، لأغراضه الاستعمارية (وقد قلنا هذا في الصفحة ١٤٤ من كتابنا «مثنوى يا دكار زندان، يا آيينه جهان» المنظوم باللغة الفارسية الذي ألفناه في كابل عاصمة أفغانستان سنة ١٩٤٧.

نعم: قلنا هذا قبل عشرين سنة من هذا التاريخ، كما صرحنا به أيضاً في كلمتنا التي ألقيناها بمناسبة ذكرى فلسطين سنة ١٩٥٨ بالقاهرة، نشرتها بعض الجرائد المصرية في وقتها، كما أدرجوها في مقدمة كتيبنا «إلى الجندية أيها العرب!» وهو يتعلق بقضية فلسطين.

وها هي إسرائيل (المعسكر) استعملها الاستعمار فعلاً ضد مصر وسوريا والأردن لأغراضه الاستعمارية، مما يثبت أن اليهود لا يزالون في الذل والهوان، وأي ذل وهوان أكثر من أن تكون إسرائيل اليهود تحت أمر الاستعمار في كل وقت من الأوقات منذ أن تأسست على أرض العرب وساحة الوطن العربي المغتصب، والتي ستلقى مصيرها الذي لا يرضى به اليهود ولا الاستعمار سيد اليهود، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ إسرائيل القديم، فإننا نجد اليهود (ممثلين في بني إسرائيل) قد خرجوا عن طاعة الله مرة بعد أخرى وقاموا بكل فساد، في أنحاء البلاد، وظلموا الناس كلما استطاعوا وبالغوا في الظلم والعصيان، حتى قتلوا أنبياء الله تعالى، ولكن لم يفدهم فسادهم بل عاد إليهم بعواقبه الوخيمة التي سجلها التاريخ، فإنهم كلما طغوا وبغوا وقاموا بالفساد سلط الله عليهم أعداءهم فوقعوا مغلوبين في الذلة والمسكنة والهوان، وأهلكوا على أيدي أولى بأس شديد من عباده.

فقد قال الله عز وجل[1]: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾. أي أبلغنا إليهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب، وهو التوراة «لتفسدن في الأرض» يعني أرض الشام وبيت المقدس (مرتين) (أولهما بقتل زكريا وحبس أرمياء عليهما

(١) الآية ٤ - ٨ - من سورة الإسراء.

السلام حينما بعثهما الله إليهم، وأخرى المرتين بقتل يحيى بن زكريا، ثم يقصد قتل عيسى عليهما السلام حينما بعثهما الله إليهم) «ولتعلن علوا كبيراً» أي لتستكبرن عن طاعة الله وتظلمن عباده.

«فإذا جاء وعد أوليهما» أي أولى المرتين من الفساد والعلو في الأرض وقمتم بها «بعثنا عليكم» سلطنا عليكم «عباداً لنا أولى بأس شديد» ذوو بطش وقوة في الحرب «فجاسوا خلال الديار» وطافوا بين الديار (ديار الشام وبيت المقدس) للغارة عليها ولمعاقبتكم ومسكم بسوء العذاب أينما وجدوكم «وكان وعداً مفعولا» أي وكان وعد العقاب وعداً لا بد من أن يفعل بكم، «ثم رددنا لكم الكرة» أي الغلبة «عليهم» أي على أعدائكم «وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً» أي عدداً ورجالا، وكان ذلك حينما تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد والظلم في الأرض.

«إن أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها» أي تختص لها إساءتها وعقابها عليها، ثم قال الله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي أخرى المرتين من الفساد والعلو في الأرض وقمتم بها «ليسوءوا وجوهكم» أي بعثنا وسلطنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد مرة أخرى، ليحزنوكم بالغلبة والقتل والتعذيب، بحيث تبدو آثار الحزن والكآبة على وجوهكم، «وليدخلوا المسجد» بيت المقدس ونواحيه، «كما دخلوه أول مرة» يعني وقت إفسادكم الأول. «وليتبروا ما علوا تتبيراً» أي وليدمروا ما غلبوا عليه من بلادكم، وليهلكوا من أنفسكم المغلوبة إهلاكاً لا رحم فيه.

ثم قال الله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن الفساد والظلم والعصيان «وإن عدتم عدنا» أي إن عدتم مرة ثالثة إلى ما كنتم عليه من المعاصي «عدنا» إلى عقوبتكم «وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً» أي سجناً لهم ومحبساً مهيناً.

ويستفاد من نصوص هذه الآيات ما يلي:

أولا: إن الفساد في الأرض، والاستكبار عن طاعة الله والظلم والاعتداء على الناس، إنما هو كله من خصال اليهود.

ثانياً: إن اليهود (ممثلين في بني إسرائيل) قاموا بالفساد في أرض الشام وبيت المقدس مرتين.

يقول المفسرون وعلماء التاريخ إن اليهود في المرة الأولى قتلوا زكريا وحبسوا أرمياء عليهما السلام، عندما أرسلهما الله إليهم بالنبوة، فقام كل منهما بتأدية الرسالة ببيان ثواب الطاعة وعقاب المعصية، عملا بما أوحى الله إليهما من الأمر والنهي. وفي المرة الثانية من فسادهم قاموا بقتل يحيى بن زكريا، وقصدوا قتل عيسى، ولكن الله نجاه برفعه إلى السماء.

وفي كل مرة من فسادهم عاقبهم الله عقاباً شديداً. ففي المرة الأولى سلط الله عليهم بختنصر ملك بابل، فخرج في ستمائة ألف راية من الجنود، واستولى على بلاد الشام وبيت المقدس، وقتل من بني إسرائيل ما ليس له حساب، وعذبهم بأنواع العذاب وخرب بيت المقدس، ودام سلطان بختنصر على بني إسرائيل إلى أن تابوا وتضرعوا إلى الله، فنجاهم الله عن بختنصر، حيث بعث بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت أم دماغه فمات. ثم أعاد الله من بقي من بني إسرائيل إلى أمن ونعمة حتى بنوا بلادهم من جديد، فكانوا على أحسن ما كانوا عليه من الحياة، ولكن بني إسرائيل عادوا إلى الفساد مرة ثانية (وفيها قتلوا يحيى بن زكريا) فسلط الله عليهم خردوش ملك بابل، فقد سار إليهم بأهل بابل حتى دخل الشام، وتغلب على بني إسرائيل، وقتل منهم ما لا حساب له، وقام بالتدمير والإهلاك بلا هوادة ورحم، كما دخل المسجد بيت المقدس، وفعل فيه ما فعل، وكانت هذه هي المعاقبة من عند الله عز وجل في المرة الثانية.

ثالثاً: إن بني إسرائيل (اليهود) تسببوا بشؤم فسادهم وظلمهم ومعاصيهم تخريب بيت المقدس مرة بعد أخرى.

رابعاً: لقد رجى الله بني إسرائيل (في ختام هذه الآيات) ترجية بالرحمة إن تابوا وانزجروا، وأنذرهم إنذاراً بالعودة إلى معاقبتهم إن عادوا مرة ثالثة إلى الفساد في الأرض والعلو والاستكبار، ولكن بني إسرائيل (اليهود) عادوا إلى الفساد بعد بعثة محمد بن عبد الله رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، حيث لم يؤمنوا به، وقاموا بإثارة الفتن ضد الإسلام وإيقاد نار الحرب على المسلمين، فسلط الله عليهم جنود الإسلام بالغلبة بفتح خيبر وغيره من الفتوحات. وبهذا عاد الله تعالى إليهم بالمعاقبة (كما أنذرهم) وقضى على رئاستهم فوقعوا في الذل والهوان.

وأن هذا الذل والهوان يستمر على اليهود إلى يوم القيامة، وذلك بنصر من نصوص القرآن، فقد قال الله عز وجل[1]:

﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي أعلن وحكم ربك ﴿ليبعثن عليهم﴾ أي ليسلطن على اليهود ﴿إلى يوم القيامة، من يسومهم سوء العذاب﴾ وهذا في الدنيا، فأما في الآخرة، فإن عذابهم أشد وأعظم.

كما أشار الله إليه في ختام الآية بقوله: ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن أقام على الفساد، واستمر في الكفر والظلم، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب وآمن بالله ورسوله.

هذا. ويقول الله تعالى في آية أخرى[2]: ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ أي جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، ﴿والمسكنة﴾ أي الفقر والفاقة على أكثرهم وقوعاً. وعلى جميعهم مالا، حيث ترى أغنياء اليهود كأنهم فقراء يجرون وراء جمع المال بكل حرص كالكلاب وراء الجيفة، لا يغنيهم غناهم عن شيء ولا يعود إليهم بأي خير، وصدق الشاعر حيث يقول:

فقير كل ذي حرص غني كل من يقنع

---

(١) الآية ١٦١ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٦١ من سورة البقرة.

«وباءوا بغضب من الله» والغضب من الله إنما هو إرادة الانتقام ممن عصاه «ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون» أي يتجاوزون عن أمر الله سبحانه ونهيه ويفسدون في الأرض.

ويقول الله عزوجل[1]: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ يعني جعلت الذلة ملصقة محيطة ومشتملة عليهم، ﴿أينما ثقفوا﴾ أي حيثما وجدوا أو صودفوا.

قال الخازن في تفسير هذه الآية: «والمراد بالذلة: قتلهم وسبيهم وغنيمة أموالهم (من قبل أعدائهم الذين سلطهم الله عليهم كلما قاموا بالفساد والعصيان في الأرض) ومن ذلتهم أنك لا ترى في اليهود ملكاً قاهراً ولا رئيساً معتبراً، بل هم مستضعفون في جميع البلاد، «إلا بحبل من الله، وحبل من الناس» أي لا تفارقهم الذلة إلا بعهد من الله وهو أن ينصرفوا من الفساد ويتقبلوا الدين الإسلامي، وبعهد من المسلمين مقابل بذلهم الجزية، «وباءوا بغضب من الله» أي رجعوا به، والمعنى إنهم مكثوا في غضب الله، «وضربت عليهم المسكنة» كما يضرب البيت على ساكنه، فاليهود ساكنون في المسكنة غير خارجين منها، حتى أن أغنياءهم أيضاً يتظاهرون بالمسكنة والفقر، لا يغنيهم مالهم عن شيء «ذلك» أي ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب «بأنهم» بسبب أنهم «كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» ويقول الله سبحانه[2]: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾. فكلمة اليهود مختلفة وقلوبهم شتى ما داموا في الحياة، بحيث يدوم الاختلاف والعداوة والبغضاء بين اليهود إلى يوم القيامة، فلا يمكن بينهم اتفاق ولا تعاضد، فيستمرون في الذلة، لأن العزة في قوم إنما هي بوحدة الكلمة، «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين» وهذا ينص على أن القيام بالفساد في الأرض، وإيقاد نار الحرب، من خصال اليهود، ولكن الله العلي القدير يطفيء ما أوقدوه من نار الحرب، ويجازيهم على فسادهم في الأرض كما جازاهم في سابق التاريخ (وقد بيناه فيما سبق) ذلك لأن الله لا

(١) الآية ١١٢ من سورة آل عمران. (٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة.

يحب المفسدين. وبهذا لا ينالون ما قصدوه، ومن شأن اليهود (الذي ثبت عنهم) أنهم يستعملون المكر والكيد والحيل في نيل المقاصد، ومن المعلوم أن عاقبة المكر والكيد والحيل هي خيبة الأمل، وحصول الفشل. إذن فإن اليهود لا تزول عنهم الذلة ما داموا في الحياة وأينما كانوا.

«التلمود ينص على بقاء الذلة»

ومما يذكر هنا: أن «التلمود» دستور اليهود المقدس، الذي ألفه حاخاماتهم، والذي يعتقدون أنه أفضل من «التوراة» وأنه لا يخطيء، على أساس اعتقادهم بأن الحاخامات لا يخطئون.

أريد أن أقول إن هذا «التلمود» يعترف ويقول[1]:

«ويستمر ضرب الذلة والمسكنة على بني إسرائيل - اليهود - حتى ينتهي حكم الأجانب، وقبل أن يحكم اليهود نهائياً باقي الأمم يجب أن تقوم الحرب على قدم وساق ويهلك ثلثا العالم» انتهى بالاختصار.

وفي هذا اعتراف باستمرار الذلة والمسكنة على اليهود، ولا تزول عنهم إلا بانتهاء حكم الأجانب، واختصاص الحكم لليهود في العالم، ولكن أنى لهم ذلك؟.

كما أن «التلمود» يشترط حاكمية اليهود على باقي الأمم في العالم بقيام حرب طاحنة شاملة، وبهلاك ثلثي العالم، كاشتراط شيء بأمر مستحيل، فأنى لهم ذلك؟.

إذن لا يزال اليهود في الذلة والمسكنة محكومين تحت الأجانب لعدم توفر الشرط واستحالته، حتى إننا نرى اليهود محكومين تحت حكم الأجانب، وأمر الاستعمار، كما نراهم يخضعون للاستعمار ويعتمدون على قوة الاستعمار. بعد احتلال فلسطين وتأسيس ما يسمونه «إسرائيل» ولولا الاستعمار وقوته

(١) صفحة ٤١ - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

ومساندته، لدمروا تدميراً كسابق تاريخهم الذي أثبتناه آنفاً.

هذا وأما قول الناس «حتى استطاعت (إسرائيل) هذا الهجوم المدهش في ٥ يونيه سنة ١٩٦٧. فإني أقول: إن هذا الهجوم لم يكن من إسرائيل في الحقيقة، وإنما كان من الاستعمار وقوته ومساندته، وإذا كان هذا الهجوم قد أحدث نكسة عسكرية للدول العربية، فإنما هو يعبر عن أن الله العليم الحكيم أراد بعلمه وحكمته أن ينبهنا على أخطائنا، ويبصرنا عليها على أيدي أعدائنا المأجورين في المعسكر الاستعماري حتى نرجع إلى الله العلي القدير كل الرجوع، فقد قال الله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ كما أشار إليه السيد الرئيس جمال عبد الناصر في خطابه بمناسبة عيد الثورة يوم ٢٣ يونية ١٩٦٧ حيث قال بعد أن ذكر النكسة العسكرية:

«لعل الله عز وجل أراد أن يضعنا موضع الامتحان، وأراد أن يعلمنا درساً، ويذكرنا ببعض ما يمكن أن نكون نسيناه، ويطهر نفوسنا من شوائب لحقت بها وعيوب يجب أن نتلافاها» الأهرام في ٢٤ يونية ١٩٦٧.

فتمكن اليهود من مثل هذا الهجوم لا يدل في الحقيقة على أنهم أعادوا رياستهم وتخلصوا من الذل والهوان، فإن هذا أمر عادي يحدث في العالم البشري كثيراً. كما نعتقد بأن الله سبحانه سيسلط عباده على اليهود، للفساد الذي قاموا به باغتصاب فلسطين الموطن العربي، والهجوم على المطالبين بحقهم، وقتل الأبرياء وتعذيبهم وطردهم، وانتهاك حرمة بيت المقدس.

نعم: سيسلط الله عباده على اليهود (كما سلطهم الله عليهم عند كل فسادهم في سالف التاريخ) حتى يدمرهم تدميراً، ويجازيهم على فسادهم وعلوهم في أرض اغتصبوها، إن الله لقوي عزيز.

«دلالة الحوادث على بعثته»

وإذنا نظرنا (نظرة التحقيق ونظرة التذكر ونظرة الاعتبار) إلى ما حدث من

الحوادث قبل البعثة التي تتعلق بسيدنا ونبينا محمد ﷺ، فإنها تدل على أن له شأناً عظيماً وأنه سيبعث نبياً ورسولاً إلى الناس كافة ورحمة للعالمين، وذلك إرهاصاً لنبوته وإعلاماً لرسالته العالمية.

منها: حصول البركات على آل السيدة حليمة بنت أبي زئيب السعدية الذين أرضعوه وقاموا بحضانته مدة وجوده بينهم إلى أن تجاوز عمره المبارك على أربع سنوات.

فقد كانوا مجدبين، فلما أتوا بمحمد بن عبد الله لإرضاعه على السيدة حليمة، أصبحت غنيماتهم تؤوب إليهم من مرعاها، وأضراعها لتسيل من اللبن، وكان هذا الحادث يختص بغنيمات آل حليمة السعدية، دون سائر غنيمات قبيلة بني سعد، مع أنها كانت ترعى من نفس المراعي، مما كان سبباً داعياً لتفاؤلهم بشأنه قائلين: إن لهذا الرضيع شأناً.

ومنها: حادث شق صدره (ﷺ) وإخراج حظ الشيطان منه، ولقد فزعت حليمة بهذا الحادث واستولى الخوف عليها، حتى أتت به إلى أمه آمنة وحدثتها وهي تقول: بينما هو وإخوته (من الرضاع) في بهم[1] لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض. فأضجعاه فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه (الرضاعي أبو كبشة) نحوه، فوجدناه متنقعاً لونه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بغي؟ فقال جاءني رجلان وعليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال نعم! فأقبلا يبتدرانني فأضجعاني فشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو؟.

كان هذا الحادث على يدي ملكين مبعوثين من عند الله سبحانه بصورة رجلين، مما كان يدل على أن لهذا الطفل (وهو فوق أربع سنوات) لشأناً عظيماً فيما يأتيه من الزمن.

ومنها: ما كانت أم أيمن حاضنته (بعد وفاة أمه) تحدث به عن خصائصه

---

(١) ذلك حينما كان محمد يرعى الغنم مع إخوته في الرضاع.

(ﷺ) في طفولته، التي كان يمتاز بها عن سائر الأطفال، مما كان يدل على أن له لشأناً فيما بعد.

ومنها: ما كان يتنبأ (يتفاءل) به عمه أبو طالب ويقول «وهو والله بعد هذا، له نبأ عظيم وخطر جليل».

وما كان يتفاءل به (قبل عمه) جده عبد المطلب ويخصه بالإكرام في شأنه، والاعتناء بحسن تربيته من بين أولاده وأحفاده.

ومنها ـ ما حدث بشأنه ﷺ في سفره إلى الشام بمعية عمه أبي طالب وهو في اثنتي عشرة سنة من عمره المبارك. فقد أشرف على رجال القافلة في هذا السفر من يسمى بحيرا الراهب وسألهم عما رآه في الكتب السماوية من بعثة نبي من العرب في هذا الزمان، فقالوا أنه لم يظهر للآن، ثم أوصاهم بالمحافظة على هذا الطفل الذي يرافقهم في هذا السفر، لما يرى عليه من علامات تدل على أن له لشأناً في المستقبل، كما في بعض كتب السيرة النبوية. والمثل العربي يقول: «الظاهر عنوان الباطن» والشاعر يقول:

وقل من ضمنت شيئاً طويته إلا وفي وجهه من ذاك عنوان

هذا. مع أن عبارة «بعثة نبي من العرب» كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى، ويعرفون بعثته وينتظرونها كما أخبر الله به في كتابه المجيد حيث قال: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾. (الآية ٨٩ من سورة البقرة).

ومنها: حادث الغمامة وتسخيرها له (ﷺ) من عند الله سبحانه وذلك في سفره الثاني إلى الشام، (قبيل بلوغه إلى الخامس والعشرين) للتجارة بمال السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

فقد حدث ميسرة غلام خديجة الذي كان معه ﷺ في هذا السفر، أن غمامة كانت تظله في اليوم الصائف بحيث تختص به وتسير فوقه أينما سار ولا يشاركه أحد، مما يدل على أن الله تعالى قد سخرها لمحمد بن عبد الله الذي سيرسله

رسولاً للناس كافة ورحمة للعالمين.

نعم، حدث ميسرة هذه الحادثة لخديجة ومن حولها من رجال أسرتها الكبيرة (مع ما حصل في هذه التجارة من الربح العظيم الذي لم ير مثله) فتفاءلت به خديجة وخطبته لنفسها بعد أن تيقنت أن له في المستقبل شأناً عظيماً، ولهذا كانت خديجة أسرع الناس إيماناً بمحمد بعد بعثته، صلى الله عليه وعلى خديجة وسلم. ومنها: أنه ﷺ لما كان يخرج إلى الشعاب وبطون الأودية مبتعداً عن البناء، لقضاء حاجته، كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا ويسمع أنه يقول «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» فيلتفت إلى يمينه وشماله وخلفه ولا يرى أحداً.

وقد حدث رسول الله ﷺ بهذا عن نفسه بعد بعثته وهو الصادق المصدوق.

فقد قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث وإني لأعرفه الآن» رواه مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه. وروى الإمام الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: «السلام عليك يا رسول الله».

أقول: الظاهر أن الحديث إنما هو بعد البعثة، ولكنا رويناه لمناسبة أن فيه سلام الجبال والشجر عليه ﷺ بالرسالة، وفيه معجزة لصدق دعوته.

وروى الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب ـ في قرب من قرية بصرى ـ هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم فجعل يتخللهم ـ الراهب ـ حتى جاء وأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين» فقال به أشياخ من قريش: ما علمك؟ ـ ما هو سبب علمك ـ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق بها شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع

وصنع له طعاماً فلما أتاهم به وكان النبي في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة مال عليه، وقال: أنشدكم الله، أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب».

أقول: روينا هذا الحديث اتباعاً لنص رواه صاحب مشكواة المصابيح (مع بعض إيضاح وحذف) والظاهر أن الحديث تفصيل ومأخذ للقصة التي رويناها آنفاً عن بعض كتب السيرة النبوية.

هذا. وقال على القاريء في شرح معنى قوله «فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب» أي يناشد الراهب أبا طالب ويطالب رده عليه السلام، خوفاً عليه من أهل الروم أن يقتلوه بالشام، ويقول لأبي طالب: بالله عليك أن ترد محمداً إلى مكة وتحفظه من العدو».

أقول: إن الحوادث التي سبقت بعثة محمد ﷺ والتي تتعلق به ، وتدل على أن له لشأناً عظيماً، وأنه سيبعث نبياً ورسولاً للناس كافة، وللعالمين رحمة، كثيرة حدثت إرهاصاً لنبوته، وإعلاماً لرسالته التي اعترف (ويعترف) بها الإنسان في أرجاء العالم، ولكننا اكتفينا برواية بعض منها، لأن غرضنا الإشارة والإجمال، لا التفضيل والإملال والمثل العربي يقول «خير الكلام ما قل ودل».

«العالم قبل بعثة رسول الإسلام»

«كانت الحالة الإجتماعية السياسية تقتضى بعثة مثله»

كان العالم قبل بعثة رسول الإسلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، يسود على شئونه الفساد، وتتحكم فيه الفوضوية، حيث كانت الحالة الأجتماعية (وفيها الدينية) والسياسية والاقتصادية في جميع أنحاء الأرض فساداً في فساد، أمست البشرية تعيش في الفوضى، وقد ضاقت ذرعاً من سوء شئون الحياة، فقد فقدت كل فضيلة وحلت محلها الرذيلة. وساد على كيانها الأنحلال الخلقي، وفاتها الهدوء والأطمئنان، وحل مكانها القلق والإضطراب، وخانها السلم وكثرت عليها الحروب، وتسلطت أيدي الظلم والاعتداء على شئونها العامة، وخيم على ساحتها الجهل والشرك، واضطرت للخضوع لدى سلطان الباطل، والأنحناء أمام القساوسة والبطارقة، أولئك الذين جعلوا من أنفسهم معبودين لشعوبهم، يحكمون عليهم بما توحى إليهم أهواؤهم، ويتصرفون في أموالهم وأغراضهم تصرف الغاضب والمعتدى، ولا رادع لهم عما يعملون، ولا مراقب عليهم فيما يظلمون، لأنهم هم الحكام باسم الدين، والدين منهم براء.

ولهذا وذلك فإن الحالة الإجتماعية والسياسية والاقتصادية في أنحاء العالم، كانت تقتضي بعثة نبي يقوده بنبوته، وإرسال رسول يسوسه برسالته، يحمل كتاباً أنزل إليه من الله خالق السموات والأرض (الذي يختص به الحكم وينحصر له العلم فيما يتعلق بشئون العباد، ويرتبط بحالات البلاد) كتاباً يخرج به الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم، أجل: كانت الأوضاع العالمية تقتضي بعثة نبي الإسلام ورسوله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، متمماً لمكارم الأخلاق، وخاتماً

للأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

ويجدر بنا أن نقدم إلى القراء إجمالاً عن حالة العالم البشري قبل بعثة رسول الإسلام حتى يتبين لهم الحق فيما ادعيناه وبيناه في سطور معدودة.

«دولة الفرس والرومان»

إذا نظرنا إلى التاريخ قبل البعثة، وتفكرنا في شئون ذلك العصر فإننا نعلم علم الوضوح، أن الحالة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية بين ملل العالم وشعوبه في ذلك الحين، كانت تتطلب بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وتقتضي دينه الإسلام ومبادئه الإلهية، وتعاليمه القدسية، وإنما ذلك لمصلحة عالم البشرية.

كانت دولة الفرس والرومان أكبر الدول شأناً، وأعظمها قوة في ذلك العصر، تريد كل منهما أن تحكم العالم كله (وفيه جزيرة العرب) ليكون تحت سيطرتها لا تشاركها دولة أخرى. ولهذا كان التنافس بين الدولتين أشد ما يكون، فكانت كل منهما بالمرصاد ضد الأخرى لتقضي عليها وتبقى هي وحدها وتخلو لها الأرض محكومة برمتها، وهذا التنافس هو الذي دفع الدولتين إلى الحروب، التي أدت إلى الخراب والفساد في حياة الغالب والمغلوب.

ففي سنة ٦١٠ الميلادية شبت نار حرب عظيمة بين دولتي الفرس والرومان، واستمرت إلى سنة ٦٢٢، حتى انتهت بغلبة دولة الرومان. ولم تمض مدة تذكر حتى وقعت حرب طاحنة أخرى بين هاتين الدولتين العظيمتين ادت إلى انهزام دولة الفرس ومغلوبيتها مرة ثانية.

«الإنحلال السياسي والإجتماعي في الفرس»

ونتيجة للإنهزام المكرر، وأضرار الحرب غير مرة وتبعاتها، ظهرت بوادر الإنحلال السياسي على شئون دولة الفرس، بحيث سادت عليها واضطربت حالتها السياسية، إلى حد أن تسعة من زعمائها تبادلوا التولي على الملك وتربعوا على عرش الإمبراطورية (واحد إثر واحد) في مدة تقل عن أربع سنوات إذا

عدت عداً صحيحاً واقعياً.

وبالخاصة فإن الحالة الإجتماعية في مجتمع الفرس قد انهارت وإضطربت واختل الأمن في أنحاء البلاد، وتسلل التفرق إلى العلاقة بين طبقات الشعب وقضي على اتحاده.

ومن ناحية أخرى: ظهرت المذاهب الباطلة بين أقوام الفرس، وكان منها مذهب مزدك الشيوعي، فقد ادعى أنه يقوم بإصلاح المجتمع عن طريق إباحة النساء والأملاك والأموال بين أفراد الشعب إباحة مطلقة لا قيود لها، على أساس أنهم أخوة من أب واحد وهو آدم، وأم واحدة وهي حواء، مما أدى إلى كثير من فساد الأخلاق والتدهور العام.

«أما الرومان»

أما الرومان فقد صاغ نفوذ الدولة في الأمم التي كانت تحت حكمها وتسلط البربريون على كثير من مناصب الحكومة ولا سيما في أمور الجيش وقيادة الجنود، كما أصبحت ثغور الدولة مهددة بالغارات من كل جهة من الجهات، وذلك في نتيجة الحروب بين الدولتين، التي أثرت وعملت عملها في الغالب أيضاً.

كما أن أقتصاد البلاد وقع في مشكلات عمت أنحاءها، وأوقعت الحكومة في أزمة أقتصادية في شئونها، ولا سيما في سد حاجات الطبقة العليا، ونفقات الحكام، فاضطرت حكومات الرومان حكومة إثر حكومة لوضع ضرائب مزيدة، وبهذا انشقت عصا الطاعة في جميع الأقطار المحكومة، وذلك لعدم إستطاعتها لمزيد من الضرائب الباهظة، وتحمل مظالم حكومة عاصمة الرومان.

ومن جهة أخرى: أصيبت عقيدة الرومان العامة بالانقلاب والاختلاف، وتشعبت إلى عقائد تخالف بعضها، وقسمت أفراد الشعب إلى طوائف، ووقعت مخاصمات شديدة بين أرباب العقائد، فكانت كل طائفة تدافع عن عقيدتها ورأيها، وتناضل في سبيلها حتى الموت.

وبهذا ظهرت فتنة غير مسبوقة، وسادت الفوضوية على الأمور المذهبية في أنحاء مملكة الرومان.

فكانت البطارقة (أولئك الخواص الذين كانوا يدعون إرشاد العوام) فقدوا وعيهم وضلوا الطريق، يتنازعون بينهم ويقضي بعضهم على البعض بأنه حرام أو مبغوض.

وضاقت ساحة الحياة الإقتصادية بين الناس. وخاصة بين أرباب الدين، ولهذا فإن الأشراف والبطارقة وغيرهم من المترفين الذين تعودوا أن يعيشوا على عطايا ملوكهم انتقلوا إلى قسطنطينية عاصمة دولة الرومان، حتى يتمتعوا بالعطايا الملوكية، ويعيشوا عليها، وتنزلت درجات أخلاق الأشراف والبطارقة إلى حد أن الوقاحة سادت على شئون حياتهم الشخصية بحيث لا يهمهم إلا مصالحهم، حتى كانوا يسلمون السلطنة والملك إلى يد من يعطيهم أكثر من العطايا المطلوبة.

«العداوة بين الرومان واليهود»

ووقع التضاغن بين الرومان واليهود، وازداد في عهد هرقل، بسبب أن اليهود ثاروا في إنطاكية وقتلوا بطريقها ومثلوا به شر تمثيل، واتفق اليهود المقيمون في بلاد الرومان مثل فينيقية وفلسطين على الدخول ليلاً إلى مدينة صور ليقتلوا النصارى. كما أن اليهود اشتروا من الفرس ثمانين ألفاً من أسرى النصارى ثم ذبحوهم.

وكانت حكومة الرومان إذا وضعت قانوناً خصصت بعض أحكام القانون لمعاملة اليهود بالتحقير، ثم قرر المجلس الملي إلغاء الديانة اليهودية، ومنعت الحكومة إحتفالات اليهود بأعيادهم، وبذلت جهودها الجبارة من كل ناحية لإجبارهم على قبول دين النصرانية، ودامت تضيق عليهم في شئون المعيشة حتى اضطر اليهود للتظاهر بالنصرانية.

«انحطاط الأخلاق بين الرومان»

وانحطت الأخلاق بين الروميين، حيث فقدوا صوابهم، وخانوا عقلهم وتجردوا عن الفضائل الإجتماعية، واعتدى القوى على حقوق الضعيف وارتفع مقام المعتدين حتى تبؤوا عرش القياصرة.

حتى إن «ثيودرة» المعروفة بأعمالها التي تنافي الأخلاق الإنسانية، وتخالف التعليمات السماوية (تلك المرأة التي أصبحت مضغة في الأفواه) صارت ملكة وتبوأت عرش القيصر، حيث كان يجثو ويخضع لها القضاة والكهنة ورجال الجيش وقواده.

فكان من نتيجة هذا وذلك أن ساد القلق وشاعت الفوضى، وداس الناس القوانين السماوية والوضعية تحت أقدامهم، وانتهكوا حرمات الأماكن المقدسة عندهم.

«الهند»

أما القارة الهندية العظيمة قبل البعثة، فقد ظهرت في أنحائها مذاهب باطلة مختلفة، وشاعت مبادئها الهدامة، وكان منها مذهب إباحة النساء المطلقة، التي انتشرت عن طريق المبلغين المقتدرين لهذا المذهب الباطل. وبلغ تأثير هذا المذهب الخرافي إلى حد فاحش بين المجتمع الهندي، حتى إن كاهن الهند هو الذي كان يتمتع بالعروس في أول تزينها لعرس، قبل أن يتمتع بها العريس.

كان ذلك لكي ينشر الكاهن البركة والنعمة على العروس والعريس على ما يزعمه الباطل.

وهكذا كان الضلال يحكم قارة الهند، والجهل يسود على حياة الناس، والهوى تسوقهم إلى الهاوية.

ومن جهة أخرى: كان أهل الأهواء الفاسدون المفسدون منهم ينشدون الأناشيد التي تحرض السامعين إلى المنكرات والرذائل والإباحية، ويلقونها في

الإحتفالات، ويقرعون بها أسماع الجاهلين، مما أدى إلى غوايتهم وتشجيعهم على الإنحلال الخلقي، ويفتح لهم أبواب الفتنة والفساد في أنحاء القارة، ويجلبهم نحو الخمود والجمود في الإنتاج والكسب والإهمال في ساحة السياسة.

«الجزيرة العربية»

أما العرب في جزيرتهم وأنحاء أوطانهم، فإنهم كانوا قبل البعثة في أسوأ حالة، حيث يعيشون عيشة البرابرة في كثير من نواحي الحياة، فقد اتخذت الرذيلة مكان الفضيلة، وحل النفاق والشقاق محل الإتفاق، وانقطعت أواصر القومية بين قبائل العرب، وأصبحت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها، لا تعترف بوجود قبيلة غيرها، يسود عليها الكبر والأنانية، وحب النفس، والمصلحة الشخصية القبيلية، تترصد قبيلة منهم فرصة حملة على قبيلة أخرى، لتجعلها محكومة تحت أهوائها، حكم الغالب على المغلوب.

وكثيراً ما تشب نار الحرب بين قبيلة وقبيلة (وهم قوم واحد ومن دم واحد) لأتفه الأسباب، ويقاتلون بينهم ويقتلون بني قومهم، بحيث لا حياة لهم إلا بالرماح والسيوف، وكانوا لا يعرفون حقوق الجوار، كما كانوا لا يعملون شيئاً من شئون العلاقات الدولية.

وبالإجمال: كان العرب في الجاهلية، في بلاء عظيم من جهالات وشرور وفساد إثر فساد، وقد تفشى بينهم في ساحة حياتهم كثير من العادات السيئة، والاعمال المنكرة، كشرب الخمر وهي أم الخبائث، والإنهماك في الميسر، وقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق، ودفن البنات وهن أحياء، خوف لحوق العار، والالتجاء في سبيل المعيشة إلى السلب والنهب، وقتل النفس بغير حق.

وكثيراً ما كانت الكلمة الواحدة تثير البعض على بعض وتقضي إلى القتل وعواقبه وتبعاته، وقد بلغت فيهم روح الإنتقام إلى أبشع درجة، حتى إن النساء كن يصبغن ملابسهن بدماء القتيل، بل يزدن على ذلك، فيمثلنه ويخرجن قلبه وكبده ويأكلنها إرضاء لروح الإنتقام.

ومما ثبت في تاريخ العرب أنه كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما عداوة بسبب قتيل، ثم تطاولت تلك العداوة بالحروب بين قبيلتيهما (قبيلة الأوس وقبيلة الخزرج) مائة وعشرين سنة، إلى أن أطفأ الله نارها ببعثة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأعاد القبيلتين إلى الأخوة والأتحاد تحت تعاليم الدين الإسلامي، وفي هذا وأمثاله قال الله في كتابه المجيد: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون».

(الآية ١٠٣ من سورة آل عمران)

ومن ناحية أخرى: إن الربا قد فشى استعماله للكسب غير المشروع، وبهذا كان المال للأغنياء يداً على الفقراء، فاستفحل ضررهم على المجتمع، وكان الويل كل الويل لمن سقط في شبكة صيدهم واضطرته ظروفه الإقتصادية للإلتجاء إلى ما لديهم من المال، لأنهم كانوا لا يفقهون معنى الرحمة، ولا مغزى القومية والأخوة، ولا يعرفون إلا مصلحتهم المالية، ولا يرون أى فرق بين البيع والربا، بل يقولون إنما البيع مثل الربا وقد أحل الله البيع وحرم الربا في جميع الأديان السابقة، الأمر الذي جعلهم يعيشون على دماء الفقراء الذين يسعون صباح مساء في سبيل الرزق، والأغنياء قاعدون وقد أصبحوا في جسم المجتمع العربي كالحيوان القوى الذي يقتات بأكل الضعيف من جنسه، وبهذا إمتلأت صدور الفقراء حقداً وضغينة على الأغنياء، لأنهم أصبحوا في أيدي الأغنياء أذلاء وأمسوا عبيداً بعدما كانوا أحراراً.

وقد قلت في المجتمع الخيرات، ومنعت الصدقات، وضاعت حقوق الفقراء والمساكين، ونتيجة لهذا وذلك انفصمت رابطة الإخاء الإنساني في المجتمع العربي، لا يرحم أخ عربي أخاً عربياً.

وهكذا تردى العرب في هاوية الإنحلال الإجتماعي، وسقطوا في حضيض الإنهيار الخلقي.

أما المرأة فإنها بنتاً وزوجة كانت لا تملك أية حقوق تذكر، كانت البنت محرومة من الميراث، وذلك إذا نجت من الوأد في صغرها، ودسها بالتراب في حالة الحياة لتعيش في ذلة، والزوجة يعدها الزوج من الأمتعة ويتصرف فيها كما يشاء، حتى إنه يتنازل عن زوجته ويعطيها لغيره إذا شاء ذلك مقابل عوض، أو بصورة هبة، ولا بد لها من الإطاعة.

وكان العرب في الجاهلية يرثون النساء كرهاً، وذلك على تقليدهم الجاهلي، وهو: إذا مات رجل وأورث مالاً وترك زوجته، قامْ وارث وألقى ثوبه على زوجة المورث (المتوفي)، ثم يعلن للناس ويقول: ورثت زوجته كما ورثت ماله، وبهذا يصبح أحق بها، فإن شاء تزوجها بلا صداق، أو زوجها لغيره واستوفى صداقها، أو يحرم عليها الزواج ويحفظها عنده لخدمتها له أو الحصول على مالها إذ كان لها مال، وكان تعدد الزوجات ليس له حد. فكان الرجل من قريش (وغيرهم) يتزوج ما يشاء من النساء مثلاً عشرين أو أكثر، ثم إذا صار (بسبب كثرة الأزواج والأولاد) عائلاً قصد إلى مال يتيم تحت كفالته.

كما أن الطلاق كان تابعاً لهوى الرجل، بحيث لا يستند على مصلحة مشتركة أو حكمة، حتى أن الرجل كان من حقه أن يطلق إمرأته ألف مرة ويرجع إليها ألف مرة.

هذا. وقد تخلت ساحة الحياة في الجاهلية عن أحكام دين صحيح، لأن النصرانية قد حرفت تحريفاً، بل ارتحلت من بين أكثر القبائل العربية، فحلت الوثنية وعبادة الأصنام محل الدين، ووصل الجهل إلى حد أن بعضهم كانوا يتوهمون الألوهية في شخص أي حيوان لكثرة فائدته أو شدة ضرره.

وبعضهم يعتقدون المعبودية في الكواكب، وبعضهم في الاشجار والأحجار، وكانوا لا يملكون علماً يهتدون به، أو قانوناً (ولو وضعياً) يعيشون باتباعه.

وفي النتيجة كان ضمير الإنسان الجاهلي قد انحط إلى درجة الوحشية بحيث آثر الرذيلة على الفضيلة، واختار الجهالة على العلم والحكمة.

فلم يكن في حياة الفرد راحة، ولا في حياة المجتمع أمن وهدوء.

وقد اعترف المنصفون الأجانب بما أشرنا إليه آنفاً من وقوع التحريف والفساد في دين النصرانية وعدم صلاحيته لنظام الحياة البشرية.

١ ـ قال موير[1]، في كتابه «ترجمة محمد»: «إن النصرانية في القرن السابع للميلاد قد أصبحت فاسدة مشوهة».

٢ ـ وقال جيبون: «إن النصرانية في القرن السابع للميلاد، قد تحولت إلى وثنية، فقد أصبحت الوجوه تولي شطر الأصنام والأنصاب التي حلت محل الهياكل والمعابد، وأخذ مكان عرش الله وعظمته الشهداء والقديسون، ونسب الضالون المضلون صفات الله إلى السيد المسيح عليه السلام وإلى أمه البتول، وحارت الأفهام في معنى التثليث، والاتحاد والحلول، وعموا عن التوحيد».

٣ ـ وقال مستر ادوارد ورمسي المستشرق الأمريكي بتفصيل في هذا الموضوع: «قبل أن نشرح علاقة الإسلام بالمدينة الحديثة وأن نبين المركز الرفيع الذي يحله بين الديانات العظيمة المعروفة، يجب علينا أن نرجع إلى الأيام التي سلفت قبل ظهور النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) ونتبين ما كان عليه سكان البادية من عبادة الأصنام ووخيم العادات، ثم نبحث عن الأصلاحات التي أدخلها النبي الكريم في شبه الجزيرة لأن الأشياء تتميز بضدها.

كانت بلاد العرب غارقة قبل الإسلام في أحط الدركات، حتى أنه ليصعب علينا وصف الخزعبلات التي كانت سائدة في كل مكان. فالفوضى العظيمة التي كان منهمكاً فيها أناس، في ذلك العصر، وجرائم قتل الأطفال، ووأد البنات وهن أحياء، والضحايا البشرية التي كانت تقدم باسم الدين للأصنام، والحروب الدائمة بين القبائل المختلفة والنقص المستقيم في نفوس البلاد، وعدم وجود حكومة قوية، كل هذا كان سبباً في سيادة الهمجية وازدياد الجرائم وانتهاك الحرمات.

---

(١) مستشرق بريطاني ولد عام ١٨١٩ ـ وتوفى عام ١٩٠٥.

وهذه حقائق ثابتة يحملها التاريخ إلينا ولا نستطيع إنكارها.

كانت بلاد العرب في حالة تشوش وبلبلة وفوضى منتشرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ أية أمة. حتى إن بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام لإقامة الشعائر الدينية فيه، حول إلى معبد يحتوى على أربعمائة صنم، لكل قبيلة صنم يعبدونه.

وأما الأديان السماوية التي جاء بها موسى وعيسى عليهما السلام، وغيرهما من الأنبياء، فقد فقدت نقاءها وفضيلتها الأصلية، وعبثت بها أيدي اللاعبين. فحرفوا كلام الله ولوثوا معتقداتهم بخزعبلات واعتقادات لم ينزل الله بها من سلطان، حتى أصبح الناس لا يكادون يفرقون بين الفضيلة والرذيلة.

وبالإختصار كان العرب يعيشون في جو فاسد مملؤ بالغبار والميكروبات، حتى إن مجرد ذكرى هاتيك الأيام تقشعر منها النفوس، ثم قال:

هكذا كانت حال سكان شبه جزيرة العرب، وتلك عاداتهم حينما جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) شارحاً للعالم رسالة الله الواحد القهار، حاملاً بيده اليمنى الهدى والفرقان (كتاب الله عز وجل) وبيده اليسرى نور المدينة الوضاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهناك بزغ فجر عصر جديد كان يرى في الأفق وبشرت الأيام بسطوع شمس العرفان، وانقشاع سحب الجهالة المظلمة التي أخفت النور السماوي عن أبصار الناس زمناً طويلاً، وأتى اليوم الذي أعادت فيه يد المصلح العظيم (محمد صلى الله عليه وسلم) ما فقده المجتمع الإنساني من العدل والحرية والتسامح والفضيلة».

أقول: هذه اعترافات ثلاثة من اعترافات المنصفين الأجانب، فيما يتعلق بوقوع التحريف والفساد في دين النصرانية، وسوء حالات العرب قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. اكتفينا في روايتها.

وفي هذه كفاية، لمن له دراية.

«بعثة محمد صلى الله عليه وسلم»

نعم: إن الحالة الدينية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية في العالم كانت قبل بعثة محمد نبي الإسلام، ورسوله عليه الصلاة والسلام، في غاية من الجهل، وانهيار الخلق والفوضى والفساد والظلم، والإعتداء على الحقوق وتسلط القوي على الضعيف والغني على الفقير.

وبالإجمال كان العالم قد غشيته سحابة كثيفة لا يمكن الحياة المطمئنة الآمنة تحتها، وقد حل المنكر محل المعروف، وقبض أهل السؤ والأهواء على ناصية الأمم، يحكمون عليها كما توحى أهواؤهم وتشتهي أنفسهم، لا يرون إلا مصلحتهم، تاركين مصالح الأمم والشعوب وراءهم ظهرياً. وبهذا وذلك تجلت الضرورة القاهرة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، واقتضت الاوضاع الدولية والظروف التي تعيش فيها الملل على اختلاف أنواعها وأجناسها، رسالته الحقة التي تبشر الكتب السماوية بمجيئه نبياً ورسولاً من الله العلى القدير إلى العالم البشري، لينقذه مما هو عليه من المصائب الروحية، والمادية، ويهديه نحو حياة شريفة في الدنيا وسعادة خالدة في الآخرة، فكان من فضل الله عز وجل وكرمه وعطفه ورحمته على العالم الإنساني أن بعث العربي القرشي محمداً بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بأول وحي أنزله إليه من القرآن الكريم، وكان ذلك بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة، (يوليو سنة ٦١٠ من تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام).

ثم أنزل الله تعالى قوله الكريم في كتابه المجيد: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم» وقوله: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً» وقوله: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وذلك إعلاماً على العالم البشري بمجيء رسول من أنفسهم وأنه بشر مثلهم، وأنه حريص على اهتدائهم نحو الحق والخير، وأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين.

وأنه أرسله الله سبحانه للناس كافة لا تختص رسالته بقوم دون قوم، وإنما

تعم على أقوام العالم البشري عربياً كان أو عجمياً، بدون امتياز بين جنس وجنس، أو تفريق بين عنصر وعنصر، كما أعلم الله سبحانه أنه إنما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين أجمعين.

وكان في الحقيقة رحمة كاملة شاملة للعالمين، فقد أخرج الناس في العالم من الظلمات إلى النور بإذن ربه، وهداهم إلى صراط مستقيم، فأحدث في العالم انقلاباً عظيماً في جميع شئونه الحيوية، وأتى له بقرآن يهدي للتي هي أقوم، وسن له سنة مقدسة وطريقة مستقيمة، وأخرج من القرآن والسنة قانوناً سماوياً أبدياً لجميع الناس في العالم الإنساني، يعيشون في ظل حكمه عيشة مرضية، ويحيون بفضل اتباعه حياة طيبة، يسعد الفرد في ظله الظليل، ويسعد المجتمع بالتقدم في الحضارة والرقي الصحيح والتمدن المشروع، وذلك في حرية معقولة ومساواة مرغوبة، وأمن سائد، وأماني مطلوبة، التي لم يسبق مثلها في تاريخ الأمم السالفة كلها.

نعم: أعد لهم من كتاب الله وسنة رسوله قانوناً قدسياً يتمشى مع فطرتهم البشرية، وتتفق ومقتضيات عقولهم الإنسانية، ويبقى بقاء الحق دستوراً مقدساً أبدياً لشئونهم الحيوية، ما دام البقاء في ساحة هذا الكون إلى يوم القيامة.

ذلك القانون السماوي القدسي، القانون الفطري، القانون العالمي، القانون الخالد الأبدي، الذي أصبح بإذن الله مصدراً لاجتهاد المجتهدين في إصدار الأحكام الفقهية، ومأخذاً أصلياً لتقنين المقننين في وضع القوانين الوضعية، مما تدعو إليه حاجة الأمة المحمدية في فترات حياتهم الإجتماعية.

نعم: أعد لهم رسول الإسلام ذلك، ثم وجه ضمائر العالم إلى ما هناك فقال: «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله» وأبلغ إلى الناس كافة آخر ما أنزل الله إليه من القرآن الكريم: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً». والحمد لله على ذلك.

هذا. وقد سبق في قسم سرعة انتشار الإسلام من هذا الكتاب أن ذكرنا معاداة المشركين، ولا سيما صناديد قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم صبر أولى العزم من الرسل على أذاهم له ولأصحابه، وكيف أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة بعد أخرى، إلى أن التحقوا به صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة، وانتشار دينه وغلبته على أعدائه، وذلك سنة ست من الهجرة.

«الإيذاء بالأصحاب رضى الله عنهم»

أشرنا آنفاً إلى ما ذكرناه في موضوع إيذاء قريش بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإلى القراء الأعزاء بيانه، وما آل إليه من هجرته إلى الحبشة:

لم يختص إيذاء المشركين وصناديد قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تعدى على كل من آمن به، فقد كانوا يستندون على قوتهم بين القوم، ويستغلون ثروتهم، حيث يستضعفون المسلمين، فيكيلون عليهم أنواع الإيذاء، ويبلونهم بالفتنة ومختلف البلاء، مما تقشعر به الأبدان وتشمئز منه نفوس الإنسان.

وقد ذكره المؤرخون في كتب السيرة بكل تفصيل وبيان، مما لا يذر الشك في فداحته عند أهل الضمير والوجدان، وترق له القلوب إن كان لها إحساس من قلوب الجنة والناس.

فكان الأصحاب رضي الله عنهم يدخلون على رسول الله ﷺ، بين مضروب ومشجوج يطلبون الإذن للقتال مع المشركين والمنافقين للذود عن دينهم الحق والدفاع عن أنفسهم وكرامتهم الإنسانية، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يواجه أصحابه بقوله المأثور: «صبراً، فإني لم اؤمر بالقتال».

ثم أشار إلى أصحابه بالهجرة إلى الحبشة حيث قال: «لو خرجتم إلى الحبشة فإن فيها ملكاً عادلاً لا يظلم، حتى يجعل الله لكم مخرجاً وفرجاً»، وكان الغرض الفرار بدينهم من تعرض المشركين، والإبتعاد بأنفسهم من أذاهم

المستمر، فهاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان ذلك سنة خمس من البعثة، وعادوا إلى قريش، وعلى رأسهم عثمان بن عفان رضى الله عنهم مع زوجته رقية رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا قلة، وفي الكثرة بعض تسلية، والمثل العربي يقول « إذا عمت البلوى خفت» مع أنهم كانوا في حسن ترحيب وحفاوة من قبل النجاشي امبراطور الحبشة، فقد كان كما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم لما قاطعت قريش بني عبد مناف لأنهم رفضوا مطالبتهم تسليم رسول الله لهم، وأرغموهم للخروج من مكة إلى شعب أبي طالب والرسول صلى الله عليه وسلم معهم، وكتبوا في هذا الشأن صحيفة المقاطعة، لا يبيعون لهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً، ووضعوها في جوف الكعبة.

أريد أن أقول: لما وقع هذا، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه جميعاً بالهجرة مرة ثانية إلى الحبشة فهاجر إليها أكثرهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه، وكان عدد المهاجرين اثنين وثمانين رجلاً، عدا النساء والصبيان.

فأقاموا بالحبشة مكرمين، وقد رفض النجاشي طلب قريش لإعادتهم إلى مكة، حينما بعثوا إليه وفداً برئاسة عمرو بن العاص (قبل الإسلام) لهذا الغرض، ولم يكتف النجاشي برفض طلبهم، بل أبدى إسلامه حينما سمع سورة مريم من قراءة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، والقصة طويلة معروفة. حتى رجعوا والتحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة بعد هجرته غلبته على أعدائه وخصومه، وانتشار دينه الحق وظهوره على الدين كله، وكان لك سنة ست من الهجرة.

ومما يذكر هنا: أن صحيفة المقاطعة نقضت بعد ثلاث سنوات، فقد قام خمسة رجال من أشراف قريش يطالبون بنقضها، وعلى رأسهم زهير بن أبي مية حيث طاف بالبيت، وأقبل على الناس فقال: «يا أهل مكة أنأكل الطعام

ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب (ولدا عبد مناف) هلكى، لا يبيعون ولا يبتاعون؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة (الظالمة القاطعة) فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة بن الأسدي لأبي جهل: أنت والله أكذب أرضينا كتابتها حين كتبت؟ فقال أبو البحتري بن هشام الأسدي صدق زمعة، وقال المطعم بن عدى النوفلى صدقتما وكذب من قال غير ذلك! ثم قام المطعم إلى الصحيفة وأخرجها من جوف الكعبة إلى الناس فشقها، وكانت الأرضة قد أكلتها، فلم يبق منها إلا ما فيه اسم الله سبحانه معجزة لصدق رسالة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم وقد أخبر عمه أبا طالب عن هذا الأمر قبل أن يفعل، وبهذا خرج بنو عبد مناف من الشدة الشاملة التي كان منها أنهم كانوا يأكلون أوراق الأشجار سداً لشدة الجوع.

«وفد نجران»

وبعد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعب، وفد عليه نفر من نصارى نجران، ذلك لأن خبر بعثة النبي بلغهم من مهاجري الحبشة، فسارعوا إليه حتى يعرفوا حقيقة تطبيق صفاته على ما اطلعوا عليه في كتبهم السماوية، وكان عددهم ما يقرب من عشرين رجلاً فآمنوا كلهم، لأنهم لما حضروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم القرآن، فطعن عليهم عدو الله أبو جهل قائلاً: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم لتعلموا خبر هذا الرجل فصبأتم (أى خرجتم من دينكم ودخلتم في دينه) فقالوا سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين. لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، فأنزل الله سبحانه: «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين».

(الآية ٥٥ من سورة القصص

وكان كفار مكة يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر مرة، وبالكهنانة أو الجنون مرة أخرى، شأنهم شأن المعاند الذي عجز عن المقاومة بالحجة، حتى أنهم من شدة عجزهم أصبحوا يقولون كما أخبر الله عنهم «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذاب أليم».

(الآية ٣٢ من سورة الأنفال).

«وفاة خديجة رضى الله عنها»

وقبل الهجرة بثلاث سنوات (بعد الخروج من الشعب بقليل) توفيت خديجة بنت خويلد زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ما يذكرها ويسترحم الله عليها، فقد كانت أول امرأة استبشرت بمعالم النبوة لرسول الله في المستقبل، وطلبت زواجه بها، وأول امرأة خففت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثقال الوحي بأن بشرته بالخبر ثم جاءت به إلى إبن عمها ورقة بن نوفل لمزيد اليقين بشأنه، وأول امرأة صدقته في رسالته، وآمنت به، مما يمثل دور المرأة عند الحوادث وإخلاصها وتفانيها بشأن زوجها ومسارعتها في سبيل تأييد الحق ونصرته وقبوله. ثم موقفها ضد الكفار بما له من الجاه في عشيرتها بني أسد. إذن كانت وفاة خديجة (ولا سيما عند اشتداد عداوة الأعداء) مما دعا إلى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، مع أنها هي التي جاءت بأولاد الرسول صلى الله عليه وسلم من ذكور وأناث (ما عدا إبراهيم) ولم يعش أحد من أولادها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فاطمة التي لحقته بعد قليل، وقد أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأى بكاءها وهو محتضر، كما في الحديث الصحيح.

وتوفي (بعد خديجة رضى الله عنها بنحو شهر) عمه أبو طالب الذي كان يناصر الرسول صلى الله عليه وسلم ويدافع عنه أمام أعدائه صناديد قريش، ومع أنه كان لا يكذبه بل يصدقه لم يتيسر له النطق بالشهادتين، وكان الرسول

صلى الله عليه وسلم يتمناه، وفي ذلك نزل قول الله سبحانه: «إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين».

(الآية ٥٦ من سورة القصص).

«خروجه إلى الطائف»

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة ثقيف بالطائف يستنصر بهم على قريش، وكان له فيهم خؤولة وهو أقرب مسافة إلى مكة، فقابل رؤساءهم، ولكنهم رفضوا نصرته، ثم أرسلوا سفهاءهم يقفون في وجه رسول الله صلى عليه وسلم وهو في الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقب قدمه المبارك، وكان مولاه زيد بن حارثة (الذي كان في معيته) يدرأ عنه. إلى أن أنتهى إلى شجرة كرم، واستظل بها وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما من أعدائه، فدعا ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين» فأوقع الله سبحانه رقة في قلبي إبني ربيعة، وأرسلا إليه يقطف من العنب مع مولاهما عداس، فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل العنب قال «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال عداس: هذا كلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له: من أى البلاد أنت وما دينك؟ فقال عداس: نصراني من نينوى (بلد على شاطىء دجلة أمام مدينة موصل) فقال: من قرية يونس بن متى. قال: وما علمك بيونس، بن متى؟ فقرأ الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم قصة يونس، فأسلم عداس. وهنا جاء جبريل من عند الله وقال: «إن الله أمرني أن أطيعك في قومك (أى في إهلاكهم أو تعذيبهم) لما صنعوه معك. ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرض بذلك، وإنما دعا ربه سبحانه وقال: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

فقال جبريل: «صدق من سماك الرؤوف الرحيم».

أقول: إذا نظرنا إلى قصة الطائف نظرة فإننا نستطيع أن نقول: إنها لم تعد خالية عن نتيجة تاريخية، فقد أعقب إسلام عداس (غير خائف من سادته) ما

لا يخلو (ولم يخل) من أثر طيب في قلوب المنكرين للحق (عن طريق الضمير الإنساني) مع ما في هذه القصة من عبرة للمجاهدين، وأسوة حسنة للمناضلين في سبيل الحق.

ومن نتيجة هذه القصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل ببطن نخلة (عند عودته إلى مكة) قام يصلي في جوف الليل، فمر به نفر من جن نصيبين، وكانوا يقصدون اليمن وذلك حينما منعوا من استراق السمع من السماء، فاستمعوا لقراءة رسول الله ﷺ فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين بعد أن آمنوا به واجابوا لما سمعوا القرآن فقص الله سبحانه خبرهم على رسوله حيث قال: «وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا انصتوا، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى طريق مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجزيكم من عذاب أليم، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض، وليس له من دونه أولياء، أولئك في ضلال مبين».

(الآية ٢٩ ـ ٣٢ من سورة الأحقاف).

هذا وقد أمر الله رسوله أن يخبر إلى الناس بهذه القصة حيث قال: «قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً» الخ.. من أول سورة الجن.

أقول: وبهذه الآيات وما ذكرنا قبلها من الآية ثبت أن محمداً بن عبد الله ﷺ مبعوث إلى الجن أيضاً كما هو مبعوث إلى الإنس، والآيات كثيرة في هذا الباب مع الاحاديث الصحيحة.

هذا. وكانت قريش على علم من ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف واستنصاره ثقيفاً ضدها، مع أطراف القصة، ولهذا فإن الرسول ﷺ لما قرب من مكة أرسل إلى المطعم بن عدى النوفلى يخبره أنه سيدخل مكة في

جواره، فأجابه المطعم إلى ذلك وتوجه هو وبنوه (وهم مسلحون) مع رسول الله إلى المطاف، فلما رآهم المشركون قالوا له: أمجير أنت ، أم تابع؟ فقال: بل مجير، فقالوا: إذن لا نخفر ذمتك.

«وفد دوس»

ثم وفد على رسول الله ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي من قبيلة دوس عشيرة أبي هريرة رضي الله عنه، وكان الطفيل شريفاً في قومه ذا مكانة مرموقة، فلما قرأ رسول الله ﷺ بعض سور من القرآن المجيد آمن به وأسلم وحسن إسلامه، فقال له رسول الله: «إذهب إلى قومك وادعهم إلى الإسلام»، كما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم بدعائه المأثور بشأن دوس حيث قال: «اللهم أهد دوساً» فتوجه الطفيل إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فآمن كثير منهم. وبهذا انتشر الإسلام في قبيلة دوس قبل هجرته ﷺ إلى المدينة.

«الإسراء والمعراج»

وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، قبل الهجرة بسنة ـ ٦٢١م. على ما حقق وقال به المؤرخون حدث الإسراء والمعراج، فقد أسرى برسول الله ونبي الله محمد بن عبد الله ﷺ في هذه الليلة من المسجد الحرام بمكة المكرمة، إلى المسجد الأقصى بإيلياء (بيت المقدس) ثم عرج به إلى السموات، سماء بعد سماء، إلى سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى، وإلى عرش الرحمن، وكان جبريل في معيته في كل من الإسراء والمعراج إلى حيث يسمح له مقامه، وإنما ذلك مرسلاً من عند الله العلي القدير، إكراماً لعبده ورسوله ونبيه وحبيبه محمد ﷺ.

وكان الإسراء والمعراج في اليقظة بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم، على ما وصل إليه تحقيق المحققين من السلف والخلف، ولم يكن بروحه فحسب، ولا في نومه حلماً كما ظنه البعض.

«أما الإسراء»

أما الإسراء فقد ثبت بالآية الأولى من سورة الإسراء ثبوتاً لم يترك وراءه أى شك أو تردد لمن آمن بالقرآن وأدرك رموزه، فقد قال الله عز وجل: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير».

(الآية الأولى من سورة الإسراء).

وإذا نظر المؤمن إلى نص هذه الآية ورموزها، فإنه لا يتردد في التصديق بأن حادث الإسراء كان في اليقظة وبالروح والجسد لا غير، وذلك بوجوه:

الأول: أن تصدير الآية بكلمة «سبحان» في صيغة الإخبار عن هذا الحادث، يدل على أنه كان في اليقظة وبالروح والجسد، ذلك لأنها كلمة الإجلال والتنزيه. تقرع قلوب العالم البشري (في سياق هذه الآية) بأن الله الذي أحدث هذه المعجزة الكبرى، والآية العظمى، إكراماً لعبده ونبيه ورسوله محمد ﷺ) يستحق الإجلال والتنزيه.

ومن المعلوم أن هذا الحادث لا يكون معجزة كبرى ولا آية عظمى حتى تنال هذا التصدير، إلا أن يكون (كما كان) في اليقظة وبالروح والجسد.

الثاني: إن لفظ «بعبده» يدل على ذلك دلالة يعترف بها أهل اللغة العربية والاصطلاح العربي: فإن العبد إنما يكون عبارة عن الروح والجسد معاً، وهذا شيء لا يتردد فيه أهل العلم.

الثالث: أن قوله تعالى: «لنريه من آياتنا» ينص على أن الغاية المقصودة من الإسراء إنما هي إراءة آيات الله، الأمر الذي لا يحصل إلا في اليقظة وبالروح والجسد، والذي لا يسوغ النزاع فيه، عند من يدقق النظر في هذا النص الصريح.

«أما المعراج»

أما المعراج (وهو العروج به ﷺ إلى السموات، إلى سدرة المنتهى، إلى عرش الرحمن سبحانه) فإنه ثبت أيضاً بالآيات (كما ثبت الإسراء) وبالأحاديث الصحيحة التي رواها أئمة الحديث وعلى رأسهم الإمام محمد بن عبد الله البخاري، والإمام مسلم بن حجاج القشيري، وقد إتفقت الأئمة على أن أصح الكتب بعد كتاب الله صحيح البخاري ثم صحيح مسلم، (راجع شرح القسطلاني وشرح النووي).

أما الآيات فهي قوله عز وجل: «ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى».

(الآية ٨ ـ ١٨ من سورة النجم)

«تفسير هذه الآيات»

وإلى القراء الكرام تفسير هذه الآيات، اعتماداً على رأي جماعة من المفسرين.

قوله تعالى «ثم» أى بعد عروج محمد ﷺ إلى السموات والتقدم إلى حيث تقدم «دنا» أى قرب الرب سبحانه من محمد ﷺ وسلم، «فتدلى» أى فزاد في القرب «فكان قاب قوسين» مقدار قوسين «أو أدنى» أو أقرب، وهذا تعبير للتفهيم طبق اصطلاح العرب، وهم يقولون في محادثاتهم «هذا قدر رمحين أو أنقص» مثلاً، والقرآن أنزل بلغتهم وعلى اصطلاحهم، بحيث روعى في صيغ إنزاله وسياقه ما يتفق مع فهمهم.

وقال الضحاك في تفسير الآية: دنا محمد من ربه سبحانه «فتدلى» أى فأهوى للسجود له عز وجل.

أقول: وهذا أرجح في رأيي، لأنه متسق مع مفهوم الآيات التالية. «فأوحى» الرب سبحانه «إلى عبده» محمد «ما أوحى» والتنكير تفخيم لما أوحي إلى محمد ﷺ من ربه سبحانه، في ذلك المقام العظيم من القرب، «ما كذب الفؤاد» أى فؤاد محمد ﷺ «ما رأى» أى ما رآه ببصره، بل صدقه وأيقن به.

«وهل رأى محمد ـ ربه ـ سبحانه؟»

وهنا قال جماعة من المفسرين: المرئي هو الله سبحانه، فقد رأى محمد ﷺ ربه سبحانه ليلة الإسراء والمعراج بعيني رأسه حقيقة، وهو رأي أنس بن مالك

وأبي ذر الغفاري، والحسن (وكان يحلف عليه) وعكرمة، كما روي مثله عن إبن مسعود وأبي هريرة، والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين.

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ـ أنه قال: «رآه بفؤاده» أى بقلبه.

أقول: يعني أن هذا رأي مفسر الصحابة إبن عباس ـ رضي الله عنه ـ في تفسير هذه الآية قول له.

ولكن الأرجح هو الرأي الأول، فقد روى عكرومة عن إبن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال:

«إن الله عز وجل اصطفى إبراهيم بالخلة» حيث اتخذه خليلاً، «واصطفى موسى بالكلام» حيث كلمه الله تكليماً، «واصطفى محمداً بالرؤية»، حيث رآه في ذلك المقام من القرب في المنزلة.

وهذه الرواية أقرب في معنى الرؤية، إلى ما ذهب إليه الجماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

وليس ذلك ببعيد عن العقيدة، نظراً إلى ما لمحمد ﷺ عند ربه من مقام فوق المقامات، ودرجة على الدرجات، ذلك المقام الذي لم ينله أحد من الأنبياء والمرسلين، كالمقام المحمود مقام الشفاعة الكبرى يوم القيامة وغيره.

ورحم الله الإمام البوصيري حيث يقول:

سريت من حرم ليلا إلى حرم
كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقي إلى أن نلت منزلة
من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها
والرسل تقديم مخدوم على خدم

وأنت تخترق السبع الطباق بهم
في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق
من الدنو ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ
نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصل أى مستتر
عن العيون وسر أى مكتتم
فحزت كل فخار غير مشترك
وجزت كل مقام غير مزدحم

قوله تعالى «أفتمارونه» أى أفتجادلون محمداً ﷺ «على ما يرى» فتجدونه؟

أما قوله سبحانه: «ولقد رآه نزلة أخرى» فقد روي في تفسيره عن إبن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يعني نزلة أخرى هو أنه كانت للنبي ﷺ في تلك الليلة عرجات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات (ما في حديث المعراج الذي رواه الإمامان البخاري وسلم بالأتفاق) فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه عز وجل في بعضها».

وروي عن كعب رضي الله عنه أنه قال: أن الله قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد ربه مرتين. أخرجه الإمام الترمذي.

وإني أقول: ولا يبعد أن يكون مقام الكلام أيضاً قد حصل في ليلة المعراج لمحمد ﷺ، يدل عليه رجوعه إلى ربه سبحانه مرات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات من خمسين صلاة إلى خمس صلوات في كل يوم وليلة، وقد جاء فيه: إن موسى يقول لمحمد: (بعد التخفيف إلى خمس) أيضاً. إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات في كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك واسأله التخفيف لأمتك. فيقول محمد

ﷺ: «سألت ربي» أى مرات «حتى استحييت» أى عن السؤال مرة أخرى. «ولكني أرضى» أى بهذا التخفيف الذي حصل، «وأسلم» أى أفوض أمري وأمر أمتي إلى الله عز وجل.

وفي سياق هذا الحديث ما يشير إلى أن مقام الكلام مع الله سبحانه ربما حصل هو أيضاً لمحمد ﷺ، فتأمل! مع ملاحظة أن مقام الرؤية فوق مقام الكلام بلا نزاع.

وقد حصل لمحمد - ﷺ - ولم يحصل لموسى عليه السلام مع حصول مقام الكلام.

ويدل عليه نص قوله سبحانه: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال: رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين». (الآية ١٤٣ الأعراف).

كان هذا (أعني حصول مقام الكلام أيضاً لسيدنا محمد ﷺ) مما أراه وأعتقد به إلى مدة كرأي شخصي عندي، حتى أطلعت على ما يؤيده، ألا وهو ما روي عن الإمام الأشعري وجماعة من المتكلمين أنه كلمه، وقد عزا بعضهم هذا القول إلى جعفر بن محمد، وإبن مسعود وإبن عباس، رضي الله عنهم أجمعين. (راجع الصفحة ٢٥٢ المجلد الرابع من تفسير الإمام العلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن).

قوله «عنده سدرة المنتهى» وهي شجرة في السماء السابعة عن يمين العرش، على ما رواه الإمام النسفي عن الجمهور في تفسيره. أما وصفها بـ «المنتهى» فهو بمعنى أنها لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهي علم الملائكة. وغيرهم ولا يعلم أحد ما وراءها. «عندها جنة المأوى» أى الجنة التي يأوي ويصير إليها المتقون.

وقوله سبحانه «إذ يغشى السدرة ما يغشى» تعظيم وتفخيم لما يغشاها، وتصريح بأن ما يغشى تلك السدرة من الخلائق الدالة على عظمة الله وقدرته

وجلاله، أشياء لا يحيط بها الوصف كما أفاد الإمام النسفي في تفسيره. «ما زاغ البصر» أى ما مال بصر محمد ﷺ، إلى يمين أو شمال في ذلك المقام المقدس، وفي تلك الحضرة المقدسة. «وما طغى» أى وما عدل عن رؤية العجائب من آيات ربه الكبرى، التي أمر بها محمد من عند ربه سبحانه.

وفي ختام الآيات قال الله عز وجل: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى». وبهذا أكد حصول رؤية محمد ﷺ لآياته ودلائل عظمته، وهذه الرؤية هي الغاية من حادث الإسراء والمعراج، التي نص عليها بقوله: «لنريه من آياتنا».

«إلقاء ضوء جديد على الموضوع»

لقد قلنا فيما سبق من الفصل: إن حادث الإسراء والمعراج، كان في اليقظة وبالروح والجسد على ما وصل إليه تحقيق المحققين من السلف والخلف. ولم يكن في النوم حلماً، ولا بالروح فحسب كما ظنه البعض، وأثبتنا القول بالوجوه الثلاثة التي استنبطناها من قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حمله، لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير».

(الآية ١ من سورة الإسراء).

ثم أثبتناه بقوله عز وجل «ثم دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، افتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى».

(الآية ٧ ـ ١٨ من سورة النجم).

نعم: أثبتنا المدعي بالإستنباط عن هذه الآيات أيضاً بعد ما فسرناها إعتماداً على رأي جماعة المفسرين.

وها نحن إلقاءلضوء جديد على الموضوع، لمزيد إفادة القراء الأعزاء نقول:

ومما يدل على أن حادث الإسراء والمعراج كان في اليقظة وبالروح والجسد معاً، وقوع المماراة والمجادلة ضده، كما يشير إليه قوله تعالى: «أفتمارونه على ما يرى» ضمن تلك الآيات.

فإن التاريخ يروي لنا أن رسول الله ﷺ لما أصبح ذهب إلى حيث تجتمع قريش، فحضر إليه أبو جهل بن هشام عدوه اللدود، فحدث له عن حادث الإسراء والمعراج الذي وقع له في الليلة الماضية، فنادى أبو جهل: يا بنى كعب بن لؤى هلموا! فأقبل عليه كفار قريش، فلما أخبرهم الرسول ﷺ الخبر، صاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه، وكان ذلك تعجباً وإنكاراً منهم لذلك الحادث العظيم الخارق العادة، حيث قالوا: «والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع؟».

حتى إن بعضاً من ضعاف الإيمان ارتد، كما سعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه وحدثوا له الحادث استطلاعاً لرأيه، فقال: إن كان رسول الله قال ذلك فقد صدق! قالوا: أتصدقه على ذلك؟. قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك! وأشار أبو بكر رضي الله عنه ضمن قوله لهم إلى نزول جبريل بالوحي من السماء وعروجه في وقت وآخر، فمن آمن بهذا فإنه يصدق بحادث الإسراء والمعراج وبالطريق الأولى، ولكن الكفار داموا في مماراتهم ومجادلتهم حتى قاموا يمتحنون رسول الله ﷺ. حيث سألوه وصف بيت المقدس بحضور رجال رأوه. أما رسول الله ﷺ فلم يكن رآه قبل ذلك، ومع ذلك فإنه كان يصفه لهم باباً باباً وموضعاً موضعاً، بنصره الله له في سبيل إثبات الحق. فقال الكفار: أما الوصف فقد أصاب. ثم قالوا فأخبرنا عن عيرنا ـ وكان لهم عير (قافلة) قادمة من الشام ـ فأجابهم رسول الله ﷺ قائلاً: «تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يتقدمها جمل أورق».

فخرج الكفار في ذلك اليوم نحو الثنية خارج مكة بكل حرص ليعلموا ما أخبرهم به الرسول محمد. ولم يمضِ وقت من انتظارهم حتى قال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرقت! فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يتقدمها

جمل أورق كما قال محمد!

وفي نتيجة ذلك تاب من ارتد، ولكن الكفار وفيهم أبو جهل وغيره من صناديد قريش لم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً، فقالوا هذا سحر مبين، قولة العاجز عن المقاومة بالحجة.

والغرض من رواية التاريخ أن دهشة الكفار عند سماع حادث الإسراء والمعراج عن رسول الله ﷺ، وإنكارهم له، وممارتهم ومجادلتهم وقيامهم بالإمتحان إنما كان يبتني على أن حادث الإسراء والمعراج الذي أخبرهم به محمد، كان في اليقظة وبالروح والجسد معاً، ولم يكن في النوم أو بالروح فحسب، وإلا لما دهشوا وما أنكروه وما جادلوه فيه. لأن الإنسان (وحتى الرجل العادي ولو لم يكن نبياً) يرى في نومه كثيراً من الأمور الخارقة للعادة، ثم حينما يروي للناس ما رآه لا تأخذهم دهشة مهما كان المرئي أمراً خارقاً وخارجاً عن تصورهم، لأنهم، يعدونه أمراً عادياً، فلا ينكرونه ولا يتمارون فيه.

هذا، مع أن نص ما جرى من الإمتحان من جانب الكفار، ونص ما جرى من الجواب من قبل رسول الله دليل تاريخي واضح في أن الحادث كان في اليقظة وبالروح والجسد معاً.

وإن مما اتفق عليه الباحثون أنه لا يمكن إنكار ما ثبت بالتاريخ، وإلا لبطل التاريخ في الدلالة على شيء.

«ومما يدل على ذلك»

ومما يدل على ذلك ـ أي أن حادث الإسراء والمعراج كان في اليقظة وبالجسد والروح معاً ـ ما ثبت في ضمن الأحاديث الصحيحة من أن الله سبحانه قد فرض الصلوات الخمس (بعد التخفيف عن خمسين صلاة) في حادث الإسراء والمعراج في تلك الليلة.

ومن المعلوم أن الصلاة ركن من أركان الإسلام، وأنها أعظم شيء يتقرب به

العبد إلى ربه عز وجل، وأنها فارق بين الإيمان والكفر، وهذا أمر متفق عليه بين الأمة المحمدية.

فهل يجوز أن يقال إن ذلك إنما كان في حلم من أحلام محمد ﷺ؟

ولعمري أنه قول لا يتفق ومنطوق العقل الإنساني، والضمير البشري! إذن: إن حادث الإسراء والمعراج الذي فرضت في ضمنه الصلوات الخمس (أو الركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة) كان في اليقظة وبالجسد والروح معاً!

هذا وقد أفاد العلامة القسطلاني في «المواهب اللدنية» أن الحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء والمعراج أنه ﷺ لما عرج به السموات رأى الملائكة في حالات متعددة يعبدّون الله سبحانه، فمنهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد عن السجود، فجمع الله تعالى له ولأمته (في فرض الصلوات الخمس) تلك العبادات كلها في ركعة يصليها عباده المؤمنون. وكان ذلك فضلاً منه ورحمة.

أقول: إن الصلاة معراج المؤمن، حينما يصلي ينقطع عما في الأرض، ويقول: الله أكبر! ويترك ما سواه خلفه ظهرياً ، وذلك بإشارة من رفع يديه، ثم يتوجه إلى الله عز وجل، بقلبه وقالبه، ويحمده ويصفه بما هو أهله، وبهذا يرتقي من مقام الغيبة إلى مقام الخطاب حيث يقول: «إياك نعبد وإياك نستعين» ثم يتقدم بطلبه إلى الله (وكأنه في عروج إلى السماء) ألا وهو الثبات على صراط المستقيم الذي اهتدى إليه. وهذا أيضاً مما يتناسب لفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج، فكأن الصلاة معراج المؤمن، وهو فيها في أقرب ما يكون إلى الله، كما في الحديث.

«إن حادث الإسراء والمعراج معجزة»

والحق إن حادث الإسراء والمعراج معجزة من المعجزات التي أحدثها الله العلي القدير على يدي نبيه ورسوله محمد ﷺ، فإن من طبيعة المعجزة أن تكون خارقة للعادة، خارجة عن تصور الإنسان لتكون دليلاً على أنها من عند الله وهو

على كل شيء قدير، وعلى أن صاحبها على حق وصدق في نبوته ورسالته، وهكذا كان شأن معجزة الإسراء والمعراج في خرقها للعادة وخروجها عن تصور الإنسان. ولكن العاقل إذا تفكر فيها وهو يؤمن بقدرة الله العلى القدير، لا يلبث إلا وهو يؤمن بوقوعها.

إن هناك معجزات وقعت بقدرة الله سبحانه على أيدي الأنبياء والمرسلين كإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، تلك المعجزات التي نقلتها الكتب السماوية وروتها أدوار التاريخ فتلقاها العالم الإنساني بالتصديق ولو بعد جدال، إنتهى إلى الزوال.

إن الله سبحانه جعل الجبال والطير يسبحن مع داود نبيه إذا سبح، ويرجعن معه إذا رجع، كما ألان له الحديد، فكان في يده كالشمع أو العجين يعمل منه درعاً سابغات كوامل واسعات، بدون استعمال نار ولا ضرب مطرقة، وقد أخبر الله به في كتابه (القرآن) حيث قال:

«ولقد آتينا داود منا فضلا، يا جبال أوبي معه والطير، وألنا له الحديد أن أعمل سابغات، وقدر في السرد واعملوا صالحاً، إني بما تعملون بصير».

(الآية ١٠ ـ ١١ من سورة سبأ).

وسخر الله سبحانه الريح لنبيه سليمان وجعلها تحت أمره، فكانت تحمل سليمان ورجاله وحاشيته كلما يريد السفر من قطر إلى قطر، غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر للراكب المسرع في سيره.

مثلاً: تغدو به من دمشق فتصل به اصطخر بفارس وقت القيلولة وبينهما مسيرة شهر، وتروح به من اصطخر فتصل به كابل وقت البيتوتة، وبينهما مسيرة شهر، ويقال كأن سليمان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند.

هذا. كما أسال الله لسليمان معدن النحاس الذي كان لا يذوب قبل ذلك، فكان النحاس يسيل إلى حيث يريد سليمان في كل شهر ثلاثة أيام لسد حاجته منه كما يسيل الماء، وكما سخر الله عز وجل الجن والشياطين لسليمان يعملون له

كبناء وغواص وناقل مواد البناء من كل نوع، ويعملون له ما يريد من مساجد وأماكن وقصور، وقد بنوا له قصوراً وحصوناً عجيبة من الصخر باليمن. وكان من عملهم له بناء بيت المقدس (بعدما بنى داود أساسه ثم توفى) وكرسي سليمان والمسجد الاقصى، كما كانوا يعملون له تماثيل للسباع والطيور، وقصاعاً كالحياض في كبرها، وقدوراً راسيات لا تنقل لعظمتها، وكل قصعة يجلس حولها ألف رجل، وقد أخبر الله عز وجل به في كتابه ـ القرآن ـ حيث قال:

«ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب، وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات، إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور»

(الآية ١٢ ـ ١٣ من سورة سبأ).

فإذا كان سرعة سير الريح لسليمان ورجاله إلى ذلك الحد بتسخير من عند الله وقدرته سبحانه، فلا مجال للشك أو التردد أو المماراة في سرعة البراق المبعوث من عند الله، في الإسراء والمعراج بمحمد ﷺ، حتى يتم في وقت من الليل.

وإذا كان في العهد الأول للإسلام من ينكر ذلك الحادث العظيم أو يتردد في قبوله وتصديقه فلا مجال للإنكار أو التردد في عصرنا هذا. فقد تقدم العلم إلى حد كبير، واستطاع رجال من الرأسماليين، ورجال من الشيوعيين من غزو الفضاء، والوصول إلى القمر والزهرة، والدوران حول الأرض، ذلك بأن الله الحكيم خلق رجالاً اخترعوا أجهزة الأنطلاق، إلى الفضاء بسرعة فائقة،وخلق رجالاً آخرين قاموا بمهمة الأنطلاق، وكان هذا تنفيذاً من عند الله سبحانه لما وعد به عباده في عالم البشرية حيث قال: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد».

(الآية ٥٢ ـ فصلت).

«وقل الحمد الله سيريكم آياته فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون».

(الآية ٩٣ من سورة النحل).

وهذا شيء علمي مادي عادي، والغرض منه معرفة الله خالق هذا الكون العظيم الذي يتضمن أسرار الخلقة وعجائب الطبيعة، كما تنص عليه الآيتان.

وأما ذلك (أى تسخير الريح لسليمان في أسفاره، وتسخير البراق لمحمد في إسرائه ومعراجه) فإنما هو شيء سماوي روحي خارق للعادة، لا يتوقف على العلم ولا يحتاج إلى الأجهزة الأختراعية، والغرض منه إظهار المعجزة تأييداً لصاحبها في دعوى النبوة، والرسالة من عند الله سبحانه، وتصديقاً له في دعوة عالم الإنسانية إلى ما هو الحق، وإلى ما فيه مصلحته في شئون حياته في الدنيا والآخرة.

فكما أن الأول لم يعد بعيداً عن الفعل، بل وقع فعلاً أمام أعين العالم وسماعه، حيث نال تصديقه واليقين به، فكذلك الثاني لم يعد بعيداً عن العقل (ولا سيما العقل البصري) بل وقع كما أخبر به الله سبحانه، وأعترف به التاريخ البشري في أدواره. وماذا بعد الحق إلا الضلال؟.

«بدء إظهار الدين على أيدي غير قريش»

كان رجال قريش قد تسلط الكبر واونانية على قلوبهم، فكلما رأوا من رسول الله ﷺ شيئاً من الحق زادوا عناداً، لذلك فإنهم مع اقتناعهم في ضميرهم بوقوع الإسراء والمعراج كمعجزة كبرى وآية عظمى، لم يؤمنوا به بل قالوا هذا سحر مبين، قولة العاجز عن المقاومة بالحجة والمنطق، كما بيناه في فصل «الإسراء والمعراج».

ولهذا أراد الله عز وجل أن يظهر دينه الحق على أيدي غير قريش من قبائل العرب بدءاً لإظهاره على الدين كله، فكان رسول الله ﷺ يخرج بإذن الله

سبحانه إلى المواسم العربية (وهي الأسواق التي كانت العرب تقوم بعقدها بمكة في كل سنة، تجتمع فيها القبائل من كل صوب لغرض التجارة، وضمناً يلتقي فيها شعراء من كل قبيلة، ينشدون فيها ما أنتجته قرائحهم من القصائد، ويتفاخرون) ويلتقي مع رجال القبائل، ويعرف نفسه بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى إلى الناس كافة ليهديهم إلى الصراط المستقيم صراط الله الذي له ملك السموات والأرض، ويتلو عليهم سوراً أو آيات من القرآن الذي أنزله الله إليه.

ويستميل قلوبهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويطلب منهم حمايته في سبيل الحق (بعدما يشير إلى قسوة قريش ضده، وكبريائهم وإبائهم عن الإيمان بالله وحده، وإصرارهم في اتباع آبائهم، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) وذلك ليتمكن من تأدية رسالته.

نعم: كان رسول الله ﷺ يطلب منهم الحماية ضد قومه قريش لهذا الغرض المقدس.

فكان بعض رجال القبائل يردون رداً جميلاً، وبعضهم يقابلونه بالنخوة الجاهلية، والتعصب الجاهلي، وكان بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب من أقبح رداً، وقد طلب إبن عامر (كبير هذا الرهط) من رسول الله ﷺ أن يجعل أمر الرئاسة لهم من بعده، إن هم آمنوا به، فقال رسول الله ﷺ في الرد: «إن الأمر لله يضعه حيث يشاء»، وبهذا الرد المعقول أسكتهم حيث لم يتمكنوا من الإصرار في هذا الرأي من الطلب.

وكان من الذين يفدون إلى مكة في المواسم العربية، عرب «يثرب» وكانت مدينة بين مكة والشام تقطنها قبيلتان معروفتان، ومع ذلك كانت العداوة مستمرة بين أولاد الأوس والخزرج، بحيث تجعل الحرب تشب نارها بين القبيلتين (الأخوين) آناً بعد آن لأتفه الأسباب.

وكان أقوام من اليهود (وهم بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير يجاورون

الأوس والخزرج في «يثرب» وكان الغلبة على أهل يثرب لليهود في أول العهد، حتى حاربهم العرب وتغلبوا على اليهود مما جعل النفوذ والقوة في يثرب للعرب، وكان اليهود إذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم العرب، باسم نبي يبعث وقد قرب زمان بعثته، ولكن اختلفت كلمة العرب وانشقت عصا الاتحاد والألفة، وبهذا أصبحوا يحالفون اليهود على أنفسهم، حيث حالف الأوس بني قريظة. وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وكان آخر أيام القتال بين القبيلتين «يوم بعاث» وقد قتل فيه أكثر رؤساء العرب فلم يبق في الأوس إلا أبو عامر الراهب، وفي الخزرج إلا عبد الله بن أبي بن سلول، ثم أراد رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً ضد الخزرج، فارسلوا إياس بن معاذ وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة، لكي يتلمسوا الحلف المنشود في قريش بمكة. فجاءهم رسول الله ﷺ وقال: هل لكم في خير مما جئتم له؟ وقد أرسلني الله إلى الناس كافة «ثم تلى عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ: ياقوم هذا والله خير مما جئنا له» ولكن أبا الحيسر قال له: دعنا منك لقد جئنا لغير ذلك.

والغرض من رواية هذه القصة، أنها هيأت فرصة اللقاء بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذلك اللقاء الأول من رجال يثرب، الذي كان بدء اللقاءات التي تمت لمصلحة الإسلام، وإنتشاره في يثرب (المدينة) فقد حصل عندما بدأ الموسم لقاء مبارك بين رسول الله ﷺ، وبين ستة رجال كلهم من الخزرج، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بن مالك من بني زريق، وقطبة بن عامر من بني سلمة، وعقبة بن عامر من بني حرام، وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن عدى.

فدعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام وإلى مناصرته في تبليغ رسالة ربه سبحانه، فقال بعضهم لبعض: إنه النبي الذي كان اليهود يستفتحون باسمه وقرب بعثته، فآمنوا به حتى لا يسبقونكم إليه، فآمن كلهم به وصدقوه، ثم قالوا: أنا تركنا قومنا (يريدون الأوس والخزرج) وبينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك يا رسول الله، فلا رجل أعز منك، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل.

وكان هذا هو بدء انتشار الإسلام بين عرب يثرب، وبداية تكون الأنصار لرسول الله ﷺ، الذين نصروه في هجرته، وآزروه في نشر دينه وشريعته.

وفي العام المقبل في مثل هذا الموسم قدم رجال من الخزرج عشرة، ومن الأوس اثنان وهما أبو الهيثم بن النيهان، دعويم بن ساعدة، وأما العشرة الخزرجيون فهم:

أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ (ابنا الحارث) ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، واجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة، وآمنوا به وبايعوه (على بيعة النساء فيما بعد) وكانت مبايعتهم على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، وأن لا يعصوه في معروف، فإن وفوا بعهدهم هذا فلهم الجنة، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم موكول إلى الله عز وجل، إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم، والله بما يعملون بصير.

«بدأ تعليم القرآن، وتفقيه المسلمين بالمدينة»

ثم إن الرسول ﷺ أرسل إلى هؤلاء المسلمين الذين آمنوا به وبايعوه عند العقبة (وهي تسمى العقبة الأولى) أرسل إليهم وهم بالمدينة صحابيين جليلين وهما: مصعب بن عمير العبدري، وعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنهما.

وإنما ذلك لتعليم القرآن وقراءته لهم ولتفقيههم في أحكام الدين، وبهذا بدأ تعليم القرآن وتفقيه المسلمين بالمدينة لأول مرة.

فنزل مصعب مع صاحبه على أحد أولئك المبايعين وهو أبو إمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنه، وأخذ يدعو بقية الخزرج والأوس إلى الإسلام عن طريق قراءة القرآن عليهم والموعظة الحسنة.

وبينما كان مصعب في بستان مع أسعد بن زرارة، قام لهما أسيد بن حضير،

وقال لهما (وبيده حربته) ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة! فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً رضيته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فجلس أسيد وقرأ عليه مصعب شيئاً من القرآن، فرضيه واستحسن دين الإسلام حيث هداه الله إليه، فشهد بالشهادتين، رضي الله عنه، ورجع أسيد إلى سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس وهو ابن عمه، (وكان سعد هو الذي أثاره على مصعب وصاحبه) وقص له ما فعل وقال: والله ما رأيت بالرجلين بأساً. فغضب سعد حتى قام بنفسه إليهما، فقابله مصعب بمثل ما قابل به سيداً، حتى اهتدى سعد وأسلم وشهد بالشهادتين، رضي الله عنه.

ورجع سعد بن معاذ إلى رجال بني عبد الأشهل - وهو بطن من الأوس - فقال لهم: «ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا» فقال سعد كلاماً حاسماً لا كلام بعده وهو «كلام رجالكم ونساؤكم حرام على حتى تسلموا!» فاستجابوا له، ولم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا وقد أسلم، فأصبح الإسلام منتشراً في دور يثرب (المدينة) إلى حد أنه لم يكن بين أهلها حديث إلا عن أمر الإسلام وشأنه.

وبهذا وذلك كان بدأ إسلام الانصار وانتشاره بينهم انتشار يبشر عن مستقبل الدين الإسلامي في شبه جزيرة العرب.

وفي العام الذي يلي بيعة العقبة الأولى قدم إلى مكة كثير من الأنصار يريدون الحج وبينهم كثير من مشركي المدينة، ولما قابل رسول الله وسلم وفداً منهم اتفقوا على المقابلة الثانية ليلاً عند العقبة، فأشار لهم الرسول ﷺ أن لا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً، حذراً من إطلاع قريش وسعيهم في نقض ما أبرم، شأنهم ضد رسالة الإسلام، ولما فرغ الأنصار من حجهم قصدوا إلى حيث الموعد، وهم يكتمون أمرهم عمن كانوا معهم من المشركين، وكان ذلك بعدما مضى الثلث الأول من الليل، وتسللوا بكل حذر ينضم بعضهم إلى بعض، حتى بلغ عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً، اثنان وستون من الخزرج وأحد عشر من

الأوس، ومعهم امرأتان وهما: نسيبة بنت كعب النجار، وأماء بنت عمرو من بني سلمة، حتى اجتمعوا برسول الله ﷺ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، ومع أنه كان لم يسلم بعد، لكنه أراد الحضور على أمر إبن أخيه لاهتمامه بشأنه.

وفي بدأ الإجتماع قال لهم العباس: إن ابن أخي لا يزال في منعة وحماية من قومه، حيث لم يمكنوا منه أحداً ممن أظهر له العداوة والبغضاء، وتحملوا من ذلك أعظم الشدة «ثم قال: إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإلا فدعوه بين عشيرته فإنهم بمكان عظيم». فقال كبيرهم البراء بن معرور: «والله لو كان لنا في نفسنا ما ننطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهجتنا دون رسول الله!» وعند ذلك قالوا لرسول الله ﷺ: «خذ لنفسك ولربك ما أحببت» فقال: «أشترط لربي أن تعبده وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم»، فقال له الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهوداً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن كنا فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ «فتبسم الرسول ﷺ وقال: بل الدم الدم، والهدر الهدر» يعني: إن طلبتم بدم طالبت به، وإن أهدرتموه أهدرته.

وعند ذلك بدأت المبايعة (وهي العقبة الثانية) حيث بايعه الرجال على ما طلبه، ثم اختار رسول الله منهم اثنا عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، فقال لهم: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي».

وهذه المبايعة كانت سبباً أقوى من المبايعة الأولى، فقد تم بها ما يشجع الرسول ﷺ وأصحابه للهجرة إلى المدينة، حيث ظهر الإسلام بين أهلها أكثر من المرة الأولى، وذلك بعد رجوع المبايعين الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ إليها.

«هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة»

لقد سمع قريش خبر تلك المبايعة (التي تمت لنصرة الإسلام) فازدادوا غيظاً، وزادوا أذى على رسول الله ﷺ، وعلى من حوله من أصحابه رضي الله عنهم، حتى أمر رسول الله ﷺ جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فأخذوا يخرجون من مكة متسللين، وذلك خوفاً من قريش أن يمنعوهم بما لهم من قوة ونفوذ، تتابع المسلمون في هجرتهم فراراً بدينهم الذي ارتضوه إلى الله، ليتمكنوا من عبادته، ولم يعبأوا بمفارقة أوطانهم والأبتعاد عن آبائهم بعضاً، وعن أبنائهم بعضاً، ابتغاء لمرضاة الله ورسوله، حتى لم يبق بمكة إلا أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وصهيب، وزيد بن حارثة، وقليل من المستضعفين الذين حالت حالتهم الراهنة دون تمكنهم من الهجرة، رضى الله عنهم أجمعين.

وقد أراد أبو بكر الصديق أن يهاجر، ولكن الرسول ﷺ قال له: على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي». فقال أبو بكر: «وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم! وبهذا أظهر رسول الله ﷺ لصديقه أنه في إنتظار الإذن لهجرته من عند الله ربه سبحانه، وأنه يرغب في أن يأخذ صديقه في معيته.

وكان هذا مما سر به صديقه سروراً بالغاً، فحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسه حتى يتشرف بصحبة الرسول ﷺ، وخدمته في الهجرة، وأخذ يعلف ويربي راحلتين بكل عناية، وذلك استعداداً للسفر الميمون.

«مؤامرة قريش بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم»

ولما طرق مسامع قريش مبايعة الأنصار لرسول الله ﷺ، ومساندته، والدفاع عنه بالمال والنفس حتى الموت، وأيقنوا بما وقع، أصبحوا كأنهم أصيبوا بمس من الشيطان، وذهبوا في مواجهة الواقع كل مذهب، إلى أن اجتمعوا في دار الندوة، وهي دار قصى بن كلاب التي كانت قريش تجتمع فيها كلما ألم بها أمر، وأخذوا يتحدثون ويتشاورون فيما يصنعونه بشأن محمد بن عبد الله الذي أصبح رسولاً نبياً، وآمن به من آمن بمكة، وانتشر دينه في المدينة، حتى أصبح خطراً

على دينهم ورئاستهم التي كانوا يعيشون تحت ظلها في جزيرة العرب بعزة وقوة ومنعة.

فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا لكي نستريح منه، ورفض هذا الرأى، لأنهم قالوا إذا أخرجناه اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه، وقال آخر: نوثقه ونحسبه حتى يدركه ما أدرك الشعراء من قبله من الموت، ورفض هذا الرأى أيضاً، لأنهم قالوا: إن الخبر يبلغ أنصاره، ونحن أدرى بمن دخل في دينه، إنهم يفضلونه على الآباء والأبناء، فإذا سمعوا حضروا إليه ليخلصوه، وربما جر هذا الحرب علينا، فقال لهم طاغيتهم أبو جهل: بل نقتله، ولنمنع بني أبيه من الأخذ بثأره، نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً يجتمعون أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربةرجل واحد أحد، فيفترق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو هاشم على حرب قريش كلهم فيرضون بالدية، فأقروا هذا الرأى، وكان ذلك مكرهم الذي اتفقوا عليه، مكر العاجز عند اليأس.

ولكن إرادةالله سبحانه فوق كل إرادة، فقد أخبر رسوله ﷺ على مكرهم بإنزال قوله: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين».

«الآية ٣٠ من سورة الأنفال).

«هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة»

وبهذا أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، كما هاجر إليها أصحابه قبله بإشارته.

قال العلامة الخازن في تفسيره فيما رواه عن إبن عباس وغيره من أهل التفسير: فأتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه. فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أن يبيت في مضجعه وقال له: «اتشح ببردتي فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه» ثم خرج فأخذ قبضة من تراب، وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه،

فخرج وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ «أنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

(الآية ٨ ـ ٩ من سورة يس).

ومضى إلى الغار من جبل ثور وهو وأبو بكر (عملاً بما تم بينهما من الإتفاق) وبات المشركون يحرسون علياً وهو على فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبي، فلما أصبحوا ثاروا إليه ليقتلوه فرأوا علياً، فقالوا له: «أين صاحبك» قال: «لا أدري»، فاقتفوا أثره، وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر. فمكث في الغار ثلاثاً ثم خرج إلى المدينة. وروى الإمام البغوي وقال إنه حينما انطلق أبو بكر مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، فقال له رسول الله ﷺ: ما بالك يا أبا بكر؟ فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي بين يديك، فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله حتى استبريء الغار، فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل، فقال له: إن أقتل فأنا رجل واحد من المسلمين، وإن قتلت هلكت الأمة.

وقال النسفي: لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه، وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم» فجعلوا يترددون حول الغار، ولا يفطنون» كما روى الزهرى مثله.

وروى الإمام البخاري ومسلم عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا، فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر ما ظنك بإثنين الله ثالثهما» يعني بالنصرة والرعاية والحفظ، وإلى هذا إشارة في قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني أثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم

تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾ .

(الآية ٤٠ من سورة التوبة).

وقضى رسول الله ﷺ (وهو وصاحبه) في الغار ثلاث ليال، حتى ينقطع الطلب ويصفو الجو للسفر، وفي تلك المدة كان في شرف خدمته أشخاص سعداء. الأول: عبد الله إبن أبي بكر، فإنه كان يبيت معهما في الغار ويصبح مع قريش كبائت معهم، ثم يأتي بأخباهم إلى الغار. الثاني: أسماء بنت أبي بكر، وكانت تقوم بإيصال الطعام. الثالث: عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعه غنماً له ويروح ليلاً إلى الغار ويقدم لهما حاجتهما من اللبن، كما كان يمحو آثار الأقدام غنمه، حتى حضر عبد الله بن أريقط دليل الطريق الذي عهد إليه أبو بكر رعاية راحلتين (ناقتين) إلى حين الهجرة حيث قدمهما فركب رسول الله ﷺ إحداهما وأبو بكر الأخرى، وسار معهما عامر بن فهيرة يخدمهما في الطريق، فكان أبو بكر يردفه خلفه تارة ويتعاقب معه في الركوب تارة أخرى.

وهكذا سار رسول الله ﷺ مع الصديق رضى الله عنه نحو المدينة التي أصبحت مصدر انتشار الإسلام إلى العالم كله، وإتمام تشريعاته، وتأسيس دولة إسلامية عم نفعها على البشرية.

هذا. وإذا نظرنا إلى هجرة رسول الله ﷺ فإنها قد توفرت لها إسباب النجاح، فمنها مبايعة الأنصار وانتشار الإسلام في ساحة المدينة، ومنها أن نصرة الله كانت مع رسوله في كل ما يتعلق بالهجرة، ولا سيما حمايته وحفظه عن طلب قريش، مع قصة سراقة بن مالك المدلجي الذي أسرع في الطلب رغبة في المال الذي عينه قريش لمن أتى بمحمد وصاحبه، وقد رأى سراقة ما رأى من المعجزة عندما وصل إليه ﷺ، فاستسلم حيث يقول: وقع في نفسي حينما لقيت ما لقيت أنه سيظهر أمر رسول الله، فقلت إن قومك قد جعلوا فيك الدية.

نعم! كانت الهجرة المباركة قد توفرت لها الأسباب، وكان رسول الله ﷺ محفوفاً بنصرة الله العلى القدير من كل جانب أولاً وآخراً.

ومما يجب ذكره هنا: إن هجرة رسول الله ﷺ(وأصحابه رضي الله عنهم) لم تكن هروباً من أذى قومه قريش وعشيرته، ولا خوفاً من طغيان الطاغين، وجبروت المتجبرين. فقد ثبت في التاريخ أنه ﷺ صبر على أنواع الأذى صبر أولى العزم، امتثالاً بأمر ربه سبحانه حيث قال: «فاصبر كما أولو العزم من الرسل»

(الآية ٣٥ سورة الأحقاف)

ومضى في سبيل دعوته، وتبليغ رسالته وتأدية أمانته، كما أمره الله به بقوله «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس»

(الآية ٦٧ من سورة المائدة).

وكان في عصمة الله وحفظه ورعايته في كل مراحل دعوته، التي قام بها لنشر دينه وشريعته.

نعم: صبر رسول الله ﷺ على أذى المشركين من قومه، ذلك الأذى الشديد والموقف القاسي الذي لو أصاب غيره من القائمين بالدعوة لم يستطع المضي في سبيلها، بل انصرف عنها نظراً لقلة طاقته، لأن الطاقةالبشرية لها حدود تنتهي إليها وتقف عندها، ما لم تكن مستمدة من وحي الله ونصرته، ولكن طاقة هذا الرسول. (وهو أعظم الرسل) الذي أرسل للناس كافة، وللعالمين رحمة، لم تكن محدودة، إنه ﷺ لم يكن ممن تخرجوا من الجامعات البشرية التي تنحصر على التربية المحدودة، والتعليم المحدود، الذي ينتهي ويقف في حد، وإنما كانت تربيته في الجامعات الإلهية في عالم الغيب، التي لا حدود لتربيتها، ولا حد لتعليمها، ولم يكن تعليمه على أيدي أساتذة من عالم البشر، وإنما كان من عند ربه سبحانه الذي أدبه فأحسن تأديبه، مما أعده به لتحمل أعباء الرسالة العالمية، والتبليغ العالمي، لنشر دين علمي فطري أبدي، يشمل العالم البشري ويتمشى مع فطرته، ويبقى بقاء الدنيا إلى يوم القيامة، وقد صرح به الرسول (وهو الصادق المصدوق) حيث قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

فطاقة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام (كسائر صفاته النبوية، وخصاله المصطفوية) كانت مؤيدة من عند الله، مستوحاة من وحيه، فكانت فوق طاقة سائر الداعين، وصفات غيره من المبلغين من أصحاب الرسالة والمبادىء البشرية، حتى أرسله الله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ولم يعبأ الرسول ﷺ بتهديد المشركين من قريش حينما أبلغوه عن طريق عمه أبي طالب وهم يقولون: «إما أن تكفه، أو ننازله، وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين». فقال له عمه: «يا إبن أخي إن القوم جاءوني فقالوا كذا، فابق على نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيقه». نعم لم يعبأ الرسول ﷺ بمثل هذا التهديد والوعيد الشديد، ولم يخضع لإشارة عمه التي بلغ، بل قال قوله المعروف الذي يدل على قوة صبره وشدة ثباته وعزمه، والذي سجله التاريخ في صفحاته بأحرف بارزة «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يظهره الله أو أهلك دونه!» فأدناه أبو طالب وقال له: «إذهب يا إبن أخي فقل ما أحببت، والله لا أسلمك». وإنما قال له ذلك بعد ما أيقن إن ابن أخيه ثابت في سبيل دعوته، وعلم أنه أرسل بدين سيظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون، ولهذا (لا غيره) وعده بحمايته، حيث قال: «والله لا أسلمك».

نعم: لم تكن هجرته هروباً ولا خوفاً، كما أنها لم تكن يأساً عن إيمان قومه، وقد آمن من آمن، وانتشر الدين بينهم، وأمام أعينهم مما يكفيهم في التفكر الصحيح والإنصاف بشأن هذا الدين الحنيف.

وأمضى الرسول ﷺ ١٣ سنة بمكة صابراً ثابتاً في بث دعوته، ونشر شريعته، كما صبر أصحابه رضي الله عنهم صبر المؤمنين بالحق، على أنواع التعذيب القاسية التي قاسوها من المشركين، والتي تقشعر منها الأبدان، وتشمئز منها القلوب، ولم يكن لهم ذنب غير أنهم آمنوا بالله ورسوله، وثبتوا على إيمانهم.

﴿ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.
(الآية ٨ من سورة البروج).

إن هجرة الرسول ﷺ (وأصحابه رضي الله عنهم) إنما كانت بأمر الله سبحانه، وتنفيذاً لإرادته ومشيئته، فقد أراد الله العليم الحكيم هذه الهجرة لتصبح نصراً عزيزاً للإسلام، وفتحاً مبيناً، وذلك بما يتعقبها من فتوحات كبيرة، ونتائج خطيرة، في حياة الرسالة المحمدية، والشئون الإنسانية التي تمت لمصلحة الجزيرة العربية خاصة، والعالم البشري عامة.

نعم: إن هجرة الرسول ﷺ (وأصحابه رضي الله عنهم) كانت واقعة عظيمة من إرادة الله العلي القدير، وتدبيره وحكمته البالغة، كما أنها كانت تحولاً عظيماً في الدعوة إلى الدين الإسلامي، وانتصاراً عظيماً لنشره. وإن هجرته ﷺ كانت من سنة الله سبحانه وتعالى التي قد خلت من قبل «ولن تجد لسنة الله تبديلاً».

فقد سبق أن هاجر إبراهيم الخليل (مع هاجر وإسماعيل) إلى أن استقر مقامه بمكان مكة أم القرى، حيث لا ماء ولا زرع ولا شجر، وقد ترتب على هذه الهجرة انتصار عظيم بقيت آثاره ومعالمه إلى تاريخنا هذا وستبقى إلى يوم القيامة، وذلك بتفجر بئر زمزم الذي عم (ويعم) العالمين رواءه ونفعه كمعجزة باقية لا تنفد بمرور الأزمنة والدهور، وبعمارة بيت الله حيث يحج إليه المؤمنون ويتوجهون إليه (قبلة لهم) في صلواتهم، إلى انقراض هذه الحياة، وبتعمير ما حوله من الأرض المباركة، وبتكوين الأمة العربية بإسكان ذرية إبراهيم في ذلك الوادي كنواة مباركة لها ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».
(الآية ٣٧ من سورة إبراهيم)

كما هاجر موسى من مصر حينما اضطهده أعداؤه، وهاجر عيسى حينما كذبه اليهود وأرادوا الفتك به. كما هاجر أنبياء آخرون من ديار لوط وعاد وثمود، وكانت الهجرة انتصاراً لكل منهم كما هو مسطور في كتب التفسير والتاريخ.

ومما يذكر هنا: أن عيسى عليه السلام أشار إلى ما في الهجرة من الإنتصار والأجر العظيم فيما روي عنه حيث قال « طوبى للمطر ودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات» وقال أيضاً «افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم (اليهود) طردوا الأنبياء قبلكم».

نعم: كانت هجرة الرسول ﷺ من سنة الله قد خلت من قبل، وكانت فاتحة انتصار علمي لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، وكانت نقطة تحول عظيم في تاريخ الإسلام.

ولهذا اتخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (بعد خلافته) عام الهجرة مبدءاً للتاريخ الإسلامي، وقرر أوله من محرم، الأمر الذي كان معتاداً من قديم الزمان، وكان هذا بمشاورة مع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

«مدة إقامته بمكة بعد بعثته»

أقام رسول الله ﷺ بمكة المعظمة بعد بعثته ثلاث عشرة سنة، قضاها بالمجاهدة في تبليغ الرسالة، والمثابرة في تأدية الأمانة، على أساس الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة المنكرين بالتي هي أحسن، واتخاذ العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين. واستطاع رسول الله ﷺ (فيما بلغه من أمر الله ونهيه) بتبليغ أمرين من أصول الدين:

الأول: الأعتقاد بوحدانية الله سبحانه وعدم إشراك غيره معه في العبادة.
الثاني: الأعتقاد بالبعث والنشور، وأن هناك يوماً (وهو يوم الدين والجزاء) يجازي فيه الإنسان على أعماله في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد جاء غالب الآيات التي نزلت بمكة على هذين الأمرين، حيث ترى أكثر السور المكية تحمل ذكرهما والأستدلال عليهما، بأسلوب أخاذ بالعقل، وبرهان يتفق مع الضمير الإنساني، ويضطره للإعتراف بهما، ولا ينكرهما إلا من خان نفسه وضل الطريق المستقيم، جهلاً منه أو أستكباراً واتباعاً لمن سبق من الآباء الأولين الذين كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وقد نزل على رسول الله ﷺ

بمكة معظم القرآن الكريم.

أما السور التي نزلت بعد الهجرة بالمدينة فهي ثلاث وعشرون سورة مدنية كما يلي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحج، النور، الأحزاب، القتال، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر.

«وصوله صلى الله عليه وسلم إلى قباء»

وصل رسول الله ﷺ إلى قباء في اليوم الثاني من ربيع الأول ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م على ما حققه المرحوم محمود باشا الفلكي المصري، وقد استقبله أهل المدينة في الحرة (أرض ذات الحجارة السود تحيط المدينة من خارجها) ونزل بأصحابه وكلهم مسلحون في بني عمرو بن عوف، وأقام بقباء ليالي أسس فيها مسجد قباء، الذي وصفه الله سبحانه بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم، وهو أول مسجد بني بعد ظهور الإسلام.

«الوصول إلى المدينة»

ثم توجه رسول الله ﷺ سائراً إلى المدينة وأصحابه الأنصار والمهاجرون يحيطونه، وكان اليوم يوم السرور والفرح الذي لم يروا مثله، وخرج الصبيان والولائد والنساء ينشدون أمام محمد بن عبد الله، الذي أرسله الله للناس كافة وللعالمين رحمة:

طلع البدر علينا من ثنية الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وأدركته (ﷺ) صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل وأصحابه، حيث صلى بهم جمعة، وألقى أول خطبة بعد ظهور الإسلام، وهم آمنون مطمئنون فرحون مستبشرون، ثم سار رسول الله ﷺ مع من حوله من أصحابه رضي الله

عنهم، فكان كلما مر على دار من دور الأنصار يتضرع إليه أهلها، لأن يشرفهم بالنزول عندهم، ويأخذون زمام ناقته، فيقول لهم: «دعوها فإنها مأمورة» ولم تزل الناقة سائرة حتى أتت فناء بني عدى بن النجار (وهم أخواله تزوج منهم هاشم جده) فبركت أمام دار أبي أيوب الأنصاري[1]، وهو محل مسجده النبوي الشريف، فقال رسول الله ﷺ «ههنا المنزل إن شاء الله، رب أنزلني منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين» فأسرع أبو أيوب وحمل رحله ووضعه في منزله، وخرجت ولائد بني النجار ينشدون:

نحن جـوار بني النجـار يا حبذا محمـد من جار

وهنا تمسك أسعد بن زرارة، فأخذ زمام الناقة، فكانت عنده، كما تنافس الأنصار من المهاجرين الذين تحولوا أغلبهم مع رسول الله ﷺ، فأقرعوا بينهم، حتى نزل كل مهاجر على أنصارى، بحكم القرعة، وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وفي ذلك قال الله سبحانه: ﴿والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

(الآية ٩ من سورة الحشر).

وكان هذا من آثار الأخوة والمحبة التي لا يمكن ان تحصل بجهود البشر، وإنما هي بفضل الله ورحمته، فقد كان من محبة الأنصار للمهاجرين أنهم أنزلوا المهاجرين وتنافسوا فيهم، وأشركوهم في أموالهم، حتى إن بعض من له إمرأتان أراد أن يتنازل شرعياً عن إحداهما لمهاجر لا زوجة له، كما أن الأنصار لم يحسدوا إخوانهم المهاجرين، حينما خصهم الرسول ﷺ بالفيء وغيره وآثرهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر، وهكذا توطدت أواصر المحبة بين الأنصار والمهاجرين.

---

(١) اسمه خالد بن زيد. توفي بعهد يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية، ودفن خارج سور المدينة، وله هناك ضريح ومسجد.

وآخى رسول الله ﷺ بنفسه بين الأنصار والمهاجرين. وهو يقول: «تآخيا في الله أخوين». وكان مجلس المؤاخاة في دار أنس بن مالك رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

ووحد صفوف المسلمين، فكانوا كالبنيان المرصوص، وكنفس واحدة، يلبون دعوة الرسول ويجاهدون في سبيل الله ورسوله بأموالهم وأنفسهم، حتى انتصر بفتح مكة، والقضاء على عبادة الأصنام والشرك، ثم توالت فتوحاته حتى انتشر الدين الإسلامي، من المحيط إلى المحيط، بادئاً من الجزيرة العربية إلى أقصى الشرق بسرعة فائقة لم ير مثلها في تاريخ أى دين من الأديان، وكان ذلك بفضل الوحدة الإسلامية، وبملاءمة الإسلام لطبائع البشر وتجاوبه مع العقل البشري، في جميع تعاليمه من أصوله وفروعه. وبهذا أصبح الإسلام الدين الفطري والدين الأبدي لعالم الإنسانية، والحمد لله على ذلك.

«وفي الختام»

لقد قلنا فيما سبق ونكره هنا لنختم به القسم الثالث من الكتاب، نكرره ولا نخشى من ملل، والشاعر يقول:

كرر أحاديثه لا تخش من ملل فما حديث رسول الله مملول

ويقول الآخر:

كأنه سكر يحلو مكرره فكم حديث إذ كررت مملول

كان محمد بن عبد الله رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، في الحقيقة، رحمة كاملة شاملة للعالمين، كما قال الله عز وجل «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». فقد أحدث في العالم انقلاباً عظيماً مباركاً في جميع شئونه الحيوية، حيث أتى له بقرآن يهدي البشرية للتي هي أقوم، وسن له سنة مقدسة وطريقة مستقيمة، وأخرج من القرآن والسنة قانوناً سماوياً، ودستوراً أبدياً، لجميع الناس في ساحة الإنسانية، يعيشون في ظل حكمه عيشة مرضية، ويحيون بفضل اتباعه حياة طيبة يسعد الفرد في ظله الظليل، ويسعد المجتمع بالتقدم في

الحضارة والرقي الصحيح والتمدن المعقول، وذلك في حرية مشروعة ومساواة مرغوبة، وأمن سائد، وأماني مطلوبة، التي لم يسبق مثلها في تاريخ الأمم السابقة كلها.

نعم: أعد لهم من كتاب الله وسنة رسوله قانوناً قدسياً يتمشى مع فطرتهم البشرية، ويتفق ومقتضيات عقولهم الإنسانية، ويبقى بقاء الحق دستوراً مقدساً أبدياً لشئونهم الحيوية، ما دام البقاء في ساحة هذا الكون ، إلى يوم القيامة، ذلك القانون السماوي القدسي، القانون العالمي، القانون الخالد الأبدي، الذي أصبح بإذن الله مصدراً لإجتهاد المجتهدين في إصدار الأحكام الفقهية، ومأخذاً أصلياً لتقنين في وضع القوانين الوضعية، مما تدعو إليه حاجة الأمة المحمدية في فترات حياتهم الإجتماعية.

نعم: أعد لهم رسول الإسلام ذلك، وأسس به دولة إسلامية خالدة أبدية لا تزال ما دام في هذا الكون وجود ترفرف رأيتها القدسية، على العالم الإسلامي، في ساحة الإنسانية، يعيش المسلمون في ظلها المبارك إلى يوم القيامة يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ثم وجه ضمائر العالم إلى ما هناك، فقال: «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله». وأبلغ إلى الناس كافة آخر ما أنزل الله من القرآن الكريم «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً» والحمد لله على ذلك.

وتوفي رسول الله ﷺ، والتحق بالرفيق الأعلى يوم الأثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة ٨ يونيو سنة ٦٣٣ من الميلاد.

وكان ذلك راضياً مرضياً مطمئن البال، بعد أن أعلن في خطبته للناس فقال: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عنده».

اللهم صل وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. آمين.

«اعتراف الأجانب المنصفين»

برسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام

١ ـ قال جرجس سال في كتابه «مقالة في الإسلام» صفحة ٧٥:

«إن محمداً رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) كان صالح الأخلاق ولم يكن على الشر والخبث كما يصفه به خصومه». ثم مضى يقول:

«قال جيبون: عقيدة محمد خالصة ليس فيها لبس ولا إبهام، والقرآن شاهد عدل وبرهان قاطع على وحدانية الله سبحانه.

ولقد هجر نبي الإسلام (عليه أفضل الصلاة والسلام) عبادة الأصنام والبشر، سواء أكانوا من النجوم أم من الكواكب السيارة، أم من غير ذلك، بناء على القاعدة العلمية الصحيحة وهي: إن كل قابل للتلاشي لا بد أن يبيد ويفنى، وكل مولود لابد أن يموت، وكل بازغ لا بد له من أفول.

كانت لمحمد (ﷺ) حماسة حكيمة، اعتراف بمبدع هذا الكون، وعبده على عقيدة أنه أبدي غير محدود، بلا صورة، ولا مكان، ولا ولد، ولا شبيه، يعلم خطايا الأفكار وأسرار القلوب، وجوده من نفسه، وصفاته وعمله وكماله من نفسه». وفي الختام قال:

وهذه الحقائق السامية مبنية على وجه معقول بغاية الإحكام في تراجم القرآن، فكل من يؤمن بالله إيماناً علمياً فلسفياً، قادر على أن يشارك المحمديين في اعتقادهم المقبول».

أقول: إن ما رواه جرجس عن جيبون يدل على إيمان جيبون بالله وحده

وبرسوله محمد ﷺ، وأنه في ختام قوله يدعو من حوله إلى هذا الإيمان، دعوة خالصة لمصلحة الإنسان لا غير.

٢ ـ وقال «أميل دير مانجم» في كتابه «حياة محمد»:

«إن محمداً لم يكن شخصياً إلا رجلاً أمياً خلواً من الثقافة تقريباً كجميع بني بلدته في عصره، ولكنه كان يعلم أن الإله رحيم رحمة لا حد لها، فأجهد نفسه في أن يعلو على الطبيعة البشرية، وأن يقهر في نفسه الميول الأنتقامية» ثم قال: «إن إخلاص محمد لا يمكن أن يكون في العصر الحاضر موضع شك، فإن حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته إيماناً عميقاً، وأنه تقبلها ـ لا بغير بطولة ـ كعبء يجب عليه أن يتحمل ثقل أوزاره».

وقال: «إن قوة عبقرية محمد الإنشائية واتساعها، وذكاءه العظيم ونظره الصائب إلى الحقائق، وسيادته لنفسه، وقوة إرادته، وحكمته واستعداده للعمل، وحياته الواقعية، كل ذلك يجعل الزيف في مبدأ رسالته يستحيل القبول. فكيف يتصور أن ينقلب كاذباً فجأة، ذلك الذي كان نجاحه يظهر له كبرهان ساطع على تأييد الإله لدعواه، وكيف يمكن أن يجرأ على تشويه رسالته في الوقت الذي يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الإله».

وقال: «وهكذا نهض محمد رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) ليدعو بني جنسه إلى دين واحد هو دين واحد الإله الواحد، وليوقظ جزءاً من آسيا وأفريقيا، وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية، ولكي يحرر فارس التي كان النعاس يشملها، ولينعش المسيحية الشرقية التي شوهتها المجادلات البيزنطية الخالية من الحماسة، ومن الأعتقاد المجرد من الوحدة».

وقال: «إن محمداً كان يجهل كل ما ليس علماً مطلقاً، وكان أمياً بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، وليس معناها، فيما أرى، العامية أو الخلو عن التأدب، وإنما الأمي هو بالأحرى الرجل النقي الذي جمع بين الطبيعة وما فوق الطبيعة،

والبرىء من الأحكام المتسرعة، ومع ذلك فقد نهض لكي يدعو العلماء إلى أن يفهموا ما يقولون، وليقوِّم الطرق الملتوية التي يضل فيها من يزعمون أنهم حكماء».

ثم قال: «إن الناس حالة سماعهم خطب محمد المهمة، وكتاباته الملتئمة مع عصره، قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفي الذي يقودهم إليه، فخضعوا للإله، فرأوا كيف يستطيعون أن يهذبوا وجودهم المؤقت، وهكذا وجدوا فيه مثالاً حياً لا يستطيع الفلاسفة ولا رجال الحكومة أن يقدموه».

٣ ـ وقال الأستاذ «دينيس سورا» الأستاذ في جامعة لندن في أول كتابه «تاريخ الأديان» الذي نشره ١٩٣٣م:

«إن محمداً رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسي الأديان، إذ أن الخرفات لم تستطع أن تخيفه، وأن دين مواطنيه إبان ظهوره، كان قد هوى إلى أدنى الدركات، أو أقل إنه (دين مواطنيه) كان لمياً من بقايا عقائد بدائية».

٤ ـ وقال «توماس كارليل» في كتابه «الأبطال»:

«. . . والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء».

فمحمد رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) كان كذلك، وكان فوق ذلك، الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من السموات العليا».

أقول: إن اعتراف كارليل هنا أيضاً منبعث عن دراسته العميقة لشخصية محمد ﷺ، كسائر اعترافاته القيمة التي عرفناه بها، إنه يريد بقوله «الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة» معنى قوله ﷺ في وصف حقيقة معارفه وعلومه: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» لا غير، لأن كارليل يعترف بأن رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، حكمة الله العليم

الحكيم، التي تتعلق بصدق نبوته ورسالته.

ثانياً: يشير بقوله «وما كلمه إلا صوت صادق من السموات العليا» إلى قول الله سبحانه في وصف كلمات رسوله «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى».

٥ ـ وقال السير وليام ميوبر في كتابه «حياة محمد»:

«ومن صفات محمد (ﷺ) الجديرة بالتنويه والإجلال، الرقة والإحترام اللتين كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأناً، فالتواضع والرأفة والإنسانية وإنكار الذات والسماحة والإخاء تغلغلت في نفسه فوثقت به محبة كل من حوله».

أقول: ولهذا فإن الله عز وجل قال بعد القسم بـ «ن» والقلم وما يسطرون، وبالتأكيد بعد التأكيد ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾ الآية.

نعم: هذا هو شأن رسول أرسله الله إلى الكون ليتمم مكارم الأخلاق في الحياة الإنسانية.

فقد قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٦ ـ وقال بروفسور «كارادي فو» في كتابه «المحمدية»:

«إن محمداً أتم طفولته في الهدوء، ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكي الوديع المحمود، وقد عاش هادئاً في سلام حتى بلغ الأربعين من عمره، وكان بشوشاً نقياً لطيف المعاشرة». ثم قال:

«إن محمداً كان هو النبي والملهم والمؤسس، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التي كان عليها، ومع ذلك فإنه لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين. إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه «محمد» بين أعضاء الجمعية الإسلامية، كان يطبق تطبيقاً عملياً، حتى على النبي نفسه».

٧ ـ وقال بروفيسور «جارسان دي تاسي» في كتابه «الإسلام»:

«إن محمداً رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) ولد في حضن الوثنية، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة انزعاجاً عظيماً من الرذيلة وحباً حاداً للفضيلة، وإخلاصاً ونية حسنة غير عاديين، إلى درجة أن أطلق عليه مواطنوه في ذلك العهد إسم «الأمين».

٨ ـ وقال برفيسور «ليك» في كلام مفصل عن الإسلام ورسوله:

«إن حياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفه الله نفسه بألفاظ قليلة بين فيها صفة النبي حيث قال «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

إن يتيم آمنة العظيم قد برهن بنفسه على أنه أعظم الرحمات لكل ضعيف ولكل محتاج إلى المساعدة». ثم قال:

كان محمد (ﷺ) رحمة حقيقية لليتامى وأبناء السبيل» والمنكوبين، والمدينين، وجميع الفقراء والعمال ذوي الكد والعناء، ولقد كان (محمد ﷺ) رحمة لجنس النساء الذي كان يعامل كالأمتعة والأثاث لا غير! وذلك في جميع الدنيا من قبل كل دين من الأديان، وكل نظام إجتماعي، وكل أمة فهلموا الآن نقول بأعظم الإخلاص والتلهف والإبتهال: اللهم صل على محمد وعلى أتباعه ومحبيه».

٩ ـ وقال تولستوي الفيلسوف الروسي[1] تحت عنوان «من هو محمد؟»:

«إن محمداً ـ ﷺ ـ هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس».

ولد النبي محمد (ﷺ) في بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح (عليه السلام) من أبوين فقيرين، وكان في حداثة سنه راعياً ـ يرعى الغنم ـ وقد مال منذ صباه إلى الانفراد في البراري والأمكنة الخالية، حيث كان يتأمل في الله وخدمته (أي طاعة الله وعبادته على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام). إن

---

(١) من أكبر كتاب العالم، لقد سجل الخطوات التي مر بها في شئون الديانة حتى بلغ الإيمان في كتابه «اعترافات». ولد في عام ١٨٢٨ وتوفي عام ١٩١٠م.

العرب المعاصرين له عبدوا أرباباً كثيرة، وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها، فأقاموا لها أنواع التعبد، وقدموا لها الضحايا المختلفة، ومنها الضحايا البشرية، ومع تقدم سن محمد كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب، وأن ديانة قومه ديانة كاذبة، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب. وقد إزداد هذا الاعتقاد في نفس محمد حتى اعتزم في نفسه أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ في فؤاده.

ثم قد دفعه إلى ذلك عامل داخلي وهو: إن الله اصطفاه لإرشاد أمته، وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة، وإنارة أبصارهم بنور الحق، فأخذ من ذلك العهد ينادي باسم الواحد الأحد، وذلك بحسب ما أوحى الله إليه، وبمقتضى اعتقاده الراسخ».

وبعدما بيّن تولستوي خلاصة الديانة الإسلامية قال: «وفي سني دعوة محمد الأولى، تحمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانة القديمة، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق، ولكن هذه الأضطهادات لم تثن عزمه، بل ثابر على دعوة أمته، مع أن محمداً (ﷺ) لم يقل أنه نبي الله الوحيد بل اعتقد أيضاً بنبوة موسى والمسيح (عليهما السلام) ودعا قومه إلى هذا الأعتقاد أيضاً، وقال إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم، بل يجب عليهم أن يتبعوا وصايا أنبيائهم».

١٠ ـ وقال «لين بول»:

«إن محمداً رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الاخلاق، حتى أن الإنسان لا يستطيع أن يحكم له دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات من أثر في نفسه، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن ميل وعلى هدى، وكيف لا؟ وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواماً، فلم يهن له عزم، ولا ضعفت له قوة». ثم قال: «وقد بلغ من نبله أنه لم يكن في حياته البادي بسحب يده من يد مصافحه، حتى ولو كان المصافح طفلاً، وأنه لم يمر بجماعة يوماً رجالاً كانوا أو

أطفالاً دون أن يقرأ عليهم السلام، وفي شفتيه ابتسامة حلوة، وفي فمه نغمة جميلة كانت تكفي وحدها لسحر سامعها فتجذب القلوب إليها جذباً».

أقول: إن قوله «لسحر سامعها» تعبير أدبي لا غير كما لا يخفى.

١١ ـ وجه المستشرق «جولد تسهير» سؤالاً يقول:

هل كان محمد نبياً وطنياً، أم عالمياً أرسل للناس كافة؟ ثم أجاب قائلاً: «أعتقد أننا لا نستطيع إلا أن نأخذ بوجهة النظر الثانية، ولا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك».

أقول: إن اعتراف جولد ناشيء عن الإنصاف والتصريح بالحقيقة، فقد قال الله عز وجل الذي أرسل محمداً ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لايعملون﴾ (الآية ٢٨ من سورة سبأ).

وقد ثبت هذا بمرور الزمن، وعلم أكثر الناس في عالم البشرية (بعد أن كانوا لا يعلمون) أن رسالة محمد كانت رسالة عالمية، إذ أن الإيمان برسالته لم يختص بمواطنيه العرب حتى يقال أنه نبي وطني، فقد آمن بها كل قوم من أجناس البشر، وعاشوا بهذا الإيمان منذ عصور (ويعيشون به) أما في عصرنا هذا فلا يمر يوم إلا ويؤمن (أو يعترف) بهذه الرسالة قوم أو نفر في أنحاء العالم، وإنما ذلك في ظل التقدم العلمي والنضوج العقلي، ولا سيما في نتيجة الحرية في دراسة الأديان. كما سيأتي اعتراف الأجانب المنصفين في هذا الشأن أيضاً.

١٢ ـ وقال القس لوزون الفرنساوي تحت عنوان «ليس محمد نبي العرب، بل هو أفضل نبي قال بوحدانية الله» ما يلي:

«وليس محمد نبي العرب وحدهم، بل هو أيضاً أفضل نبي قال بوحدانية الله تعالى، فإن دين موسى وإن كان من الأديان التي أساسها الوحدانية، إلا أنه كان قومياً محضاً وخاصاً ببني إسرائيل، ولم يكن التعبد عليه ممكناً إلا في بيت المقدس.

وأما محمد (ﷺ) فقد نشر دينه بقاعدتيه الأساسيتين، وهما الوحدانية

والبعث، وقد أعلنه لعموم البشر في أنحاء المسكونة، وإنه لعمل عظيم يتعلق بالإنسانية جماعة تفصيلاً عند من يدرك غايته، فالديانة المحمدية إذن مع كونها من بعض الوجوه خاصة بالعرب وبعصر ظهورها، فإنها الديانة العامة الخالدة للنوع الإنساني».

أقول: إن اعتراف القس لوزون يستحق التقدير في مضامينه ولا سيما أن لـه قيمة من حيث صدوره عن مثله، فإنه في اعترافه أشار إلى قوله تعالى ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعملون﴾[1] الذي نزله ان بعثة محمد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، لا تختص بقومه بل تعم العالم البشري، كما أشار إلى قول النبي محمد ﷺ في حديث له:

«. . . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة (في أية قطعة أو قطر من أقطار الأرض) فليصل (صلاته). أما قوله «فالديانة المحمدية إذن مع كونها من بعض الوجوه خاصة بالعرب وبعصر ظهورها» فإنه يشير إلى ما كان عليه العرب في عصر الجاهلية من بعض التقاليد الباطلة كدفن البنت وهي في الحياة، وحرمانها من الميراث، وغصب المرأة على الزواج بمن ترضاه، وغيرها، ولكن الآيات التي أنزلت في موضوع هذه التقاليد وإبطالها، أصبحت أحكامها قوانين سماوية عامة في الديانة المحمدية، بحيث يجب على العالم الإسلامي عامة العمل بها عملاً خالداً أبدياً.

وهذا كسائر أحكام الديانة المحمدية، كما صرح به القس لوزون بقوله: «فإنها الديانة العامة الخالدة للنوع الإنساني».

١٣ ـ وقال لورد هدلي (الذي اعتنق الإسلام سنة ١٩١٤ في رسالة بمناسبة مولد النبي محمد ﷺ: ما يلي:

«أبلغت في أواخر العام الماضي (يريد العام ١٣٥٠هـ) أن هناك حركة خاصة يقوم بها فريق من المسلمين (يريد جماعة الهداية الإسلامية في بغداد) والغرض

منها وقوف الناس على ما كان لمحمد النبي الصادق الملهم من فضل على الجنس البشري، وقد طلب الي القائمون بهذه الحركة، أن أضع لهم بهذه المناسبة رسالة مختصرة. إلى أن قال:

والأنبياء والرسل قوم اصطفاهم الله واختارهم وفضلهم على الناس وبعثهم إليهم مبشرين ومنذرين، كما يقول القرآن:

«لئلا يكون على الله حجة بعد الرسل». ثم قال لورد هدلي:

«وقد تحققت بعد طول البحث والأستقراء، أن محمداً نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام لم يكن دعياً ولا دجالاً كما يدعي خصومه، ولكنه كان رسولاً نبياً جاء برسالة إلهية صادقة لا ريب فيها، هدى للمتقين، أوحى الله بها وكلفه بتأديتها، فجاءت مخففة لصرامة أحكام التوراة، ومكملة لكتاب المسيح عليه السلام.

في الأنجيل يقول السيد المسيح «من صفعك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر» وذلك لعمري وصية نافعة، لولا أنها لم تعد تصلح للزمن الذي نعيش فيه، كما أن العمل بها في الوقت الحاضر ـ فضلاً عن أنه متعذر وغير مألوف ـ لا يولد إلا المتاعب، ولا يؤدي إلا إلى الشغب والأضطراب.

جاء موسى عليه السلام بالوصايا العشر، وهي في يقيني قيمة ونافعة، لو تمسك الناس بأهدافها لضمنوا لأنفسهم كل راحة وهناء، أما المسيح عليه السلام فلم يكن في كتابه مشرعاً، ولا نص فيه على عقاب الذين يجترءون على خرق النواميس الإلهية، بل كان فقط يحضهم على التوبة، ويدعوهم إلى الندم، ويبشر التائبين برحمة الله وعفوه وغفرانه.

فلما جاء محمد (ﷺ) كان داعياً إلى الرحمة والعدل والكرم والشجاعة والصبر على المكاره، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، وبخاصة الصدق الذي كان يحبه ويقدسه أكثر مما سواه من الأخلاق الحميدة.

ومضى لورد هدلي يقول:

وكان محمد نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام، يعتبر أن الدين وحده هو القانون الطبيعي الذي يجب على الناس أن يتبعوه، وأن الله ما بعثه إلا رحمة للعالمين، ليبين لهم طريق الهدى وطريق الضلالة، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم صراطاً مستقيماً.

ويعتقد محمد (ﷺ) أن الدين هو أقرب الأشياء إلى العقل وإلى الطبيعة، وأن الإنسان ما هو إلا مظهر من مظاهر قدرة الله، فقد أوتي عقلاً يميز به الخير والشر. فمن آمن واتبع الهدى فيها نعم ، ومن كفر فعليه كفره، والله غني عن العالمين.

والقرآن يقول: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنفياً، فطرة الله فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ويقول: ﴿صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة؟ ونحن له عابدون﴾، ويقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

وهكذا نرى أن الدين الذي يدعو إليه محمد ﷺ إنما هو دين واضح جلي لا غموض فيه ولا إبهام».

ثم قال لورد هدلي: «وقد ذكر لين بول المستشرق الكبير في رسالة له: «إن محمداً نبي الأسلام، عليه الصلاة والسلام، كان يتصف بكثير من الخصال الحميدة، كاللطف والشجاعة، ومكارم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم بشأنه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات في نفسه من أثر، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن ميل وعلى هدى، وكيف لا؟ وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته سنوات وأعواماً بصبر وجلد عظيمين، وبلغ من نبله وحسن خلقه أنه لم يكن في حياته البادىء بسحب يده من يد مصافحه، حتى ولو كان يصافح طفلاً، وأنه لم يمر بجماعة يوماً من الأيام رجالاً كانوا إو أطفالاً دون أن يقرأ لهم السلام، وعلى شفتيه إبتسامة حلوة تكفي وحدها لتجذب القلوب إلى صاحبها جذباً، وقد كان محمد ﷺ غيوراً ومتحمساً، وكلنا نعرف أن الغيرة والحماسة إنما هما للعالم بمثابة الملح للأرض يحفظهما من التعفن والفساد، وقد

يستاء استعمال الحماسة، حيث يلجأ إليها بعض الناس لأغراض غير شريفة، وفي مواطن لا تكون فيها الحماسة مقبولة ولا مرغوباً فيها، ولكن غيرة محمد وحماسته لم تكونا من هذا النوع، وإنما كانتا لغرض نبيل ومعنى سامٍ، فهو لم يتحمس إلا عندما يكون ذلك واجباً مفروضاً لا مفر منه لإلهاب العالم. فقد كان محمد رسولاً من الله، وكان يريد أن يؤدي رسالته على أكمل وجه، كما أنه لم ينس في يوم من الأيام كيانه أو الغرض الذي بعث من أجله».

ثم قال لورد هدلي: «وكتب المستر يوروث أحد كتاب المسيحية رسالة جاء فيها: أن محمداً كان موفقاً توفيقاً فريداً في بابه، لم يحدث لنا التاريخ عن مثله، فقد جمع بين زعامات ثلاث، هي زعامة الشعب، وزعامة الدين، وزعامة الحكم والسلطان، وعلى رغم من أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات وهو الآن موضوع أحترام أكثر من سدس العالم، كمعجزة على دليل العقل والحكمة أى معجزة!...» وقال المستر لين بول في موضع آخر من رسالته: «إن كثيراً من كتاب التراجم والسير الأوروبيين الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد نبي الإسلام، لم يتعففوا عن أن يشوهوا هذه السيرة، وذلك بما أدخلوه عليها من إفتراءات وادعاءات، كإتهامهم له بالقسوة، فإن هذه التهمة غير جديرة بالأعتبار كسائر الأتهامات، لأننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه في هذه المسألة، ليبين لنا أن القسوة لم تكن من أخلاق محمد، وذلك بدليل معاملته للأسرى بعد غزوة بدر، وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم، وعطفه على الأطفال والمرضى، وحقنه للدماء، وعفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربته ثمانية عشر عاماً، وأظهروا له فيها كل صنوف العداء، وأذاقوه في خلالها كل أنواع الجور والأضطهاد والظلم»[1].

ثم قال لورد هدلي بعد رواية هذه الشهادات (الأعترافات):

«وتلك شهادات لها قيمتها ولها نصيبها من الحقيقة».

---

(١) يشير به إلى ما قام به محمد ﷺ من العفو عند المقدرة، في قصة فتح مكة.

وقال لورد هدلي بعد أن ذكر الحروب الدائرة بين الرسول ﷺ وبين المشركين، ومعاملته الأخلاقية معهم:

«أفلا يعتبر هذا كله دليلاً على أن محمداً لم يكن متصفاً بالقسوة، ولا متعطشاً للدماء كما يقول خصومه، بل كان دائماً يعمل على حقن الدماء جهده المستطاع.

وقد نال محمد نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام حب العالم أجمع وحب أعدائه بنوع خاص، عندما ضرب مثلاً في مكارم الأخلاق، وذلك بإطلاق سراح عشرة آلاف أسير كانوا في يوم من الأيام يعملون على قتله والفتك به، وإيراده هو وأصحابه موارد الهلاك».

ولما استتب له الأمر وخضعت له شبه جزيرة العرب إلى أقصاها وجاءه وفد نصارى نجران اليمنيين بقيادة البطريرك، لم يحاول قط أن يكرههم على إعتناق الإسلام، بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم، وأمر بأن لا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية، وأن تبقى كنائسهم ومعابدهم كما هي يؤدون فيها شعائر دينهم كما كانوا يفعلون من قبل، بل أكثر من ذلك، ولم يفرض عليهم أى ضريبة أو جزية.

ولما توفي الرسول محمد ﷺ، وتولى بعده خلفاؤه الراشدون، أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلي (رضي الله عنهم)، لم يحاول أحدهم قط أن ينقض عهد الرسول مع من أمنهم على أموالهم وأنفسهم، بل أحسنوا معاملتهم أى إحسان».

وفي الختام قال لورد هدلي:

«إن كل هذا يكشف لنا عن ناحية من نواحي صفات الرسول وما اتصف به من الصبر واحتمال المكاره والعفو عند المقدرة، كما يبرهن لنا أن محمداً ﷺ كان صادقاً إذ يقول: «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي».

أقول: انتهى هنا ما ذكرناه من خلاصة رسالة لورد هدلي، وإني بعد ما أسجل تقديري الخالص لاعترافات رواها عن بعض المستشرقين المنصفين، أرى

من واجبي تأدية لأمانة العلم، كتابة سطور في جملة من كلمات المستر يوروث سميث، التي رواها لورد هدلي، وهو يقول:

«. . . وعلى الرغم من أن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات، وهو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم، كمعجزة عن دليل العقل والحكمة أى معجزة».

فأقول: إن كتاب الجامع بين البلاغة والتشريع والعبادات لم يجيء به محمد الأمي ﷺ، من عند نفسه، حتى يكون كمعجزة عن دليل العقل والحكمة، تتعلق بمحمد الأمي نفسه، بل أن ذلك الكتاب أنزل من عند الله العلي القدير إلى محمد بن عبد الله (النبي الأمي) وهو يجمع بين البلاغة والتشريع والعبادات، ليكون دليلاً على أنه منزل من عند الله العلي القدير، لأن محمداً بأميته وعدم قراءته وكتابته لا يستطيع أن يأتي بهذا الكتاب، وليكون معجزة على أن محمداً رسول من الله لا يجوز الشك فيه، ولا ينكره من له عقل وضمير إنساني، يميز به بين نور الحق وظلمة الباطل، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

هذا، مع أن بلغاء العرب قد عجزوا عن الإتيان (لا بمثل القرآن) بل بأقصر سورة من سور القرآن، واعترفوا بأنه ليس من كلام البشر، كما بيناه في قسم القرآن من هذا الكتاب.

١٤ ـ وقال البحاثة الكبير سنكس:

«ظهر محمد ـ ﷺ ـ بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة وكانت مهمته ترقية العقول البشرية بإيتائها الأصول الأولية للأخلاق، وإيصالها للاعتقاد بإله واحد لا شريك له، وبحياة بعد هذه الحياة (يشير ألى حياة الآخرة بعد حياة الدنيا) وبهذا أحدث محمد في أفريقيا وفي الشرق بأسره انقلاباً دينياً يشبه الأنقلاب الذي أحدثته تعاليم عيسى في أوروبا.

ولكن هذا الأنقلاب لم يتم بمجرد الكلام والأمثلة الحسنة، واحتمال الأذى

والجد، بل حدث بمد يد لمقاتلة الذين تحمسوا لعقائد الإسلام، التي حملها إلى النبي محمد الملك جبريل.

بعد أن أمضى محمد سنين في الحياة التأملية، أعلن للأفراد المخلصين بأنه سيقوم بنشر دين الهدى، ويحمل إلى الناس سعادة هذه الحياة وسعادة ما وراءها من الوجود الثاني، فتصدى له قومه في مكة وهـددوه بالقتـل، فلجأ إلى قـرية سميت من ذلك الحين بـ «المدينة» ومن تاريخ هذه الهجرة يؤرخ المسلمون.

ولما توفي النبي محمد ـ ﷺ ـ وكان ملكه الذي عاصمته «مكة» قد تم تأسيسه، ولم يمضِ إلا قرن بعده، حتى كانت جميع شعوب البلاد العربية، وشمال أفريقيا من أول مضيق هرمز إلى شواطىء المحيط الأطلسي خاضعة للراية الإسلامية.

ولما وقع الشرق في فتوحات الإسلام، انتقل من عهده القديم إلى عهد جديد من الحياة الفكرية، فارتقى في الآداب والعلوم والصنائع ارتقاء عجيباً، فبينما كانت أوروبا تتخبط في غياهب القرون الوسطى كان المسلمون قد وصلوا إلى درجة من المدنية العالية، وذلك بالنسبة لما كان موجوداً منها.

وأكب العرب المتعلمون على ترجمة كتب الفلاسفة والعلماء الأقدمين، وأسسوا في بغداد وقرطبة جامعات علمية ومدارس، فحققوا بذلك جميع المعارف الانسانية ـ من إسلامية وغيرها ـ وزادوا في مواردها، تلك المعارف التي لم تصل إلى أروربا ولم تدرس فيها بطريقة عامة، إلا في عهد النهضة المعروفة».

ثم قال سنكس: قال المسيو بارتلمي سنتيلير:

«إن القرآن قد بقي أجمل لغة للغة التي أنزل بها، ولم أر ما يشبه ذلك في جميع أدوار التاريخ الديني للعالم الإنساني. وهذا الأمر يفسر لنا التأثير العظيم الذي أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا أن محمداً في معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب، وأنه لا بد من أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل».

وقال سنكس: «وقد كان محمد نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام يؤكد بأنه يتلقى معارفه من الملأ الأعلى، وقد أجمع معاصروه على الأعتراف بأن معارفه الخاصة أصغر من أن تجعله يدرك ويكتب هذه التعاليم العالية الحكيمة المشحون بها هذا القرآن، تلك التعاليم التي رقت عقول الملايين من الناس، ولا تزال ترقي شعوباً متأخرة، وذلك بإشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية، من الوجهة الدينية والأجتماعية والخلقية، ولن تمضي سنوات قليلة حتى تصبح أفريقيا كلها دائنة للإسلام، دين محمد عليه الصلاة والسلام.

أن المائة والعشرين مليوناً من المسلمين في آسيا، والذين يزدادون كل يوم عدداً، لأدلة واضحة على حيوية دين الإسلام وعظمته، لم يأت محمد ـ ﷺ ـ لمكافحة التوراة والأنجيل، بل فإنه يقول: إن هذين قد أنزلا من السماء لهداية الناس إلى الحق مثل القرآن، وأن تعاليم القرآن جاءت مصدقة لها ولكنه لم يأخذ منهما.

وقد رفض محمد نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام، جميع الرموز والأساطير، ودعا إلى عبادة إله واحد قادر، رحمن رحيم، كما يصفه القرآن في كل سورة من سوره.

وقد أمر محمد ـ ﷺ ـ عن وحي من ربه سبحانه بخمس صلوات في اليوم، ليضطر الإنسان للتخلي عن إنشغالاته المادية لحيظات من الساعات، وذلك لكي يرتفع في خلالها إلى مولاه عز وجل، كما أمر محمد أن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية، فإن الله أعلم بما هو أصلح لنا.

وقد أوجب على المسلم أن يتصدق بحصة من إيراده للفقراء والمساكين، وهذا غير الصدقة الأختيارية، كما أوجب حماية المرأة بالأعتراف لها بحقوقها التي كانت غير معترف بها إلى عهد محمد، ولا سيما بتهذيب وتعديل عادة تعدد الزوجات، المعروفة في الجاهلية بدون تحديد عدد.

وقام محمد ﷺ بحماية الأطفال وتحريم قتلهم خوفاً من إعالتهم، وهي العادة القديمة التي كانت منتشرة في الجاهلية.

ورعى محمد ﷺ، حق الرقيق، وأمر بمعاملته كعضو من الأسرة، وقد كان محمد أول من قرر المساواة والعدالة بين المسلمين، من أغنى الناس وأقواهم - ولو كان ملكاً أو أميراً- إلى أفقر الناس وأضعفهم، كما حرم السرقة والقتل والإكراه ومنع محمد ﷺ شرب الخمر والميسر.

وقد استهزأ المستهزئون بجنة محمد، التي بشر بها المؤمنين، وقالوا عنها أسوأ ما يمكن قوله، ولكن كل هذه الأقوال تتلاشى وتزول متى قرأ الإنسان القرآن.

ومما يجدر بالذكر أن المرأة المسلمة تظهر في تلك الآيات القرآنية ذات مكانة، فقد صرح القرآن بأن المرأة تشارك زوجها في الجنة دار النعيم».

ومضى سنكس يقول:

«إن الدين المحمدي قد أحدث رقياً عظيماً جداً في تدرج العاطفة الدينية، فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تجعله أسيراً حول المعابد بين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة. فارتفع إلى مستوى الأعتقاد بحياة وراء هذه الحياة، يجازي فيها على أعماله، كما ارتفع إلى مستوى الأعتقاد بإله واحد يمكن أن يعبده وحده، ويرتفع بروحه إليه، دون أن يتوسط له وسيط.

ثم إن محمداً ﷺ، بتحريمه الصور في المساجد وتحريم كل ما يمثل الله تمثال، قد خلص الأنسانية من وثنية القرون الأولى الخشنة، واضطر العالم بهذه الطريقة أن يرجع إلى نفسه، وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه، فيرتفع إلى جنابه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالأحترام والتقديس والحب والشكر».

وفي ختام اعترافاته قال سنكس:

«إن الناس (يريد الأوروبيين) لم يلتفتوا للترقي العظيم الذي أوجده دين محمد - ﷺ - من الوجهة الأدبية، فإن ذلك الترقي تحقق بعيداً عنا في أمم اعتدنا أن نصفهم بالبرابرة، لأنه ليس عندهم مثل أفكارنا ولا عقائدنا، ولأنهم متأخرون عنا من الوجهة العلمية والعقلية، ولكن مع هذا كله يجب الأعتراف بأن هذه الحركة الدينية قد ساعدت وتساعد كل يوم لإثارة عقول أمم في العالم كله.

والإسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة، ومن كل الشروح الضالة لأقوال الأنبياء، يظهر لنا أنه أعظم ما يدركه الإنسان عن العلاقات التي يجب أن توجد بين الإنسان وخالقه، وأكثرها انطباقاً على العقل والمنطق».

أقول: وهنا انتهى ما أعترف به البحاثة الكبير سنكس وما أنصف بشأن نبي الإسلام محمداً عليه الصلاة والسلام وهو يستحق التقدير والإعجاب، ومما يجب هنا أن نزيد إيضاحاً لبعض كلمات سنكس، ذلك الذي لم تفته عقيدة ولو فاتته كتابة:

الأول: قوله «وقام محمد بحماية الأطفال وتحريم قتلهم خوفاً من إعالتهم...»، وقد أشار به إلى العادة الجاهلية وهي قتل الأولاد خشية الإملاق والفقر، الذي حرمه الله سبحانه ببعثة نبيه ورسوله محمد ﷺ حيث قال في القرآن المجيد:

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾.

(الآية ٣١ من سور الإسراء).

أما الإيضاح الذي أريد أن أزيده على قول سنكس، هو أن محمداً ﷺ، كما قام بتحريم وأد البنات ودفنهن وهن على قيد الحياة، وذلك بتبليغ قوله تعالى:

﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سؤ ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون﴾.
(الآية ٥٨ من سورة النحل).

الثاني: قول سنكس «ورعى محمد ﷺ، حق الرقيق وأمر بمعاملته كعضو من الأسرة».

والإيضاح الذي نريد أن نزيده هو أن نبي الإسلام محمداً عليه الصلاة

والسلام قد بلغ ما أنزل الله إليه بشأن الرقيق ونشر تشريعات متعددة الغرض منها إبطال الرق بطرق مختلفة، بعد ما كان الأسترقاق منتشراً كل الأنتشار في جميع الدول، وعند جميع الملل قبل بعثة محمد ﷺ، الأمر الذي يستوجب التأسف والتأثر، حتى أن الدين المسيحي أيضاً لم يصدر نصاً صريحاً ضد الأسترقاق، ولم يأت به أحد من الحواريين أصحاب النبي عيسى عليه السلام، ولا قالت طائفة من الطوائف النصرانية بتحريم الإسترقاق، وقد جاء في الصفحة ٨٦٥ من المجلد السابع لدائرة القرن التاسع عشر:

«الديانة المسيحية لم تستنكر الأسترقاق في ذاته، ولم تعمل على إبطاله، فإن شرعيته لم تكن قط لديهم موضع البحث». بل إن القديس بولس[1] أصدر وصاياه على الأرقاء أن يطيعوا مواليهم (سادتهم) مع الخوف والرعب كما يطيعون المسيح!... وأصدر الحواري بطرس[2] أيضاً وصايا تستوجب على الأرقاء أن يكونوا خاضعين لمواليهم مع الخشية!

ثم سار آباء الكنائس على أثر بولس وبطرس وأباحوا الأسترقاق وأقروه وأصدروا فتاوى في هذا الموضوع، وقال سيبير يانوس وتوماس (من آباء الكنائس) في فتواهما:

«إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء».

وقال الأب فورد ينينه رئيس دير الروح القدس:

«إن الإسترقاق من جملة النظام المسيحي»

هذا. أما الطرق من التشريعات الإسلامية في إبطال الرق فإنها منصوصة في القرآن المجيد، حتى أباح الدين المحمدي زواج الموالى بإمائهم، فإذا ولدن أصبحن أمهات الأولاد ويملكن حقوقهن.

---

(١) ولد في السنة الثانية من ميلاد المسيح من أبوين يهوديين بمدينة طرسوس.

(٢) أحد الحواريين الاثنى عشر، ولد في بيت صيداء.

وهذا إجمال، والتفصيل ربما نأتي به في قسم تعاليم الإسلام العامة من هذا لكتاب.

١٥ ـ وقال «إميل دير مانجم» في كتابه «حياة محمد»:

«إن محمداً رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) قد أوجدت دعوته في جزيرة العرب تقدماً غير قابل للإعتراض، سواء أكان ذلك في دائرة الأسرة أم في دائرة المجتمع، أم الناحية الصحية، وإن حظ المرأة فقد تحسن، وأن الفحش والزواج المؤقت، والمعاشرة الحرة (الزنا) قد حظرت، وقد حرم أيضاً إكراه الإماء على إتخاذ الفحش وسيلة لثراء مواليهن، كما كان متبعاً في ذلك العهد «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصيناً» القرآن.

ثم قال دير مانجم:

«إن محمداً قد أباح الرق، ولكنه نظمه، وضيق حدوده، وجعل العتق عملاً خيراً، بل كفارة عن بعض المعاصي».

أقول: إن اعتراف أميل دير مانجم ناشيء عن دراسته الصحيحة لحياة محمد ﷺ، ولكتابة القرآن المجيد.

هذا. وأضيف على قوله «قد أباح الرق.. الخ قائلاً: لأن الأسترقاق كان منتشراً كنظام حيوي في جميع الملل قبل البعثة، فلم يكن من الحكمة الأستعجال في القضاء عليه، ولهذا اتخذ وسائل لإلغائه بالتدرج، طبق تعاليم القرآن الكريم.

١٦ ـ وقالت مدام بيرون رئيسة «جمعية الدفاع عن حقوق المرأة» في باريس:

«إن محمداً ـ ﷺ ـ لم يكن عدواً للمرأة، كما يظهر من أقوال بعض الناس، الذين أساءوا فهم روح التشريع الذي جاء به، فينبغي أن نتصور الزمان الذي عاش فيه، لنعرف قيمة أصلاحاته».

أقول: إن محمداً ﷺ رفع درجة المرأة، بعد أن كانت في الجاهلية في

تُحضيض من الدرجات، ودعا أتباعه إلى رعاية حقوق المرأة من كل جانب، وذلك بما أوحى إليه من ربه سبحانه من الآيات القرآنية، ومن أحاديثه الصحيحة التي وردت بشأن المرأة، يقول:

«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» وسيأتي التفصيل في الجزء الثاني «تعاليم الإسلام العامة» من هذا الكتاب، ومن الله التوفيق.

١٧ ـ وقال برفيسور ليك أحد الكتاب الأجانب بعد ما فصل في وصف نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام:

«وأخيراً أذكر في هذا البيان العالمي، الذي أسداه النبي العظيم بتحريمه الخمر، وبواسطته وبه فقط حفظ ملايين من الناس جيلاً بعد جيل، في أثناء الأربعة عشر قرناً الأخيرة من الخزي المهين.

أعتبرما يجري في أمريكا في خصوص إجبار الناس على الإذعان لقانون تحريم الخمر، أليس من المعجزات الباهرات؟ أن محمداً ـ ﷺ ـ جعل الصادقين من أتباعه في حرز حريز من شر المشكلات (التي يجلبها الخمر إلى المجتمع) جيلاً بعد جيل، وإنما ذلك بالقوة الأدبية وبقول واحد».

١٨ ـ وقال العالم الهندوسي ت. ل. فسواني بعنوان «إجلال فسواني لمحمد»:

«تأملت في أمر محمد ـ ﷺ ـ فتعجبت من هذا الرجل العظيم، الذي نشأ بين أولئك القوم، المختلي النظام، الفاسدي الأخلاق، العابدي الأحجار. هذا الرجل محمد وقف تقريباً وحده، شجاعاً متحدياً غير هياب ولا وجل في وجه التوعد بالقتل.

فمن الذي أعطاه تلك القوة التي قام بها كأنه بطل من أبطال الحرب حتى استمعوا بعد الإعراض لكلامه؟ فمن أين جاء سحر بيانه حتى أعتق العبيد، وساوى وآلف بين النبلاء والأشراف وبين الصعاليك المنبوذين، حتى صاروا إخواناً وخلاناً؟

ونحن هنا في الهند إلى الآن لا نزال نقتتل (نقاتل) لأجل جواز لمس بعضنا بعضاً أو عدمه، ولا نزال عاجزين عن إباحة الدخول في بيوت الآلهة ـ الأصنام والأوثان ـ للمنبوذين من أبناء جلدتنا.

من أين استمد الرجل محمد ﷺ قوة حياته الغالية؟ والهند إلى الآن مصابة بمصيبة شرب الخمر، والرجل محمد اقترح كما تقول الكتب القديمة ـ يشير إلى القرآن المجيد ـ مقاطعة الخمر ومقاطعة كل شراب مسكر، فقام أصحابه وألقوا دنان الخمور في أزقة المدينة وحطموها تحطيماً، ولقد كان تصرف محمد في قومه كالتنويم المغناطيسي، فمن اين جاء سر هذه القوة؟

ألم تر أن قومه كانوا أشتاتاً قد عمتهم الفوضى، فآلف بين قلوبهم وجعلهم أمة واحدة، وكانوا راسبين في التوحش فأنقذهم ورفع مقامهم، وجعلهم عظماء أقوياء في أعين الأمم كلها، حتى صارت الأمة المحمدية صاحبة القيادة العليا في التمدن، وأصبحت آخذة بيمينها مصباح التهذيب والرقي، وإن التهذيب العربي هو الذي أنشأ في آسيا وأوروبا نشأة جديدة وإنسانية جديدة».

وفي الختام قال فسواني:

«إليك يا محمد! أنا الخادم الحقير، أقدم إجلالي وتعظيمي بكل خضوع وتكريم، إليك أطاطىء رأسي!

فإنك لنبي حق من عند الله، وإن قوتك العظيمة كانت مستمدة من عالم الغيب الأزلي الأبدي!

١٩ ـ وقال الفيلسوف الروسي «تولستوي» المعروف أيضاً:

«ومما لا ريب فيه أن محمداً (ﷺ) كان من عظماء الرجال المصلحين، الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتوثر عيشه الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية.

وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا لجدير بالأحترام والإجلال».

أقول: إن اعتراف تولستوي بفضل محمد رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، تعبير عن الواقع والحقيقة، وإنصاف بشأنه، وأنا أعلق عليه قائلاً:

إن قوة محمد (ﷺ) لم تكن قوة عادية مثل ما يكون عند الرجال المصلحين، بل كانت قوة فوق العادة موهوبة من عند الله الذي أرسله للعالم كافة (مثل ما يكون عند الأنبياء والمرسلين من القوة، بل أقوى وأعظم منها).

٢٠ ـ وقال «وليم موير»[1] المؤرخ الإنجليزي، صاحب كتاب «حياة محمد»:

«لقد أمتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن كما فعل محمد نبي الإسلام».

٢١ ـ قام أحد الأعضاء الأوربيين على منبر المؤتمر الإجتماعي التاسع عشر، لمكافحة المسكرات التي عقد في مدينة «أنفرس» في بلجيكا، وقال وهو يؤيد تحريم الخمر في الدين الإسلامي وحكمته:

«إن جزيرة أيسلنده، وهي من أشد البلدان برداً، كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطي المشروبات الروحية، فكثرت بينهم الوفيات إلى حد أقلق بال ولاة أمورهم، فألفوا لجنة لتبحث في الموضوع وتتعرف أسبابه.

فأثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات ترجع إلى أن القوم يستنفدون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر، مما تعجل بوفاتهم، لأنتهاء الحرارة من أجسامهم».

---

(١) مستشرق بريطاني، ولد سنة ١٨١٩، وتوفي سنة ١٩٠٥م. تولى مناصب هامة في الهند، وعمل مدرساً في جامعة أدنبره، وقد امتاز بدراساته في التاريخ الإسلامي، وكتابه «حياة محمد» ألفه سنة ١٩٢٣ في أدنبره، وله كتاب «الخلافة» ألفه سنة ١٨٩١ في لندن.

ثم نهض عضو أوربي آخر وذكر في تأييده قصة حيث قال:

«إن الدكتور «سكوت» ورفاقه حينما ذهبوا في منطاد لارتياد القطب الجنوبي أدرك سكوت سوء تأثير الخمر، فأوصى أصحابه بألا يشربوا خمراً لئلا يفقدوا مناعة أجسامهم فلا تقوى على تحمل البرد، إلا أن بعض رفاقه لم يستمعوا إلى نصيحته، وتجرعوا بعض أقداح من الخمر، فكانت النتيجة (كما دونها الدكتور سكوت في مذكراته) إن الذين اتبعوا سبيله واجتنبوا شرب الخمر نجوا من الموت دون غيرهم».

٢٢ ـ وقال بروفيسور «ليك»:

«إنها لحقيقة مجردة أنه بينما كان غير أهل الإسلام راسبين في العبودية كان المسلمون يتمتعون بالحرية والمساواة، وما أجمل ما قاله المعلم العظيم محمد ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله».

٢٣ ـ وقال أحد كتاب أوروبا المنصفين[1]:

«لقد كان محمد ـ ﷺ ـ أول من وحد بين القبائل العربية بالجزيرة وشعوبها، وجمع كلمتها تحت راية واحدة. وقد كان ظهور محمد في حين الحاجة إليه، فجاء وجمع الكلمة لا بالقوة والشدة، بل بكلام عذب، أخذ منهم كل مأخذ، فاتبعوه وصدقوه، وقد فاق فتى مكة غيره من الرسل والقادة من الرجال بصفات لم تكن معروفة لديهم، فكان يجمع بين القلوب المتفرقة فتشعر كلها شعور قلب واحد».

٢٤ ـ وقال المستر إدوارد ورمسي المستشرق الأمريكي:

«قبل أن نشرح علاقة الإسلام بالمدنية الحديثة، ونبين المركز الرفيع الذي يحله بين الديانات العظيمة المعروفة، يجب علينا أن نرجع إلى الأيام التي سلفت قبل ظهور النبي محمد ﷺ، ونتبين ماكان عليه سكان البادية من عبادة الأصنام

---

(١) وهو لويل توماس الإنجليزي.

ووخيم العادات، ثم نبحث عن الإصلاحات التي أدخلها النبي الكريم في شبه الجزيرة، لأن الأشياء إنما تتميز بضدها».

ثم مضى مستر إدوارد يقول:

«كانت بلاد العرب غارقة قبل نبوة محمد ـ ﷺ ـ في أحط الدركات، حتى ليصعب علينا وصف تلك الخزعبلات التي كانت سائدة في كل مكان.

فالفوضى العظيمة التي كان الناس منهمكين فيها في ذلك العصر، وجرائم الأطفال (يريد قتلهم من إملاق) ووأد البنات وهن أحياء، والضحايا البشرية التي كانت تقدم باسم الدين والحروب الدائمة التي تنشب آناً بعد آن بين القبائل المختلفة، والنقص المستديم بين أهل البلاد، وعدم وجود حكومة قوية؛

كل هذه كانت سبباً في سيادة الهمجية، وازدياد الجرائم، وانتهاك الحرمات، وهذه حقيقة يحملها التاريخ ولا يمكن إنكارها.

كانت بلاد العرب في حالة تشوش وبلبلة، وفي فوضى منتشرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ أية أمة من الأمم، حتى أن بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم الخليل عليه السلام لإقامة شعائره الدينية فيه، قد حول إلى معبد يحتوي على أربعمائة صنم، لكل قبيلة صنم تعبده.

وأما الأديان السماوية التي جاء بها موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام، فقد كانت فقدت نقاءها وفضيلتها الأصلية، وعبثت بها أيدي العابثين، فحرفوا كلام الله ولوثوا معتقداتهم بجزعبلات واعتقادات لم ينزل الله بها من سلطان، حتى أصبح الناس لا يفرقون بين الفضيلة والرذيلة، وبين الحق والباطل.

وبالأختصار كان العرب يعيشون في جو فاسد، مملؤ بالغبار والميكروبات، حتى أن مجرد ذكرى هاتيك الأيام تقشعر منها النفوس، وهكذا كانت أحوال سكان شبه جزيرة العرب، وتلك هي عادتهم حينما جاء محمد ﷺ، شارحاً

للعالم رسالة الله الواحد القهار، حاملاً بيده اليمنى الهدى والفرقان وبيده اليسرى نور المدنية الوضاء، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وهناك بزغ فجر عصر جديد كان يرى فى الأفق، وبشرت الأيام بسطوع شمس العرفان، وانقشاع سحب الجهالة المظلمة التي أخفت النور السماوي عن أبصار الناس زمناً طويلاً، وأتى اليوم الذي أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد (ﷺ) ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة، أتى الوحي من عند الله إلى رسوله الكريم، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلية، فانتبه العرب، وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان الرذيلة المظلمة».

ثم مضى المستر إدوارد يقول:

«ولنتصور سكان البادية، حينما رأوا أصنامهم تكسر على مرأى منهم، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة في الرأى، وعدم الخضوع للغير، أفلا يثور ثائرهم، ويهبون بفتك محمد؟ ولكن محمداً يتكلم بكلام الله! فقد كانوا يجدون في نبرات صوته هدى وتأثيراً كبيراً.

ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق، ولم يجدوا بداً من الجري في مجاري النقاء الجديد، لأنه أجتاح كل الموانع والسدود، كما يجتاح السيل الجارف كل شيء يقف في طريقه.

وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة، وأخمدت قوة الله هاتيك الشرور والآثام، وحررت الإنسانية من قبضة الوحشية.

وبالإجمال: أتى الوحي من عند الله العلي القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله - ﷺ - ففتحت حججه العقلية السديدة أعين تلك الأمة الجاهلة، فانتبهوا وتحققوا وعلموا أنهم كانوا في أحضان الرذيلة المظلمة.

٢٥ - وقال البستاني المسيحي في كتابه «العرب في الجاهلية وصدر الإسلام» ما يلي:

«. . . وكان في المدينة يهود يناهضون ضد النبي محمد ويؤلبون الناس عليه، ويغرون ضعفاء الإيمان بالارتداد عن الإسلام، فتعرض لهم القرآن وذكرهم بما أنعم الله على آبائهم بني إسرائيل، وتوعدهم لتكذيبهم بالرسول ودعاهم إلى تصديق نبوته وقبول دعوته.

كما كان في المدينة منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، وكانوا يذيعون الأراجيف عن حروب المسلمين، وبذلك يتأذى نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، ويتطرق بعض الضعف إلى قلوب بعض المسلمين، فتناولهم القرآن حيث ندد بهم وهددهم بالدرك الأسفل من النار.

كما أن القرآن حينما رأى في المسلمين أي ضعف أو شقاق دعاهم إلى قوة الإيمان، وإلى التآلف، وأنبهم تأنيباً عند الأنهزام، وحضهم على القتال ضد المشركين والمعتدين، مع تذكيرهم بأن الموت في الجهاد سبب للمغفرة والرحمة. ولم يكن في الحجاز نصارى يقاومون الدعوة مثل مقاومة اليهود لها، فلم يتعرض لهم القرآن كثيراً، وهو في كلامه على النصارى أرفق بهم منه باليهود».

أقول: إن مضمون إعتراف البستاني في ختامه، ينطبق على ما أخبر به الله سبحانه عن الميزة الفارقة بين اليهود والنصارى، حيث قال ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة، الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ (الآية ٨٢ من سورة المائدة).

وقد فصلنا هذا الموضوع في فصل سابق من هذا الكتاب.

٢٦ ـ وقال الكاتب الإنجليزي الكبير لويل توماس:

«قبل أن يكتشف كريستوف كولب أمريكا بألف سنة، أبصرت عينا الطفل القرشي محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ النور في مكة، فكان الله اختار هذا الطفل ليقلب تاريخ العالم، وكان في طفولته يرعى الماعز والغنم، فيقودها إلى أعالي الجبال التي تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم.

ولما شب وأينع راح يذهب إلى سورية في تجارة بمال إحدى نساء قريش (يشير إلى السيدة خديجة بنت خويلد). وسرعان ما شعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان، كانوا على ضلال يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير، فبعث بدين متسامح رضي بقلبه كل إنسان بدون مشقة، وقد علم أصحابه حب آدم وإبراهيم وموسى وعيسى، واعتبارهم أنبياء مرسلين، ولكن هؤلاء لا يعتبرون بمنزلة محمد، بل هم أقل منه بدرجات، لأن محمداً (ﷺ) هو خاتم الأنبياء والرسل، ودينه دين الله العام على عالم البشرية، ولهذا لا توجد أسرة في الجزيرة العربية، لا تسمي أحد أبنائها باسم محمد، وينتشر اسم محمد في العالم أكثر من انتشار اسم بطرس (ناشر الدين المسيحي) ويوحنا.

فهل يستغرب بعد هذا كله أن تكون تلك الصحراء مهداً لأعظم أديان العالم، وهي اليهودية والنصرانية والإسلام؟

إن العرب يسمون الصحراء رياض الله، وهم يقولون بأنه ليس في الصحراء غير الله وحده.

ففي صحراء الجزيرة العربية كل شيء يوحد الله، والسموات والأرض تسبح بحمد الله، وإلى اللانهاية تمجد أعمال الله.

والنهار يتلوه النهار، والليل يعقب الليل، وفي تلك الصحراء لا يوجد من يفكر في الأستيلاء والتسلط على غيره.

إن مـدنيتنا الطاغية لا تسمح لنا بإضاعة وقتنا بالتفكير، ولكن تلك الصحراء في سمائها الصافية الصحية، هي مبعث الأحلام القدسية، ومهبط الوحي من عند الله.

لقد كان محمد العربي القرشي، النبي الهاشمي، والرسول التهامي أول من وحد قبائل الجزيرة المتنافرة، وأول من آلف بين قلوب شعوبها المتقاتلة، وجمع كلمتها تحت راية واحدة.

ثم قال لويل توماس:

«لقد كان ظهور محمد النبي (ﷺ) في حين الحاجة إليه، لطرد الغاصب الغريب، (يشير إلى محاولة دولتي الروم والفرس لبسط السلطة على جزيرة العرب قبل البعثه).

فجاء محمد وجمع كلمة العرب ووحد صفوف العرب، ولكن لا باستعمال القوة والأعتماد على الشدة، بل بكلام عذب حكيم أخذ منهم كل مأخذ، فاتبعوه وآمنوا به.

وقد فاق فتى مكة جميع الرسل وقادة الرجال بصفات لم تكن معروفة لدى العرب، فجمع بين القلوب المتفرجة، وجعل منها قلباً واحداً».

ومضى لويل توماس يقول:

«مات النبي محمد (ﷺ) وتدفقت بعده موجة الإسلام، فاجتازت الصحاري ودخلت المدن، وذلك لتجعل ذكراً خالداً أبدياً لذلك الرجل العظيم الذي انتجته وأنبتته صحراء قاحلة، فأثمر ثمراً لم يحلم به العالم من قبل.

وامتدت هذه الموجة (موجة الإسلام) فعمت آسيا وأفريقيا إلى أن استولت على أواسط أوروبا، تلك الموجة التي لم تلحق بها موجة الرومان في إبان مجدهم وعهد عظمتهم.

وفي هذا العصر، عصر فتوحات الإسلام، قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الإسلام وأكثرهم ثقافة، وبهذ وذلك فإن الإسلام قد حل بالعالم. وانتشر في ربوعه بسرعة الصاعقة، وإنما بدأت تنحط هذه الإمبراطورية العظيمة (يريد دولة الإسلام التي تأسست بنبوة محمد ﷺ) منذ واقعة بوانيه، في أرض الغالبين». ثم قال:

وبقي كثير من رجال العرب في البلاد التي دخلوها، ينشرون تعاليم النبي محمد (ﷺ) فكانوا يعلنونها بكل قوة من الإيمان في أعلى السطوح ورؤوس المآذن، وينادون أينما حلوا قائلين: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»!

٢٧ ـ وقال الدكتور شبلي المسيحي[1] (بعد ما وصف الدين الإسلامي):

«. . . إن محمداً نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام، لهو أكبر وأكمل بشر في الأقدمين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله في المستقبل أيضاً».

أقول: إن اعتراف الدكتور شبلي شميل ووصفه لنبينا محمد ﷺ بهذه الكلمات الموجزة، إنما يستند على دراسته دراسة عميقة لشخصيته النبوية، وفي نفس الحال ينطبق على ما أخبر به الله سبحانه عن ذات نبيه ورسوله، وعن مقامه بين الأنبياء والمرسلين، ألا وهو قوله سبحانه في القرآن المجيد: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين﴾. (الآية ٤٠ من سورة الأحزاب).

٢٨ ـ وقال أدموند بيرك:

«إن القانون المحمدي قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه وهو قانون نسج بأحكام نظام حقوقي، وأعظم قضاء علمي، وأعلم تشريع عادل، لم يسبق قط للعالم إيجاد مثله».

٢٩ ـ وقال الشاعر الكبير «لا مارتين»:

«إن محمداً أقل من إله، وأعظم من إنسان عادي، أى إنه نبي».

٣٠ ـ وقال «فنلي» في كتابه «اليونان تحت حكم الرومان»:

«إن نجاح محمد رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) كمشرع بين أقدم الأمم وأثبت البلدان قدماً في القانون مدى أجيال طويلة في شتى نواحي الهيكل الأجتماعي، دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة».

---

(١) طبيب وعالم طبيعي ومصلح اجتماعي لبناني. ولد سنة ١٨٥٠. وتوفي سنة ١٩١٧م.

أقول: إن محمداً ﷺ رجل خارق حقاً لصفات سائر الرجال الذين قاموا بقيادة الأمم، لأنه بعث نبياً ورسولاً من عند الله للناس كافة وأرسل للعالمين رحمة، ولهذا فإنه كان صاحب كفايات ممتازة لا توجد عند سائر العظماء من الرجال.

فقد أعده الله إعداداً لهذه الرسالة العالمية، وأدبه تأديباً، ثم بعثه ليهدي العالم البشري إلى دين فطري خالد، يتكفل له سعادة الدنيا والآخرة، والحمد لله على ذلك.

٣١ ـ وقال الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل[1] في كتابه «الأبطال، وديانة الأبطال»:

«أى شيء أكبر دلالة على صدق من يدعي لك أنه بناء ماهر من أن يبني بيديه داراً تقاوم العوادي أكثر من ألف ومائتي سنة، وهي تسع نحو مائتي مليون من الناس؟.

كذلك لا شيء أكبر دلالة على صدق نبوة محمد (ﷺ) من أن يؤسس ديانة تجد فيها نحو مائتي مليون من الأنفس غذائها الروحاني، وتقاوم عوامل التحلل أكثر من أثنى عشر قرناً».

أقول: إن اعتراف كارليل اعتراف يستحق التقدير، ولكنه قليل في حق نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، فإنه ليس بمؤسس دين يقوم على أساس من الوحي السماوي فحسب، ولكنه صاحب الدعوة العالمية الكبرى، التي دوت في أرجاء العالم، وقلبته من حال إلى حال، وأتت بأعظم إصلاح عرفه التاريخ البشري، وقاومت عوامل التحلل والأنحراف والتبديل أكثر من أثني عشر قرناً

---

(١) ١٧٩٥ ـ ١٨٨١، ويقال في وصفه أنه يعتبر أكبر عقل ولدته الأمة الإنجليزية بعد شكسبير.

(إلى عهد كارليل) وجاوزته إلى أربعة عشر قرناً، وستقابل كذلك وتقاوم الإلحاد واللادينية لتبقى كما هي، وتجد فيها الأمة المحمدية غذاءها الروحاني، (لا أكثر من أثني عشر قرناً فحسب) بل أربعة عشر قرناً كاملة، ثم أكثر فأكثر، ذلك لتعيش حياة شريفة، رافعة الرأس في ظلالها المباركة، إلى أن تقوم القيامة، فتجزي كل نفس بما عملت وهم لا يظلمون.

٣٢ ـ وقال كارليل في كتابه المذكور أيضاً:

«. . . فمحمد هو الذي قال إنه رسول من عند الله، وبرهن على صدق قوله بدين نشره في الناس، أخذه مئات من الملايين وأمضى عليهم في ذلك قروناً طويلة، وهم يحبون دينهم هذا، ويتحمسون له أكبر تحمس، فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك؟».

٣٣ ـ وقال المسيو «جول لابوم» الفرنسي في مقدمة الفهرس الذي وضعه لآيات القرآن، المترجم للغة الفرنسية ما يلي:

«حوالي ميلاد محمد في القرن السادس الميلادي، كان جو العالم ملبداً بغيوم الأضطراب والفتن».

ثم سرد جميع أحوال الأمم وبين ما كان فيها من صفوف الفتنة، فقال: «الخلاصة إن جو العالم الأرضي كان متلبداً بسحب الأضطرابات الوحشية في كل مكان، وكان اعتماد الناس (في سبيل حياتهم) على وسائل الشر، أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير.

وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك، ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب، ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً (وإن كان وقتياً) إلا شيء واحد، ألا وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمداين والأعيان ورجال الحروب وفقراء الفلاحين وبسطاء المتسولين، ولولا شعاع ضئيل من

الحكمة الذي كان يتألق في بعض صوامع الكهنة، وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب، وانتقلت من روح إلى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجرأة من رسل الرقي.

لولا هذا وذلك، لكانت البربرية أسرعت في خطاها معقودة بغطرسة زعماء البهيمية، واستحالت إلى وحشية محضة.

مع هذا كله الذي يجري في العالم، كان هناك ركن من أركان الأرض لم تصبه لقمة من هذه الحركة، ولكن لم يكن ذلك لحكمة آهله ورجاحة عقولهم، وإنما كان بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدنة في ذلك الزمن.

ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة الواقعة في أوروبا إلا عن بعد.

وما كان يصل إليها ذلك اللغط إلا في غاية من الضعف والضآلة.

كانت جزيرة العرب تجهل وجود الهند والصين، ولهذا فإن علاقتها لم تكن تتعدى مع آسيا، حدود الفرس، ولم تعرف فيها الفرس إلا من أخبار الأنتصارات والهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سورية إلى تبعية إمبراطورية القسطنطينية تبعية إسمية، أو رفع تلك التبعية الأسمية عنها».

ثم ختم المسيو جول فذلكته التاريخية الطويلة فقال:

«في عهد هذه الأحوال الحالكة المظلمة، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة، ولد محمد بن عبد الله رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام. في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م.».

ثم قال المسيو جول:

«هذه كانت حالات العالم على عهد البعثة المحمدية، وهي حالات ـ كما يرى المفكرون ـ كانت تقتضي حدوث انقلاب خطير يتغير له وجه الأرض، وتزلزل منه الأمم زلزالاً شديداً، وتنجم فيه حركة أدبية عنيفة يتنبه بها العقل الإنساني من سباته العميق، وتدفعه لرفع الحجب عنه واحداً بعد آخر، ليتابع طريقة في تخليص الأمم من تحجرها، ورفعها إلى سبيل الرقي والعمران، حتى تبلغ إلى الغايات البعيدة التي خلقت لبلوغها».

٣٤ ـ قال المسيو «دوزى» الفرنسي في كتابه «تاريخ عرب أسبانيا»:

«كان يوجد في بلاد العرب ثلاث ديانات، وهي الموسوية والعيسوية والوثنية، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم (الموسوى) وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم.

نعم: يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين، ولكن ما وجد منها فمنسوب إلى اليهود وحدهم.

أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية .

وأما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة، فكان لكل قبيلة بل وأسرة منهم إلهة خاصة، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى، ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان إذا لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات، وأولعوا على فضحهم عند أصنام إن قربوا لها بعد أن نذروا لها نعجة.

وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم».

أقول: لقد صور المسيو دوزى عهد الجاهلية قبل بعثة محمد ﷺ في الناحية الدينية، بالفوضى عموماً، بما فيه حقد اليهود على غيرهم من أهل

الأديان، وقلة أتباع النصرانية، وضعف معرفتهم، مما يدل على حاجتهم إلى دين جديد، كما وصف دوزى، الوثنيين بالجهالة القصوى وهو وصف بالحقيقة، وإلا فما معنى اتخاذ الكهان أئمة، ثم قتلهم عند فشلهم في إخبارهم عن المغيبات؟ وما معنى اتخاذهم الأصنام آلهة دون الله، ثم سبهم إذا لم ينالوا عندهم مطلباً أو إسعافاً فى أملهم؟ أفلم يعلموا أن الأصنام أجسام جامدة صنعتها أيدى الوثنيين أنفسهم، لا يقدرون على شيء؟، فالأصنام مخلوقة، كما أنهم مخلوقون، وقد خلقهم جميعاً خالق السموات والأرض.

نعم: وصف دوزى عهد الجاهلية بحالة تتطلب بطبيعتها بعثة النبي العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ليقوم بوحى من الله عز وجل بإصلاح العباد، وتهذيبهم عن الفساد، وإرشادهم نحو التوحيد، وهدايتهم نحو الدين الصحيح، والعقيدة الصحيحة، والعبادة الصحيحة.

٣٥ ـ وقال المسيو كوسان دوير سوفال:

«وكان من العرب من كانوا يعبدون الكواكب، وبخاصة الشمس، فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري، وكان الأطفال من بنى عقد يدينون لعطارد، وبنو طيء ألّهوا سهيلا (أى اتخذوا السهيل إلهاً) وكان بنو قيس عيلان للشعري اليمانية، وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة آرائهم الدينية.

ثم قال المسيو كوسان:

«وكان من العرب من يعتقد بفناء الإنسان إذا خلعته المنون من هذا العالم (أى لا يعتقدون النشور يوم القيامة)، ومنهم من يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة، فكان هؤلاء الأخيرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة، أو يربطونها، ثم يدعونها تموت جوعاً، معتقدين أن الروح لما تنفصل من جسد الناقة تتشكل بصورة طير يسمونه الهامة أو الصدى، وهو نوع من البوم لا تبرح ترفرف بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده».

أقول: لقد أضاف المسيو كوسان (في هذه السطور التي نقلناها عنه) وصفاً على وصف المسيو دوزي لعهد الجاهلية قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يعرف للناس ذلك العهد المظلم بما كان عليه من الجهل والعبادة للمخلوق، والظلم للحيوان (الناقة) بذبحه لا لغرض الأكل أو الإطعام للغير، ولا سيما بربطه وتركه إلى أن يموت جوعاً، بتلك العقيدة الفاسدة التي ذكرها، ومما يذكر هنا: أن من عادة البوم أياً كان نوعه السكونة في الأمكنة الخربة وبالخاصة القبور مما يدل على بطلان هذه العقيدة.

٣٦ ـ وقال «ونيسون» في كتابه «الحركات كأساس للحضارة»:

«وفي القرنين الخامس والسادس (يعني قبل البعثة) كان العالم على شفا جرف هاو من الفوضى، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة قد انهارت، ولم يكن ثمة ما يعتد به مما يقوم مقامها.

وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة، مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب، ولا قانون ولا نظام، أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار، بدلا من الاتحاد والنظام. وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله واقفة تترنح، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب».

وفي الختام قال:

«وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه».

٣٧ ـ وقال «جيمس متشتر».

«إن محمداً رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) هذا الرجل الملهم الذي أقام الدين الإسلامي، ولد حوالي سنة ٥٧٠ م في قبيلة عربية كانت تعبد الأصنام، وكان محباً للفقراء والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين:

وقد أحدث محمد (صلى الله عليه وسلم) بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه جزيرة العرب وفي الشرق كله، فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده، كما رفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها عليها تقاليد الصحراء. . .».

٣٨ ـ وقال المسيو جول لابوم أيضاً:

«كان العرب (قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم) مغرمين بشرب الخمر، ويوجد من شعر العرب ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون بالخمر والميسر، وكان من عوائدهم (أى عاداتهم) أن الرجل له أن يتزوج ما تسمح له به وسائله المعيشية (بدون تحديد الزوجات) وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه (أى لم يكن الطلاق مبنياً على سبب معقول) وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب، وقد حرم الإسلام ذلك وعده زواجاً ممقوتاً، وكان لدى العرب في الجاهلية عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة، وهي وأد البنات، أي دفنهن أحياء».

ثم قال جول لابوم:

«وهذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أي جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها، فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً، ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى».

أقول: لقد عبر المسيو جول لابوم فيما عبر به عن الحقيقة، سواء كان في التعبير عن تلبد جو العالم في جميع أرجاء الأرض بسحب الاضطرابات والفتن في اعترافه الذي سبق، أو في التعبير عن عادات العرب قبل البعثة التي قام الإسلام بإصلاحها.

نعم: إن تعبير المسيو جول لابوم ناشىء عن الاطلاع الصحيح بحيث يستحق التقدير، ولا سيما قوله (وهذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم

أي جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها) وكان الأحسن أن يقول «تنميتها» بدل تهذيبها) فقد كانوا يحبون الحرية.. إلخ.

نعم: أن تلك الجرثومة الخلقية الصالحة كانت من أسباب بعثة نبي آخر الزمان وخاتم النبيين من بين أولئك العرب، واستجابتهم لدعوة الحق، وإستعدادهم الفطري لقبول الحق، وتضحياتهم في سبيل نشر الحق، حتى نشأ الدين الإسلامي دين البشرية كافة من جزيرتهم، ثم اكتسح بلاد الأرض، ومدنها وقراها، وسهولها وجبالها، ودام في ربوع الدنيا كلها يقوم بإصلاح شئون العالم الإنساني في كل ناحية الحياة منذ ١٤ قرناً، وسيدوم إلى دوام الحياة في هذا الكون، وذلك بصفة الدين الفطري الأبدي. والحمد لله على ذلك.

٣٩ ـ ونشرت جريدة «الناقد» السورية، بعنوان «كاتبة إنجليزية تتحدث عن نبي الإسلام» ما نصه:

«في بلاد محرقة ومفازات وعرة بعيدة عن مناهل الحضارة والإنسانية، وبين شعب ثوري متنابذ يجهل كل شيء، انبجس نبع صافي المياه عذبها (تريد ظهور الإسلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم) ولم يلبث أن أضحى ساقية، ثم نهراً فاض بسرعة فائقة، وتحول إلى جداول فياضة عديدة جابت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وجعل مصير كل من ذاق حلاوتها وعذوبتها من الشعوب، الاتحاد وتناسى الضغائن والائتلاف حول زعيم واحد (تعبير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) وليس هذا النبع سوى الإسلام.

هناك حيث يسود الانتقام، وحب التفرقة والخلاف، ظهر شعور جديد، شعور الأخوة والتآلف بين شعب جمعته فكرة الدين والأخلاق السامية.

ولم تكن ألا فترة قصيرة، حتى أضحت تعاليم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) سيولا اجتاحت ممالك الحضارة القديمة، غير آبهة بالحواجز والعثرات، فجعلت من تلك الشعوب المتفرقة المتنابذة، شعباً متحداً واحداً لا يفرقه شيء!.

تلك حادثة غريبة لم يرو لها التاريخ مثيلا قبل اليوم، ولم يكن ليخطر على بال

أحد أن يصبح الإسلام دين ملايين من الرجال الأشداء بعد أن كان دين بضعة رجال متحمسين. وإن الإنسان ليتساءل بدهشة غريبة عن تلك القوى الخفية التي ساعدت المسلمين على التغلب على شعوب تفوقهم حضارة واختباراً وغنى واستعداداً حربياً؟ تلك القوى الخفية التي أعانتهم على توسيع بلادهم الصغيرة وتوطيد نفوذهم في كل بلد احتلوه، توطيداً لم يترك لأية جهود مبذولة مجالا لتقويضه، وجعلتهم حتى غرسوا في نفوس الشعوب الغربية روحاً شريفةً لا تعرفها الديانات الأخرى. وقد مضى عليها ثلاثة عشر قرناً ونيف ولكنها لم تتحول بل مازالت تشتد وتمتد وتزيد نفوس أنصارها رغبة لاقتحام كل خطر في سبيل الذود عن حياضها». ثم قالت:

«وأي إنسان لا يقف مدهوشاً أمام الديانة الإسلامية وهو يرى مصائر الديانات الأخرى؟». ثم مضت تقول «والغريب أن الإسلام الذي لم يكن قبل الهجرة المحمدية سوى دعوة دينية حارة، أن أضحى بعدها قوة سياسية هائلة أتاحت للنبي محمد بإذن من الله أن يدافع عن نفسه أمام مضطهديه والذين زيفوا دعوته، وأن لا يعيد السيف إلى غمده إلا بانتهاء مهمته (يعني بعد صدور الإذن والأمر بالقتال في المدينة، كما أشارت إليه الكاتبة).

وقد شاء الله أن لا ينقضي عام من هجرة النبي وصحابته حتى ارتدى الدين الإسلامي حلة قشيبة لا تزال تبعث بأنوارها إلى أرجاء العالم، وتلفت الأنظار إلى الانقلاب الاجتماعي والسياسي الذي قامت به الديانة الإسلامية في البلاد البربرية المتوحشة!

وقد كان لهذا الانقلاب أثره الأكبر، حيث استولى المسلمون في السنة الثامنة من الهجرة على مكة (تريد فتح مكة المعظمة) ثم اجتازت مضارب جيوشهم حدود فلسطين وسورية، وكان المسلمون عازمين على القيام بحملة كبرى عندما خفت صوت النبي محمد في السنة الحادية عشر من الهجرة (تريد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم) ذلك الصوت الذي هز أوتار القلوب، وجعل لصوت تلك الأوتار رنة بين الشعوب البعيدة». ثم قالت: «توفي النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)

ولكن لم تمت دعوته، فقد كانت الجزيرة العربية موحدة متالفة لا تؤثر فيها مطامع بعض القبائل البدوية، ورأى الناس إذ ذاك أول معجزة من معجزات الديانة الجديدة، عندما شهدوا الجزيرة تنقلب من أرض المعارك والاختلافات إلى أرض الأسرة والتآلف والسلام، ورأى الناس إذ ذاك هذا الانقلاب الاجتماعي والسياسي والديني العظيم، فطفقوا يسألون عن أسبابه الأساسية، فكان أكثرهم على عمى يتخبطون في ظلمات الخطأ (تشير إلى أخطاء كثير من كتاب أوربا) وهم لا يدركون أن انقلاباً مثل هذا لا يمكن له أن يتم إلا بالقوة الإلهية، وأن الله هو الذي أرسل محمداً (صلى الله عليه وسلم) كآخر نبي إلى الأرض، (تشير إلى قوله تعالى «ولكن رسول الله وخاتم النبيين») كان أكثر الناس لعماهم أو تعاميهم (قصداً لإنكار ما هو الحق) يعتقدون أن سبب انتشار الإسلام السريع وانقلابه إنما يعود إلى السيف (أي استعمال السلاح المادي) غير مدركين أسبابه الإلهية الواضحة، التي لم يكن في وسع إنكارها مهما بلغ عداؤه.

يقولون إن دين محمد (صلى الله عليه وسلم) دين السيف، مع أن دين محمد دين القوة الإلهية! وفي الختام قالت الكاتبة الإنجليزية: «هذا هو الإسلام، الدين الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله، وتلك هي المعجزات التي انتشر على أساسها.

وإن الإنسان ليشعر بالغبطة عندما يرى العداء الذي كان يظهر في انتقادات الأوروبيين في القرون الوسطى، يتلاشى في هذا القرن، وعندما يرى الإنصاف الكافي الذي يظهره كتاب اليوم نحو تلك الديانة السامية أسمى ديانات العالم، الديانة التي قلبت العالم أجمع!

وإني أعتقد من جهتي أن عدم اهتمام علماء الإسلام بنشر الديانة الإسلامية وعرض آرائهم على الأمم الغربية هو الذي حمل الأوربيين على مثل هذه الانتقادات السيئة».

أقول: وهنا انتهت كلمات الكاتبة الإنجليزية الفاضلة التي تستحق كل

تقدير وشكر من قبل أمثالي علماء الإسلام، فقد جاءت كلماتها عن دراسة عميقة، وفهم دقيق، وإنصاف في سبيل تأييد الحق، بل وعن عقيدة وإمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتعاليم الإسلام وسياسته.

أما إشارتها إلى أخطاء كثير من كتاب أوربا في هذا الموضوع وإظهارها الحق ضدهم، وإشارتها إلى ما هناك من التطور في كتابة طائفة منصفين عن الإسلام، وتشجيعها لهم مما يدفعهم نحو تأدية الواجب الإنساني لتأييد الحق.

أريد أن أقول: أما هذه الإشارات فإنها قيمة جداً، بحيث تليق أن تسجل في تاريخ تعريف الإسلام على حقيقته.

ولا يفوتني أن أعلق على كلمتها الختامية قائلا:

إنها كلمة انتقاد صائب وجهته الكاتبة عن حق، وإرادة خير نحو علماء الإسلام، ولكن مضت مدة أكثر من خمس وثلاثين سنة من تاريخ كتابتها هذه الكلمات، وتطورت الظروف، بحيث تساعد اليوم علماءنا شيوخاً وشباناً ليكتبوا عن الإسلام ونبيه وكتابه وتعاليمه ما يكتبون بكل حرية وجرأة، وليعرضوا آراءهم الصائبة، وأفكارهم السديدة على شعوب العالم، وذلك الجيل الجديد، وشعورهم الناقد الذي يتطلب من القائمين بالتبليغ الإسلامي كل حكمة، وتوجيه حكيم، في كل بلد شرقي وفي كل بلد غربي، وإنما هذا امتثالا بقوله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن».

نعم: تطورت الظروف هنا وهناك، ولا سيما بمصر بعد ثورتها الموفقة، التي أتاحت فرصة طيبة للهيئات الرسمية كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وغيرها من الهيئات الشعبية بكل الوسائل الممكنة، وها هي تقوم بما هو الواجب نحو الإسلام وشئونه، مما سيكون له أثر عظيم في هذا العصر، الذي يرى في أشد حاجة إلى تعاليم الإسلام (الدين الفطري الأبدي العام) ومبادئه القدسية، وقوانينه السماوية، التي تستطيع أن تنقذ البشرية الحائرة اليوم، مما هي عليه من

الفوضى وعدم الاستقرار والاضطراب في حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية، وأن تحول دون تيار الانحلال الجارف، والإلحاد الذي يهدد الكيان البشري في كل قطر من أقطار الأرض.

٤٠ ـ وقال الكونت «هنري دي كاستري» الفرنسي في كتابه: «الإسلام»:

«إن أول مسألة دار البحث فيها إنما هو صدق النبي محمد في رسالته، وقد قلنا أن ذلك الصدق متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب، ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتاباً منزلا من عند الله، ولسنا نحتاج في أثبات صدق محمد إلى أكثر من إثبات أنه كان مقتنعاً لصحة رسالته وحقيقة نبوته. أما الغرض من تلك الرسالة في الأصل فهو إقامة إله واحد (أي الإيمان بإله واحد) مقام عبادةالأوثان التي كانت عليها قبيلته قبل ظهوره.

وأن أمة العرب قبل النبي محمد كانت وثنية على وجه العموم، وكان مذهب توحيد الإله يخطر في الأذهان رويداً رويداً، وكان المشخصون لهذا الاعتقاد فريقاً يقال لهم «الأحناف» بقوا على مذهب إبراهيم (عليه السلام).

أما المسيحيون فكانوا فرقاً كثيرة كلها تعتقد بمذهب التكثير (تعدد الآلهة والتثليث).

وتلقى محمد (صلى الله عليه وسلم) مذهب أولئك الأحناف بحالة سطحية، ولكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبع بالدين، تكيف هذا المذهب في وجدانه، حتى صار اعتقاداً لم تصل إليه نفس قبله إلا قليلا، وهو ذلك الاعتقاد المتين الذي أحدث انقلاباً كلياً في النوع البشري، ومن الخطأ أن يبحث عن هذا المبدأ العميم فيضه من غير طريقة الأحناف.

لأن محمداً (عليه الصلاة والسلام) ما كان يقرأ ويكتب، بل كان كما وصف نفسه مراراً نبياً أمياً، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس، لأن

حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان مع أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين. وكذلك من الخطأ مع معرفة أخلاق الشرقيين، أن يستدل على معرفة النبي محمد القراءة والكتابة باختيار السيدة خديجة إياه لمتاجرها في الشام، ويقال أنه لم تكن خديجة لتعهد إليه أعمالها في التجارة إن كان جاهلا غير متعلم، فإنا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون، وهم في الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً.

ثم قال الكونت هنري:

«إذن ثبت مما تقدم أن محمداً (ﷺ) لم يقرأ كتاباً مقدساً، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه، خلافاً لما ذهب إليه «اسكندر دبون» حيث يقول: «إنه كان في دين اليسوع قراءة وكتابة». ولقد نعلم أن محمداً قاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته. وقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين، ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون، وكان بغضهما متمكناً من قبله، حتى كان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه (ﷺ).

ولكي ينفرد محمد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله، اعتكف في جبل حراء، وأرخى العنان لفكره يجول في بحار التأملات عابداً مجتهداً (يعني قبل نزول الوحي).

ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل وقوة الإدراك، ما كان (لا بوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها) إلا أن يقول مراراً ويعيد تكراراً كلمات «الله أحد، الله أحد» كلمات رددها المسلمون أجمعون في عهده ومن بعده، ولكن غاب عنا معشر المسيحيين مغزاها، وذلك لبعدنا عن فكرة التوحيد.

ولم يزل عقل محمد مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة

جاءت في القرآن، ومنها ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾.

وكانت مترادفات اللغة العربية تساعد محمداً بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامي (فكر الإيمان بالله وحده) الذي دل عليه، ومن تلك الأفكار والعبادة تولدت كلمة الإسلام وهي: «لا إله إلا الله»

ثم قال الكونت هنري:

«ذلك هو أصل الأعتقاد بالله، بأنه فرد ورب صمد، منزه عن النقائص، الذي يكاد العقل يتصوره (بدون نزول الوحي) وهذا اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام، ويمتازون به على غيرهم من الشعوب والقبائل.

وأولئك حقاً هم المؤمنون كما يسمون به أنفسهم!

ولقد يستحيل أن يكون هذا الأعتقاد وصل إلى النبي محمد من مطالعة التوراة والإنجيل (يعني قبل بعثته ونزول الوحي إليه) إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقص لفطرته، ومخالف لوجدانه عند خلقته.

فظهور هذا الأعتقاد بواسطته (في جزيرة العرب) دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، كما أنه بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته، وأمانته في نبوته.

ومضى الكونت هنري يقول:

«أما مسألة الوحي بالقرآن فهي أكثر إشكالاً وأكبر تعقيداً، لأن الباحثين لم يهتدوا إلى حلها حلاً مرضياً.

ولكن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لاقتناع عمر بن الخطاب فآمن برب قارئها، وفاضت أعين نجاشي إمبراطور الحبشة بالدموع

حينما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى، وصاح القس (عند النجاشي) أن هذا الكلام وارد في موارد كلام عيسى (أى الإنجيل). ولقد أصاب جان جاك روسو حيث قال: «من الناس - يريد الأوربيين - من يتعلم العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى (لغة القرآن ونصه كما هو) وبصوته المشع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب، والتفت إلى أنه (القرآن) كلما بدت أحكامه أيدها (محمد) بقوة البيان وما أوتي من بلاغة اللسان، لخر ساجداً على الأرض وناداه قائلاً: أيها النبي رسول الله! خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار، فنحن من أجلك نود الموت أو الأنتصار!». ثم قال: «ومن ذلك الحين (أى بدأ نزول القرآن أخذت شفتا محمد تنطق بألفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض، والأفكار تتدفق من فمه إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان، وسما عن أن يترجمه قلم أو لسان، وكانت هذه الانفعالات تظهر على وجهه بادية، فظن بعض الناس أن به جنة.

ولكن هذا الرأي باطل، لأن محمداً بدأ رسالته بعد الأربعين، ولم يشاهد عليه أحد قبل ذلك أى اعتلال في العقل أو أضطراب في القوة المادية، وليس بين الناس من عرف الناس جميع أحواله في حياته كلها مثل النبي محمد (ﷺ). فلقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته، ولو أنه كان مريضاً لما أخفى مرضه (وما خفى على المحدثين).

مع أن المرض في مثل تلك الأحوال يعتبر أمراً سماوياً عند الشرقيين. (يشير به إلى بعض حالات الصوفية في الشرق).

إذن ليست حالة محمد (ﷺ) في انفعالاته وتأثراته بحالة ذي جنة، بل كانت حالته مثل التي قال نبي بني إسرائيل، (يريد موسى عليه السلام) في وصفها:

«لقد شعرت بأن قلبي انكسر بين أضلعي، وارتعشت من العظام، وصرت

كالنشوان، وذلك لما قام بي من الشعور عند سماع صوت الله، وأقواله المقدسة».

فثبت بهذا أن محمداً ليس من المبتدعين، ولا من المبتدعين كتابهم.

وفي الختام قال الكونت هنري دي كاستري:

«لا يمكن أن ننكر على محمد (ﷺ) في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاصه وصدقه، أما في الدور الثاني فلم يتزعزع الإيمان من قبله مثقال ذرة، وما أوتيه من النصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان لولا أن الأعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل للزيادة فيه، ولم يكن فيه أى عيب، بل إن ما نسبوه إليه (يعني من قبل بعض الكتاب الأوربيين) لا يؤثر بشيء على سيرته الطاهرة. إن محمداً ما كان يميل إلى زخارف الدنيا، ولم يكن شحيحاً بخيلاً، وكان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه، ويجلس على التراب، ويرتق ثوبه ونعاله بيده، ويلبسها مرقعة، وكان قنوعاً، خرج من هذا الباب (يعني توفي) ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته، تجرد من الطمع، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الأستبداد فيها، فلم تكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً. وقد احتقر المال، وبلغ من السلطان منتهاه، ولكنه لم يكن له من علامات الإمارة والملك سوى خاتم من الفضة مكتوب عليه «محمد رسول الله».

ثم قال الكونت هنري:

على أن محمداً كان يقول عن نفسه أنه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران، وكم مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع، وما به من هول رسالته، عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر. هذا ما كان من صدق محمد وأمانته بعد بعثته، وأما أمانته قبل البعثة فقد اسماه معاصروه بالأمين».

أقول: وهنا انتهى ما لخصناه مما كتبه الكونت هنري دي كاستري في كتابه «الإسلام» وهو كما يرى القارىء كناية عن دراسة واطلاع، يستحق التقدير والشكر، وعلي أن أعلق شيئاً على بعض كلماته كما يلي:

يقول هنري:

«إن أول مسألة دار البحث فيها، هو صدق النبي محمد في رسالته، وقد قلنا إن ذلك الصدق متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين».

وإني أقول، وهذا قول يعبر عن الحقيقة، ولكن قوله «ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة (يعني صدق النبي محمد في رسالته) وبين كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله» قول يجب أن نقول فيه: إن نفي الأرتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله، حكم بعيد عن الحقيقة، فإن صدق رسالة محمد في رسالته ثابت بسيرته قبل بعثته وبعدها، ولا سيما بتبشير التوراة والإنجيل به، وواضح وثابت بغيرها من الدلائل العقلية، ومع ذلك فإن لهذا الصدق ارتباطاً قوياً لكون القرآن كتاباً منزلاً، بسبب أن القرآن يعد أكبر معجزة خالدة من معجزات صدق رسالته ونبوته، وهذا شيء اتفق عليه الأولون والآخرون، ولكن الكونت هنري قد وقع في شك بسبب استماعه إلى أخطاء ومغالطات من قبله أو حوله من كتاب أوروبا، كما يظهر من قوله الآتي في كتابته هذه «أما مسألة الوحي بالقرآن فهي أكثر إشكالاً وأكبر تعقيداً، لأن الباحثين لم يهتدوا إلى حلها حلاً مرضياً».

إن عدم اهتداء الباحثين الأوروبيين إلى حل يرضى به الناس جميعاً، لا يخل بثبوت الوحي بالقرآن، وهو أمر ثابت لا يتردد في قبوله العاقل، المنصف البعيد عن التعصب المذهبي، كما أقر نفس الكونت هنري ثبوته بتقرير منطقي بعد هذا القول وهو قوله «ولكن العقل يحار كيف يتأتى، الخ» فلا شك في ثبوت الوحي بالقرآن، ولا في ارتباط صدق رسالة محمد بكون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله عز وجل.

ثانياً: إن الكونت هنري يشير إلى أن محمداً قبل بعثته تلقى توحيد الإله من فريق يقال لهم «الأحناف» الذين بقوا على مذهب إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وهذا أيضاً قول لا حقيقة له، فإن محمداً ﷺ لم يتلق التوحيد من أحد، بل إنه كان يبغض الأوثان بغضاً شديداً بمحض فطرته البشرية الطاهرة، فقد قال ﷺ «لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغضت إلى الشعر» فكان يؤمن بالله وحده. ويختلى لعبادته وحده في غار حراء تعبداً ينطبق على دين إبراهيم بدون تلقن من أحد.

نعم: إن محمداً ﷺ لم يتلق مذهب التوحيد (قبل بعثته من أحد، وإنما كان يوحد الله ويعبده وحده لا شريك له بفطرته الطاهرة، وبإلهام من عند سبحانه، كما قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وكان ذلك إعداداً له من عند الله ليبعثه نبياً ورسولاً للناس كافة، وللعالمين رحمة.

وقد أشار إليه نفس الكونت هنري (بعدما زعم أن محمداً تلقى مذهب أولئك الأحناف «أى التوحيد» بحالة سطحية) قائلاً: ولكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة.. الخ.

هذا. ولا يفوتني في آخر تعليق أن أقدر حسن دفاع الكونت هنري في موضوع زعم كتاب الغرب بإمكان وصول عقيدة التوحيد إلى النبي محمد ﷺ عن طريق مطالعة التوراة والإنجيل، وموضوع إتهام محمد ﷺ بمرض الجنة (اتهامه من قريش أيام بعثته) بأسلوب منطقي مقنع، مع تقديري لما ختم به كتابته بوصف محمد ﷺ، وصفاً يتفق مع ما ثبت عنه من الصفات النبوية، والخصال السنية.

٤١ ـ وقال الفيلسوف الكبير لامارتين الفرنسي:

«أترون أن محمداً (ﷺ) كان أخاً خداع وتدليس وصاحب باطل ومين، كلا: بعد ما وعينا تاريخه ودرسنا حياته، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين (الكذب)، كل ذلك من نفاق العقيدة، وليس للنفاق قوة العقيدة، وليس للكذب قوة الصدق.

وإذا كان قوة الصعود والمرمى في علم الطبيعة والحركات الآلية هي المقياس

الصحيح لقوة المصدر الذي تنفذ منه الرمية وتظهر في الأفق من القذيفة، فإن العمل والفعل الذي يحدثه المحدث في علم التاريخ، وسجل الخلود، وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي، وقوة القلب والوجدان، والفكرة السامية العالية، التي تنفذ إلى مكان بعيد، وتبقى زمناً طويلاً، وتمشي في الحياة أبداً رخية، وهي لا ريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوي، ولكي تكون تلك الفكرة قوية ينبغي أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص، وعملها الأكبر الحق والصدق، وتروج معقولة يقبلها اللب، ويعتمدها الذهن، ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد (ﷺ) ورسالته والوحي الذي نزل عليه، فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده، ووثبته على خرافات أمته، وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته، وأن شهامته وجرأته وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وإن ثباته وبقاءه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته في وسط أعدائه وبهرة خصومه في قلب مكة ونواديها ومجامع أهلها، وإن تقبله سخرية الساخرين، وهزوء الهازئين، وإن حميته في نشر رسالته وتوافره عليها، وأن حروبه التي كان جيشه فيها أقل من جيش عدوه، وإن وثوقه بالنجاح وأيمانه بالظفر وإعلاء كلمة الله، وإن اطمئنانه ورباط جأشه في الهزائم وأناته وصبره حتى يحرز النصر، وإن تطلعه إلى إعلاء الكلمة وتأسيس العقيدة لا إلى فتح الدول وإنشاء الإمبراطورية وإقامة القيصرية، ولا سيما فإن نجواه التي لا تنقطع مع الله، وإن قبض الله إياه إلى جواره مع نجاح دينه بعد موته، كل ذلك أدلة على أن محمداً (ﷺ) لم يكن يضمر خداعاً، أو يعيش على باطل ومين، بل كان وراء عقيدة صادقة، ويقين مضيء في قلبه، وإن هذا اليقين الذي ملأ روحه هو الذي وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأً مزدوجاً وهو وحدانية الله، وتجرد ذات الله عن المادة.

الأول يدل على من هـو الله ؟ والثاني ينفي ما ألصق الوثنيون به! الأول حطم آلهة كاذبة ونكس معبودات باطلة، والثاني فتح طريقاً جديداً إلى الفكر ومهد سبيلاً للنظر». ثم قال الفيلسوف لامارتين: فالفيلسوف، والخطيب، والرسول، والمشرع، والقائد وفاتح أقطار الفكر، وراد الإنسان ألى العقل،

وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور، ولا رقيات، ومنشىء عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة واحدة في السماء من ناحية الروح والفؤاد، فذلكم هو محمد (ﷺ) فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم من محمد؟ (ﷺ) وأى إنسان صعد هذه المراقي كلها فكان عظيماً في جميعها غير هذا الرجل؟»

أقول: انتهى هنا ما نقلناه من اعتراف الفيلسوف الكبير لامارتين المعروف، بشأن محمد ﷺ ورسالته الحقة، نقلناه عن مقال للمغفور له صاحب الفضيلة يوسف الدجوى المصري، وقد نشر في ذكرى ربيع الأول سنة ١٣٥٢ هـ لصحيفة «الهداية» في بغداد. وأنه كما يرى القارىء اعتراف منبعث عن دراسة عميقة ووعي عميق، كما أفاد بقوله «بعد ما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته». وإني كعالم من علماء الإسلام أقدر إنصاف الفيلسوف الكبير وهو في مجتمع نصراني، يحيط به رجال أقوياء غيورون على المسيحية.

قلت: أقدر إنصافه، لأن الدراسة وحتى القناعة والوعي الصحيح شيء، والإنصاف شيء آخر، فليس كل دارس بمنصف يجرأ على الإنصاف. ولا سيما ضد عقيدة الآباء، وضد عقيدة المجتمع الذي يعيش فيه.

٤٢ ـ وقال هـ، ج، ويلز:

«إن من أدمغ الأدلة إلى صدق محمد، كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به، فقد كانوا مطلعين على أسراره، ولو شكوا في صدقه لما آمنوا له».

٤٣ ـ وقال الفيلسوف كارليل في كتاب «الرسالة المحمدية»:

«لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يدعيه المدعون من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة إثنا عشر قرناً لنحو

مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصاء، أكذوبة وخدعة؟.

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم (أى الملايين) هذا التصديق، والقبول، فما الناس إلا حمقى مجانين، وما الحياة إلا سخف، وعبث وضلال، كان الأولى بها ألا تخلق!

هل رأيتم معشر الناس، أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟ عجب والله. إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب.. وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته أو يطمح إلى درجة ملك أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أداها إلا كانت حقاً صريحاً، وما كانت كلمته إلا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول (يعني الغيب) كلا! ما محمد بالكاذب ولا بالملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة، فإذا هو شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله».

ومضى كارليل يقول: ثم علينا أن لا ننسى شيئاً آخر، وهو أن محمداً (ﷺ) لم يتلق دروساً عن أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخط حديثة العهد، إذ ذاك، في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلمه هو عيشة الصحراء وأحوالها، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه، ويتلقى بفؤاده من هذا الكون عديم النهاية، وعجيب والله أمية محمد! نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة. لا يتناول عرضاً فيتركه إلا وقد أنار شهيته وكشف ظلمته، وأبان حجته واستنار دفينته، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا!

وقد رأينا محمداً (ﷺ) قد طوى حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهمة كريماً براً رؤوفاً تقياً فاضلاً حراً أبياً».

ثم قال كارليل:

«أيزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره؟ وهذا الزعم حماقة، وأيم الله وسخافة وهوس! أى فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى، وجميع ما في الأرض من تيجان وصوالج؟

وأين تعبير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ أفي مشيخة مكة وقضيب مفضفض الطرف أو في ملك كسرى؟

كلا! إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل:

«إن محمداً كاذب» ونعد مواقفهم عاراً وسبة وسخافة وحمقاً، فلنربأ نفوسنا عنه ولنترفع.

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه، فشد ما أخطأوا وجاروا!

إنهم يقولون ما كان الدين ينتشر لولا السيف، ولكن ما هو حد السيف؟ هو قوة هذا الدين وأنه حق».

ثم قال: «أو لم يروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً؟ وحسبكم ما فعل شرلمان «بقبائل السكسون».

وفي الختام قال كارليل:

«لقد كان محمد (ﷺ) زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أمور حياته وأحواله، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما كان يصلح ويرتو ثوبه بيده، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟

فحبذا محمد من نبي خشن اللباس، خشن الطعام، مجتهد في الليل، قائم النهار، ساهر الليل، دائب في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان، وهو بحق النبي ذو الخلق العظيم».

أقول: انتهى هنا ما رويناه من اعتراف الفيلسوف الإنجليزي الكبير «كارليل». ولا شك في أنه اعتراف عن دراسة وإنصاف لخدمة الحقيقة والتاريخ، كما أنه جرأة ملموسة على وجه الناس من أبناء بلاده ورجال دينه المسيحي، الذين حادوا عن طريق الإنصاف، واجترأوا على نبي الإسلام، محمد عليه الصلاة والسلام، واتهموا بالكذب، وهم كاذبون «كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً» كما كذبهم كارليل بقوله: «أيزعم الكاذبون.. إلخ. وقد حكم عليهم بأنهم أخطأوا وجاروا من قبيل «وشهد شاهد من أهلها».

إن اتهام نبي الإسلام، محمد عليه الصلاة والسلام، بالكذب، ليس بأمر جديد، فقد إتهمه بهذا وأمثاله (كالسحر والجنون) خصومه من بني قومه، وذلك عندما أعلن عليهم أنه رسول الله ونبيه بعث إلى الناس كافة، ولكن هناك فرقاً عظيماً بين التكذيب بالمواجهة، والتكذيب عن ظهر الغيب، فإن الأول أقوى، والثاني أضعف بكل ضعف، وما أجرأ الناس بالتقول وراء الناس، وقد فشل الأقوى، فما بالك بالأضعف؟.

نعم: إن خصومه من بني قومه واجهوه بالتكذيب في بادىء الرأي، ولكنهم آمنوا به وصدقوه بعد ما تبين لهم أنه الحق، ولم يبق منهم على تكذيبه وكفره إلا من سبق عليه القول من الأشقياء، وكان لهم أن يكذبوه في باديء الأمر والرأي، لأن رسالة محمد يتيم عبد المطلب، وهو أمي عاش بينهم منذ طفولته عيشة الرعاة، قد فاجأتهم وأدهشتهم في باديء نظرهم، كان لهم ذلك. ولا سيما بعد تسفيه عقولهم وعقول آبائهم، وقال عندما قالوا[1]:

---

(١) إننا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

«أولو كان آباءوهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»؟

وقد سب أصنامهم بما سب به، ومن جهة أخرى كان محمد ﷺ أتى إليهم بدين جديد، ومن طباع الناس الوقوف أمام كل أمر جديد إما بالإنكار أو الشك، أو التأمل على الأقل، فكان لهم حق التفكر والتريث على الأقل، إلى أن يزول استغرابهم للدين الجديد، ويظهر لهم أنه الحق الذي لا بد من قبوله، ولكن موقف رجال من أوروبا المسيحية بتكذيب نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، بعد انتشار دينه في ربوع العالم، وبين الشعوب المختلفة في مشارق الأرض ومغربها، وبعد دوام دينه مدة اثني عشر قرناً ديناً متبعاً لنحو مائتي مليون من الناس (على حد تعبير كارليل في حين تاريخه) وبعد قيام المحققين (من أصدقاء أو خصوم أو محايدين) بالتحقيق عن حقيقة هذا الدين طوال هذه المدة المديدة، مع التأليفات والرسائل والمحاضرات، وبعد ما دب دبيب النهضة في عروق الغرب والشرق، وانتشر العلم في أنحائه بفضل العرب المسلمين، أريد أن أقول: ولكن موقف رجال من أوروبا المسيحية بالتكذيب بعد هذا كله، شيء غريب جداً، إن لم أحكم عليه بما حكم به كارليل من أحكام مضت نصوصها، والتي أعتقد أنه حكم عادل يقوم على الإنصاف وكشف الحقيقة أمام العالم كله.

وفي الختام أقول:

هذا ما كان من مواقف أولئك الرجال من أبناء الغرب المسيحي، في ذلك التاريخ، أي قبل قرنين.

أما في قرننا هذا (العصر العشرين) فقد ازدادت الحقيقة وضوحاً، وزادالحق ظهوراً، وذلك بفضل تقدم العلم والنهضة الثقافية ومزيد الحرية في الأفكار ولا سيما في العقيدة بشأن دين من الأديان، أو مبدأ من المباديء، ذلك لأن محمداً ﷺ صادق في دعوته، أمين في تبليغ رسالته، وأن دينه دين حق، كلما بحث الباحثون، وناقشوا حوله، وحققوا في تعاليمه يزداد ظهوراً، فيزيد أتباعه أو المؤيدون له، المنصفون بحقه.

فمنهم الكاتب الإنجليزي المعروف برنارد شو الذي قد حقق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وحقق دينه الإسلام ودرس مبادئه دراسة محايدة حرة، لا ينزع إلا نحو الحق، وعاش في هذا القرن، وتوفي سنة ١٩٥٠، إنه يقول:

«إن أروربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد (ﷺ) وبدأت تعشق دينه، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية مما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى، وسيكون دين محمد هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة، ويستند على فلسفته في حل المعضلات وفك المشكلات والعقد».

ثم قال: «وإن كثيرين من مواطني ومن الأوروبيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، وكذلك يمكنني أن أؤكد نبؤتي فأقول إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة!».

ويقول برنارد شو أيضاً:

«واعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه اليوم، لتم النجاح في حكمه، ولقاد العالم إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة.

كما قال برناردشو في أواخر حياته:

«لا يمضي مائة عام حتى تكون أوروبا ولاسيما إنجلترا، قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة!».

هذا. وقد اكتفيت هنا بنقل تصريحاته عن غيرها من تصريحات المنصفين أمثاله في هذا العصر، ذلك لأنني رويتها في مواقع متناسبة من فصول هذا الكتاب، وفي كل منها ذكرى للذاكرين، وعبرة للمعتبرين، وما يذكر إلا أولو الألباب.

٤٤ ـ لقد وصف «السير وليم موير» في كتابه «حياة محمد» فشل الحركات الثلاث التي قام بها أصحابها لإصلاح جزيرة العرب وما حولها

وهي الحركة اليهودية، والحركة المسيحية، والحركة الحنفية (وكانت هذه من طرف طائفة بقوا على عقيدة إبراهيم الخليل عليه السلام على عقيدة التوحيد، أرادوا تعيمم هذه العقيدة).

ثم قال:

«إن الجزيرة العربية كانت قبل ظهور محمد (ﷺ) في أية مدة مضت كما كان في ذلك الحين، ولكن ما ظهر محمد نبي الإسلام (عليه الصلاة والسلام) حتى هبت العرب في الحال تلبية للدعوة الروحية الجديدة، ومن هنا جاء الاعتقاد بأن العرب كانوا مهيئين للإسلام، مستعدين لقبوله».

٤٥ ـ وقال «توماس أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»:

«تمكن محمد أن يجعل نفسه (بعد أن هاجر إلى المدينة) على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً، وهكذا باشر محمد (ﷺ) سلطة زمنية كالتي يمكن أن يباشرها أى زعيم آخر مستقل مع فارق واحد، وهو أن الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الدم والأسرة، فأصبح الإسلام نظاماً سياساً بقدر ما هو نظام ديني، وكما نشر محمد (ﷺ) ديناً جديداً أقام نظاماً سياساً له صبغة متميزة تماماً.

وكانت جهوده موفقة الى اعتقاد بني وطنه بوحدانية الله، وإلى هدم نظام الحكومة القديم في مكة مسقط رأسه، فقضى على الحكومة الأرستقراطية القبلية، التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها».

٤٦ ـ وقال «جولد تسيهر» في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام»:

«كانت الهجرة إلى المدينة تحولاً كبيراً في سياسة الرسول (ﷺ) فقد أصبح محمد (بعد الهجرة) مجاهداً وغازياً، ورجل دولة، ومنظم جماعة جديدة أصبحت تتسع وتنمو شيئاً فشيئاً، وعندئذ اتخذ الإسلام شكله النهائي، وعندئذ ظهرت البذور الأولى لنظامه الأجتماعي والفقهي والسياسي».

ثم قال جولد تسيهر: «في مكة كان الرسول (ﷺ) يدعو إلى تعاليم دينية في

جماعة صغيرة، أما في المدينة فقد ظهر الإسلام نظاماً له طابع خاص، وله في الوقت نفسه صورة الهيئة المكافحة. وفي المدينة قامت طبول الحرب التي تردد صداها في جميع أزمنة التاريخ، وصار محمد (ﷺ) ينظم أعمالاً حديثة، فأصبح ينظم طرق توزيع الغنائم، وينظم المواريث، ويشرع القوانين، ويضع أسس أمور الدين العلمية وأهم احتياجات الحياة الأجتماعية. وفي المدينة رسمت الخطوط الرئيسية لحياة الإسلام التاريخية، وبدأ محمد (ﷺ) مع الصحابة (رضي الله عنهم) تحقيق حياة مطابقة لما جاء به من دين ومذهب».

٤٧ ـ وقال البرفيسور عبد المسيح الأنطاكي المسيحي ما نصه:

«إن المصطفى محمداً (ﷺ) تدرج في دعوته تدريجاً، حيث ابتدأ بإعلان دعوته مسالماً، ثم أوجد الله له في الأوس والخزرج أنصاراً بالمدينة، هاجر من مكة إليهم بأصحابه تخلصاً من أذى قريش، فأبى القريشيون إلا أن يعملوا على النكاية بهم، فأرسلوا أولاً من يتبع خطواته وهو فار إلى المدينة من ظلمهم، ليعيدوه إلى مكة فيسجنوه أو يقتلوه، ولما فشلوا في هذه الرغبة أخذوا يجمعون كلمة العرب على قتاله. حينئذ أذن الله له ولأصحابه وأنصاره بمقاتلة المشركين، لسببين:

أولهما: الدفاع عن النفس بازاء المعتدين.

وثانيهما: الدفاع عن الدعوة بازاء الذين تعرضوا لها، فقد كانوا يفتنون المهتدين (يعني الذين آمنوا بمحمد ﷺ) بالأضطهاد والتعذيب، ويصدون الآخرين عن الهدى عنوة، ويقومون بمحاولة منع الداعي عن تبليغ دعوته بالسخرية به وغيرها، ثم بمحاولة قتله.

أما أمر الله بالقتال فقد جاء في مواضع شتى من القرآن منها: إذ قال الله تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ،ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً،

ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور».

وأنت ترى في هذه الآية الكريمة أن سبب إذن الله للمسلمين بالقتال، هو ظلم المشركين لهم، وما ذنبهم إلا قولهم «ربنا الله» فأخرجوا من ديارهم لهذا الأعتقاد (اعتقاد التوحيد).

ومضى البروفيسور يقول:

وجاء في القرآن أيضاً في سبيل القتال قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين، فاقتلوهم حيث ثقفتموهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقلوهم، كذلك جزاء الكافرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين، الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص، فمن إعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾. وأنت ترى في هذه الآيات الكريمة ما يخلق ويجدر أن يصدر عن الأله الواحد العادل المؤدب القهار الرحيم، وذلك لجمعها بين الدفاع عن النفس وتأديب المعتدين وإبطال الفتنة، والأنتصار لدين الله، وفي القرآن أشباه لهذه الآيات الكريمة العادلة التي أنزلت على محمد بن عبد الله لعزة الدين وردع الظالمين المعتدين.

وفي الختام قال البروفيسور:

«لا جرم أن الإسلام كان ولا يزال مسالماً من سالم أهله، إذ قال الله سبحانه: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾.

وفي هذه الآيات الكريمة تتجلى روح الإسلام العادلة بأجل تجليها لدى المنصفين».

٤٨ ـ وقال «أميل دير مانجم» في كتابه «حياة محمد»:

«إن حياة محمد رسول الإسلام (عليه الصلاة والسلام) قد أبدى في أغلب حياته (بل في طول حياته اعتدالاً لافتاً للنظر، فقد برهن في إنتصاره النهائي على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثيل في التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم أن يهدموا البيوت أو أن يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم أن لا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة، بل قد سمعناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً».

ثم قال دير ما نجم: «إن الغنائم الحربية كانت في ذلك العهد، النتيجة العادية لكل جهاد، بل يمكن أن يقال: إنها كانت مع التجارة وتربية الحيوان هي الصناعة الوطنية العربية، فأعلن محمد رسول الإسلام إباحتها لأتباعه استجابة لضعفهم، ولكنه حددها بقواعد دقيقة، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقا ت ولحاجات الجيش، كما أنه حظر في قسم الأسرى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم». وفي الختام قال:

«إنه لم يكن ليستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغيراً تاماً، ولكنه نجح في أن يقومها في نقط كثيرة».

٤٩ ـ ونقل صاحب كتاب «المستشرقون والإسلام»[1] عن أحد المستشرقين يقول:

«لو لم يكن لمحمد معجزة إلا أنه صنع أمة من البدو، فجعلها أمة كبرى في التاريخ، لكفته معجزة في العالمين».

ونقول عن آخر أيضاً يقول:

---

(١) وهو المهندس زكريا هاشم زكريا.

«لو أن كتاب محمد وجد في صحراء لكان الذي يعثر عليه جديراً بالخلود، ولو جاء محمد بالقرآن من عنده لكان جديراً أن تدين له الإنسانية بالولاء، فرسالة محمد في قرآن كريم أو حديث شريف حكمة بالغة في الحياة، وقد أحاطت بالمادة والروح، وأعطت صورة سكون في أرضه وسمائه، وصورة للوجود في بدئه ومختتمه، وأملاً عالياً في الخلود في طاقات عليا بعد جمود المادة واضطرابها. ثم تحدثت عن الخالق الأعظم في أروع صورة للواحد الأحد الفرد الصمد، لم يسبق إليها في فلسفة أو كتاب بهذه الصورة الجامعة الكاملة».

٥٠ ـ وقال الفيلسوف والأديب الفرنسي الثائر وولتر[1]:

«والذي يظهر لي أن محمداً (ﷺ) لم يكوِّن هذا الشعب الإسلامي، إلا للتناسل والعبادة والجهاد.

فالسنن (التعليمات) التي أتى بها كانت كلها ـ ما عدا إباحة تعدد الزوجات ـ قاهرة للنفس، ومهذبة لها، فجمال تلك الشريعة وبساطة القواعد الأصلية جذباً للدين المحمدي غاية الإعجاب ومنتهى الإجلال.

أتى هذا الدين بعقيدة وحدانية الخالق في صورة مقبولة للعقل البشري أى خالية عن كل غامضة، ولهذا أسلمت عدة عديدة من أمم الأرض حتى زنوج أواسط أفريقيا وسكان جزر البحر الهندي.

فهذه الديانة تدعي الإسلام، أى الإستسلام لإرادة الخالق (سبحانه)، وهذا الأسم كفى لهداية العدد الوافر من البشر، وليس بصحيح ما يدعى من أن الإسلام استولى قهراً بالسيف على أكثر من نصف الكرة الأرضية، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس إليه بعد أن أقنع عقولهم، ولا يخفي ولوع المغلوب بتقليد الغالب.

---

(١) ولد في سنة ١٦٩٤، وتوفي ١٧٧٨م.

وقد انخرط في الإسلام أقوام لم تبلغهم سلطة المسلمين ولم تصلهم».

ومضى وولتر يقول:

«وهذا القول النزر ـ القليل ـ مني يكفي لتفنيد كل ما ذكره لنا مؤرخونا وخطباؤنا، فارتكزت في ضمائرنا الأوهام الباطلة والأراجيف المتوارثة بشأن الإسلام والمسلمين، ومن الواجب أن يدحض الباطل بالحق».

ولنذكر دائماً هذه الحقيقة التاريخية، وهي:

إن الشارع الإسلامي محمداً (ﷺ) كان ذا يقين راسخ وقوة عزم هائلة، فأقام دينه ببسالة وثبات جنان، ثم فيما بعد ظهر الدين الإسلامي بشفقة وسماحة لم تعهد من غيره». وفي الختام قال وولتر:

«ومن الغريب المشاهد أن مؤسس الدين النصراني ـ عيسى عليه السلام ـ كانت حياته كلها خضوعاً واستكانة ومسالمة، وكان يأمر بالتجاوز عن الزلات، والحال أن ديانته اللينة صارت بحماقتنا وبغينا (يريد النصرانيين) أبعد الأديان عن السماحة، وأقربها للقساوة والطغيان».

أقول: وهنا انتهى ما قاله الفيلسوف الأديب وولتر حول محمد ﷺ وحول دينه الإسلام من تصريحات، وكلها كما ترى ناشئة عن التحقيق والفهم العميق، ولا سيما قوله: «وليس بصحيح ما يدعى من أن الإسلام استولى قهراً بالسيف الخ...»

إلا أن قوله: «...لم يكوِّن هذا الشعب الإسلامي إلا للتناسل والعبادة والجهاد» تعبير ناقص، فإن هناك أغراضاً سامية من تكوين الشعب الإسلامي، ألا وهي: ليكون أمة تنظر إلى سائر الأمم نظرة الأخوة بين آدم وحواء، وتريد لها الخير وترشدها نحو طريق الخير، أمة تقوم باصلاح المجتمع الإنساني في كل شئونه الحيوية، أمة تقوم بتطوير الحياة البشرية إلى حياة أفضل، أمة تقوم بنشر العلوم والمعارف في ربوع هذا العالم، أمة تقدم رجالاً لخدمة البشرية العامة ولصالح الإنسانية العام وذلك في جميع شئونها العلمية والأخلاقية والأجتماعية

والأقتصادية والسياسية، ولا سيما في توجيه الإنسان نحو الإيمان بالله وحده ونحو المثل العليا التي ترفع مقامه من حضيض المادية إلى ذروة الروحانية التي تمتعه بسعادة الدارين، أمة تساهم في عمران الدنيا في شتى نواحيها وتسوقها إلى حضارة جديدة غير مسبوقة ومدنية لم ير مثلها في الحياة، أمة تمثل الأخلاق العالية والخصال الكريمة في جميع أدوارها، لتكون فيها أسوة حسنة لسائر الأمم في هذا الكون، أمة تصنع للحياة الإنسانية قوانين تستمد أصولها من الوحي السماوي وتتكفل السعادة الأبدية.

هذه هي جملة من الأغراض السامية لتكوين الشعب الإسلامي العظيم الذي كونه محمد رسول الإسلام ونبيه ﷺ، وقد قام بتنفيذها عبر القرون ويقوم ما دام في ساحة الحياة إلى انقراض الدنيا، وبهذا أصبحت أمة رافعة الرأس، مرهوبة الجانب لدى الأمم وقد سجلها التاريخ بأحرف ذهبية في صفحاته الخالدة، واعترف بأنها حقاً أمة كما وصفها ربها سبحانه في كتابه المجيد حيث خاطبها وقال: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

ثانياً: أرى من واجبي كعالم من علماء الإسلام وبصفتي المبلغ الإسلامي أن أقدر كل تصريحات الفيلسوف في هذا الباب، وأن أبين الحقيقة حيال قوله:

«فالسنن التي أتى بها كلها ـ ما عدا إباحة تعدد الزوجات ـ قاهرة للنفس مهذبة لها».

فأقول: يظهر أن الفليسوف وولتر، لم يحقق موضوع تعدد الزوجات فيما أتى به محمد ﷺ من السنن، وإنما نظر إليه سطحياً فأخطأ في أثر النظر، والحقيقة هي: أن تعدد الزوجات لم يكن تشريعاً جديداً من الدين الإسلامي، لأن التعدد كان أمراً شائعاً في الجاهلية، فكان من حق الرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء بدون تحديد عدد حسب اقتداره المالي، ويطلق منهن من يشاء، بدون مبرر للطلاق ليبدلهن بزوجات أخريات، بحيث كان الزواج تابعاً لهوى الرجل، لا يوجد له قانون مانع أو أمر سماوي رادع، فجاء محمد بن عبد الله بالدين

الإسلامي وقام عن طريق الوحي بإصلاح المجتمع في ناحية تعدد الزوجات، كما قام بإصلاح في سائر النواحي لحياة المجتمع الإنساني.

فقد قضى على تعدد الزوجات الغير محدود عدده، قضاء بحكم قطعي، حيث حدد تعدد الزوجات، مثنى وثلاث إلى رباع، مع أنه اشترط للزواج فوق الواحدة، العدل بين الزوجتين أو الزوجات في المبيت والمسكن والمأكل والملبس وغيرها من شئون بيت الزوجية، أما إذا خاف الرجل عدم اقتداره العدل، فلا يجوز له أن يزيد على الواحدة.

وحرم الإسلام على الرجل أن يتزوج فوق أربع زوجات مهما كان له اقتدار من ناحية المال، حتى إن رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ أمر ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي بعدما أسلم وله عشر نسوة تزوجهن في الجاهلية، وقد أسلمن معه، أمره أن يختار منهن أربعاً ويخلي سبيل الباقيات يتزوجن بمن يردن زواجهم، كما أمر قيساً بن الحارث بعدما أسلم وله ثمان نسوة، أن يختار منهن أربعاً كذلك، ومن هنا يعلم أن الإسلام لم يكن بادئاً في تشريع تعدد الزوجات، بل قام بالإصلاح الأجتماعي في هذه المسألة الحيوية مما يستحق كل إجلال.

أما تقرير الإسلام لبقاء التعدد إلى أربع زوجات فله أسبابه التي تبرر الإبقاء، وربما تقتضي ظروف الحالات الأجتماعية تعدد الزوجات:

أولاً: إن الرجال في أغلب الأحوال، لا يردعهم عن المضي في حب النساء رادع، ولا ينفعهم من الناصحين ناصح، وحتى أن العقوبات أيضاً لا تفيد في كبح شهواتهم النفسية، ولهذا يقعون في كثير من الحرج وفساد الأخلاق مع ضياع العمر والمال في سبيل الحرام، ففي إبقاء التعدد المحدد المشروط، حكمة بالنسبة لأولئك الرجال، حيث يكون من حقهم أن يتزوجوا فوق الواحدة، حتى لا يقعوا في الحرج والفساد وضياع العمر والمال في سبيل الحرام.

مع أن أولئك الرجال لا يضرون أنفسهم فحسب بالأندفاع نحو الشهوات وتمتيع النفس بالحرام (بالسفاح) بل يفسدون من يقع في شبكتهم من الفتيات

والنساء، يستمتعون منهن استمتاعاً غير شرعي، إلى وقت، ثم يتركونهن، وقد تعودن على عرض جمالهن على الرجال وبيع أعراضهن، مما يؤدي إلى الفساد، و (حتى) إختلال أمن وفتنة وجرائم في المجتمع. وفي إبقاء تعدد الزوجات سد (ولو إلى حد) أمام هذه الموبقات. ثم إن النساء اللاتي أصبحن وسيلة لتسلية أولئك الرجال، يصبحن محرومات من كل ضروب الحماية والحقوق الشرعية، ولا يستطعن من مطالبتها أمام القضاء، فيعشن في المجتمع الحياة، وقد سقطت كرامتهن الجنسية إلى حضيض النسوة العاهرات والمجردات من الحقوق الإجتماعية.

وفي إبقاء تعدد الزوجات، حماية للنساء ورعاية لعدد كثير منهن.

هذا ـ ثم إنه بمقتضى الطبيعة، ورغم الحذر والألتجاء إلى موانع التناسل يولد أولاد (بناتاً وأبناء) غير شرعيين، يلقون هنا وهناك، وليس لهم من يعولهم، لأنه لا آباء لهم، وإنما يقعون علة على الحكومة ويكلفونها مبالغ لو صرفت في سبيل الخير لعاد بالخير.

وفوق ذلك يبقى في جباههم عار لا يقدرون إزالته، وتستمر طول الحياة في ضمائرهم وخزته المؤلمة، ولا سبيل للمعالجة والتخلص، وفي إبقاء تعدد الزوجات تخفيف لهذه المصيبة وحماية للنسل الإنساني الشريف.

نعم: إن غلبة حب النساء متأصلة في طبائع كثير من الرجال تدفع نحو الأستمتاع بالحرام، وإيقاع النساء في الحرام، والإنجاب عن طريق الحرام، مع مالها من نتائج سيئة أشرنا إليها، وليس هذا قولا عن إدعاء، وإنما هو بيان عن واقع، فإن في أمريكا وأوربا عشرات الملايين من الرجال يتخذون متريسات (خليلات) ويعيشون على أعراضهن، يجعلون منهن نسوة عاهرات محرومات من الحقوق، ساقطات في مجتمعهن، ينجبون منهن أولاداً غير شرعيين، منبوذين هنا وهناك محرومين من حقوق الميراث، وقد تسببت هذه الحالة الواقعة لمشاكل في المجتمع الغربي، حتى حاولت الجمعيات النسوية هناك إلحاق أولئك الأولاد لآبائهم غير الشرعيين، ولكن لم تصل إلى شيء مريح.

ثانياً: إن الإنسان عرضة في خلقته للأمراض، وعلى هذا الأساس الطبيعي فإن المرأة (زوجة الرجل) قد تصاب بمرض مزمن أو معد، وفي النتيجة ربما يقع الرجل (زوج المرأة) في التمتع بالحرام، وذلك حينما لا يجد أمامه سماحاً قانونياً للزواج على زوجته.

ثالثاً: أن بعض الزوجات يصبن بالعقم (أو تخلقن عقيمات) والأزواج يريدون الأولاد، وبهذا يقع خلاف أو نزاع بين الرجل وزوجته وربما يؤدي إلى الطلاق وحرمان المرأة العائل الذي يعولها ويقوم بتوفير طلبات حياتها. نعم: يؤدي إلى الطلاق وما يتعقبه، وإنما ذلك بسبب عدم سماح قانوني لزواج الرجل على زوجته العقيمة، أما السماح بالتعدد فإنه يحفظ كيان هذه المرأة في حياتها، وربما ترضى أن تعيش مع الضرة حذراً من سؤ الحياة لها.

رابعاً: مما ثبت في الإحصاءات العالمية، أن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أغلب البلدان. ذلك لأن الرجال يمارسون الأعمال المرهقة، ويشتغلون بأشغال شاقة، مما يؤدي إلى إنهاكم القوى، بل إلى زوال الأرواح، فمن الحكمة أن يبقى باب تعدد الزوجات مفتوحاً أمام الناس، وإلا فإن عدداً غير قليل من النساء لا يجدن أزواجاً يحصنونهن، ويقومون بإصلاح شئونهن، ومن المعلوم أنه لا غنى لهن عن الأزواج لضرورة الإحصان، حتى لا يكثر الفساد، ولا يلحق العار الأسر، ولا تتسرب الفتنة بين الناس فيختل الأمن في المجتمع.

خامساً: إن العالم لا يخلو في أى وقت من نشوب الحرب في أنحائه، والرجال هم الذين يدخلون ميادين النضال، ويبارزون في معارك القتال، مما يؤدي إلى نقص كبير في عددهم حيال عدد النساء فإبقاء تعدد الزوجات في المجتمع البشري مما تمس إليه الحاجة، ومما يذكر هنا: أن دول أوربا ولا سيما الألمان، قد أصيبوا بالنقص الواضح نتيجة للحرب العالمية الثانية، وتكدست الأرامل إلى جنب البنات لا يجدن الأزواج، لتسلية أنفسهن كبشر ولحفاظة أعراضهن

كإنسان شريف، فلو أبيح تعدد الزوجات للرجال، لأدى ذلك إلى تخفيف هذه الأزمة في المجتمع.

وقد اقترح بعض علماء الإجتماع في إلمانيا بسن قانون تقسيم الأرامل إلى أسر لم تفقد رجالها، ولكنهم فشلوا، ثم إن معالجة أزمة المادة التي تعيش بها الأرامل أمكن بتعيينهن كعاملات في المصانع أو المعامل، أو كموظفات على حسب مؤهلاتهن في مصالح الحكومة، لتعشن على مهنهن، وكد يمينهن، ولكن أزمة تسلية شهوة النفس كبشر، وحفاظة أعراضهن كإنسان (يريد أن يحيا حياة شريفة) لم يمكن معالجتها، وذلك لقلة عدد الرجال نتيجة الحرب وقحط الشباب، مع أن ما هنالك من أزمة زواج البنات بعد الأرامل الشابات كانت مصيبة أخرى.

هذا ـ وقد سمعت ممن أثق بقوله كل الوثوق وهو يقول:

«لقد طلبت فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، عمالاً كثيرين من مصر تسمح لهم الحكومة بهجرتهم إلى فرنسا، ليعملوا ويتزوجوا هناك بالأرامل الشابات البنات الفرنسيات، وكان ذلك لمعالجة أزمة قحط الرجال»، وأنا أقول تعليقاً على هذا الخبر: ففي بقاء تعدد الزوجات حكمة، وله أثر لمصلحة المجتمع في مثل هذه الحالات.

ومن الحقائق الواقعة بعد الحرب العالمية الثانية، أن أزمة تسلية شهوة النفس البشرية (بسبب قلة الرجال وكثرة البنات مع النساء الأرامل اللائي يبقين بلا أزواج) أصبحت أشد من الأزمة المادية، فقد إنتشرت الدعارة والفسوق والتهتك، حيث كثرت العلاقات الغير الشرعية بين النساء والرجال، والفتيات والفتيان، وذلك في بلاد أوربا وأمريكا، وكان الأنتشار هائلاً يهدد المجتمع، مما أوجب على المفكرين وعلماء الإجتماع أن يفكروا في حل هذه الأزمة الخطيرة، التي لطخت سمعة الأسر والعائلات، حتى أدت إلى كثرة الأولاد الغير شرعيين الذين لا عائل لهم يعولهم ويقوم بتربيتهم. كما أن هذه الأزمة أثقلت أعباء الحكومات وزادت في مسئولياتها الرسمية، ولكن المفكرين الرسميين وغير

الرسميين قد فشلوا في معالجة الأزمة، وعجزوا عن رد جماعها، حيث لم يجدوا لها علاجاً ناجحاً.

وهنا، وفي اليأس، قام الكاتب الثائر والمفكر الأوربي الكبير برنارد شو سنة ١٩١٨، وأبلغ إلى المجتمع الأوربي إباحة تعدد الزوجات في الدين الإسلامي، وأثنى على هذا النظام السماوي، فقال فيما قال: «إن أوروبا لو أخذت بهذا النظام، لوفرت على شعوبها كثيراً من أسباب هذا الإنحلال والسقوط الخلقي والتفكك العائلي».

سادساً: إن الغرض الأول من الزواج هو المحافظة على النسل الإنساني عن الفناء، والقلة، وفي تعدد الزوجات (بحده وشرطه) كثرة النسل ونمو العدد. ولا شك في أن شوكة الأمة وقوتها، بكثرة عددها، فإن كثرة العدد يحمي الأمة بالجنود، ويساعدها في ميادين خدمات الدولة، وفي المصانع والمعامل والشركات، ومعاهد العلوم، وذلك في سبيل تقدم الأمة نحو النهضة والأزدياد في الإنتاج والرقي في شتى شئونها وبهذا تستطيع أن تعيش كأمة ذات كيان وسيادة وحرية واستقلال سياسي واقتصادي بين أمم الأرض.

ولا يخفى أن كل شيء في هذه الحياة أنما يستند على القوة بأى مفهوم كانت، وأن المعتدي لا يعرف في قاموسه إلا القوة، ولا يخضع إلا للقوة، وفي منع تعدد الزوجات (المعقول) وسد بابه بالكلية، ما يؤدي إلى نقص عدد الأمة (إلى حد) ومن المعلوم أن الأمة متى تناقص عددها لانت قناتها، وطمع فيها أعداؤها، وامتدت إليها الأيدي بالأعتداء على شئونها وكيانها.

وقد وقعت طائفة من عقلاء الأمم الغربية في أسف شديد وقلق عظيم مما شاهدوه فيها من سؤ المنقلب، وذلك بسبب ما عراها من النقص في النسل لعدم مشروعية تعدد الزوجات في قوانينها الوضعية المتبعة، مع إعراض كثير من أبنائها عن أصل الزواج والأكتفاء الحرام بالسفاح، فراراً منهم عن حقوق الزوجات وأعباء الأولاد، وتبعات العائلة.

نعم: وقعوا في أسف شديد وقلق عظيم، ولكن دون جدوى، وإنما ذلك لانسداد طريق العلاج للأزمة الخطيرة والوصول إلى حل يريح القلوب، ويفرج عن المشاكل والكروب.

هذا ما وجب بيانه من الحقيقة والواقع في هذا الباب، بيان يكفي لإقناع أولى الألباب، من المفكرين والباحثين المنصفين، الذين ينظرون إلى شئون هذه الحياة نظرة المخلصين، وإن من كبارهم الفيلسوف وولتر الذي ثار في فرنسا ضد التقاليد المسيحية الفاسدة، ودافع عن الإسلام وكتابه ونبيه، بكل جرأة في القرن الثامن عشر ميلادي، أما في عصرنا القرن العشرين فقد انكشفت حقائق الإسلام بين الأنام، ولا تزال تنكشف كلما تمر الأيام، وذلك شأن الحق كلما بحثوا حوله يزيد ظهوراً لدى الباحثين، وكلما نضج العقل البشري يشتهر نفوذاً في قلوب العارفين، ولهذا فإني أقول في ختام التعليق:

فلو كان وولتر على قيد الحياة في هذا العصر لاعترف قائلاً:

فالسنن التي أتى بها محمد كانت كلها قاهرة للنفس مهذبة لها».

أعني: بدون استثناء تعدد الزوجات. وقد قال العالم المعاصر، ج، ولينز في محاضرة له عن الإسلام: «إن نظام تعدد الزوجات صان الممالك الإسلامية من نساء نبذهن المجتمع، فصرن يتجولن في شوارع لندن وباريس وفيينا وكلكتا، ولا ريب في أن نظام تعدد الزوجات المحكم خير ألف مرة من ارتباط المرأة برجال لا يحصيهم العد، وشتان بين زوج وخليل».

٥١ ـ نشرت مجلة «الصراط المستقيم» في بغداد (العدد ربيع الأول سنة ١٣٥١ ه) مقالاً بقلم عربي مسيحي بعنوان «رسول الوحدة» يقول فيه:

«في حياة محمد بن عبد الله (ﷺ) أسطع دليل يحمله تاريخ الحضارة إلينا، ويدل على ما للعقيدة الراسخة في قلب المؤمن من قوة تجمع شتات الناس، وتوحد كلمة أخلاطهم (قبائلهم المختلطة) وتخلق من بدو الصحاري ورجال

القفار أبطالاً أفذاذاً، لا يقوى على الوقوف في سبيل جهادهم من أجل المبدأ السامي واقف.

أطل محمد الأمين من منافذ الحياة فاقداً أمه وأباه، فشاهد أنقاض حمير وخراب سبأ، وقد شخص عليها اللات والعزي، ورأى قومه غارقين في سبات الجاهلية العميق متفرقين في طرائق، ولم يبق لهم من حضارتهم الدارسة وعزهم الغابر غير «كعبة» يحجون إليها، وشعر حماسي تافه جله ينشدونه في أسواق اختلط فيها حابل الحضر بنابل البدو.

وفي قلب بيئة أظلمت فيها عقول الخاصة، وانحطت فيها أخلاق العامة، رفع النبي العربي صوته العالي يدعو أمته إلى الوحدة بالتوحيد، وإلى المجد بالجهاد، مستمداً قوته من وحي وإلهام فياض في نفسه الكبيرة، فرفعه فوق الناس وجعله أعظم زعيم رآه البشر في تاريخ الإصلاح والحرب والسياسة، لا يذكر في جانبه نبي ولا زعيم ولا مصلح آخر.

قال محمد (ﷺ) كلمته، فسخر قومه من دعوته وسفهوا نبوته، وناصبوه العداء، حتى الجأوه إلى الهجرة من وطنه، فهرب من مكة[1] متوجهاً إلى المدينة مع صديقه أبي بكر الصديق، ولما تسرب اليأس إلى قلب رفيقه في السفر أوصاه أن لا يحزن لأن الله معهما، وحقاً إن الله كان معه.

كان في قلبه مبعث إيمانه الراسخ بمبدأه القويم، مبدأ توحيد أمته في اعتقادها وفي مسعاها.

لقد وقف فتى قريش يومئذ فريقاً وحده، لا نصير له غير الله الواحد، ولا عون له غير قوة إيمانه.

ووقف العالم برمته، بعربه وأعرابه وعجمه، فريقاً ثانياً عليه، إبن عبد الله

---

(١) كلمة هرب خطأ في التعبير عن الهجرة، لأنه لم تكن هروباً كما بيناه في فصل الهجرة إلى المدينة، (المؤلف).

صف واحد، والجزيرة العربية والأمبراطوريتان الرومانية والفارسية في صف آخر متألبة عليه.

ولكن خيبة الأمل لم تكن في معجم النبي العربي وقاموسه، ففي وقعة بدر ضرب أعداءه الضربة القاضية، فتم له ما أراد من توحيد كلمة الجزيرة العربية موطن أمته.

وفي وقعتي اليرموك والقادسية، انفتحت أبواب العالم على مصراعيها أمام العرب، غرباً إلى الأندلس وفرنسا، وشرقاً إلى الهند والصين، حتى دان العالم القديم كله لذلك الفتى العربي القوي بإيمانه وعزمه، ولا يزال حتى اليوم يوجه ملايين من البشر وجوههم شطر قبلته المسجد الحرام، وما انفك العالم المثقف بأسره يرى فيه أعظم بطل، عرفه التاريخ بلا جدل».

٥٢ ـ وقال بارتلمي سنت هيلر في حديثه عن الإسلام في الشعوب التي اعتنقته:

«كان محمد نبي الإسلام (عليه الصلاة والسلام) أكثر عرب زمانه ذكاء وأشدهم تديناً، وأعظمهم رأفة، وقد نال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم». ثم قال بارتلمي:

«ونعد دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده، جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته».

أقول: إن رسول الإسلام، محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام لم يبعث إلى قومه العرب فحسب، بل بعث إلى شعوب العالم عامة، والله سبحانه يقول ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ ولهذا فإن الله العليم الحكيم الذي أرسله قد أعده قبل أن يرسله لتحمل هذه الرسالة العالمية بالصفات العظيمة التي تتطلبها رسالته من كثرة الذكاء، وشدة التدين والتقوى، وعظمة الرأفة وغيرها، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا الإعداد، وإلى ما كان عليه من الأستعداد، حيث قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ثم وصفه الله ربه وقال:

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. وقد أنصف «بارتلمي» فاعترف بما هو الحق الذي لا يجوز إنكاره بقوله الأخير: «ونعد دينه الذي دعا الناس إلى إعتقاده، جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته» لأن بعثته بهذا الدين كانت (في الحقيقة) رحمة لجميع العالم، وقد قال الله عز وجل في وصف هذه البعثة: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ والحمد لله على ذلك أولاً وآخراً.

٥٣ ـ وقال «طور اندريه» و «جورج مارسيه» في كتابهما «العالم الشرقي»:

«كان محمد رسول الله (ﷺ) شجاعاً يخوض المعركة بنفسه ليرد الثبات إلى قلوب الذين يضعفون، وكان رحيماً بالضعفاء يؤوي في بيته عدداً كبيراً من المحتاجين (يشيران إلى أهل الصفة، كأبي هريرة وغيره) وكان مع احتفاظه بهيبة كاملة بسيط الحركات لا يتكلف شيئاً، وبشوشاً سهل المعاملة، رقيق الحاسة، لا يثير غضبة أهل الفضول، وكان محمد رجلاً (بشيراً) كان فيه لا شك كثير من الخصال التي اتسم بها رجال عصره، ولكنه حمل إلى هؤلاء الرجال مثلاً رفيعاً في الدين والأخلاق، وسما سمواً بالغاً عن الآراء القديمة التي كانوا يرزحون تحت ثقلها، (يشيران إلى التقاليد الجاهلية).

ثم قالا: «وهو إذ جمعهم عصبة واحدة تحت راية ذلك المثل الرفيع (الدين والأخلاق وسائر التعاليم السماوية) قد صنع منهم قوة قدر لها فيما بعد، أن تهز أركان العالم القديم».

٥٤ ـ وكتبت «دائرة المعارف البريطانية» الطبعة الحادية عشر:

«كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً، ظهر النبي محمد في وقت كان العرب فيه هووا إلى الحضيض، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة، ولا مبادىء مدنية أو سياسية أو أجتماعية، ولم يكن لهم ما يفاخرون به من الفن أو العلوم، وما كانوا على إتصال بالعالم الخارجي، وكانوا مفككين لا رابط بينهم، كل قبيلة وحدة مستقلة، وكل منها في قتال مع الأخرى.

وقد حاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة، كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح، ولكن ظهر النبي «محمد» الذي أرسل هدى للعالمين، فاستطاع في سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب، وأن يرفعها من الوثنية المنحطة إلى التوحيد.

وحول ابناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة، إلى طريق الهدى والفرقان، فأصبحوا دعاة هدى ورشاد، بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد، وانتشروا في الأرض يعملون على رفع كلمة الله... الخ.

أقول: إن اعتراف دائرة المعارف البريطانية، اعتراف بالحقيقة، اعتراف يستحق حسن التقدير، اعتراف يستوجبه الإنصاف ويقتضيه واجب الخدمة للعلم والتاريخ، وليس هذا الأعتراف اعترافاً فردياً أو شخصياً، وإنما هو إعتراف عن لسان دائرة المعارف التي تنسب إلى بريطانيا، وتؤلف وتطبع على نفقات حكومتها الملكية.

نعم: إنه يستحق حسن التقدير.

أما نجاح نبي الإسلام، محمد عليه الصلاة والسلام (مع فشل محاولة اليهودية والمسيحية، والمحاولات السابقة) في إصلاح تلك الحياة الجاهلية، واقتلاع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب، وتحويل أبناء العرب إلى دعاة الهدى والإرشاد، (بل إنتشار دعوته بسرعة غير مسبوقة إلى ربوع العالم) فإن كله بسبب أن الدين الذي جاء به دين فطري ترحب به الفطرة البشرية على إختلاف أجناسها وألوانها ﴿أقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. (الآية ٣٠ من سورة الروم).

٥٥ ـ وقال الدكتور شبلي شميل المسيحي المعروف:

«إن محمداً (ﷺ) أكمل البشر من الغابرين والحاضرين، ولا يتصور مثله في الآتيين.!».

أقول: إن اعتراف الدكتور شبلي تعريف لشخصية محمد ﷺ ولرسالته ونبوته بما هو الحق الذي تستحقه الذات المحمدية، مع ما فيه الإشارة إلى قوله تعالى:

﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم، ولكن رسول الله خاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً﴾. (الآية ٤٠ من سورة الأحزاب).

٥٦ ـ وقال جونس أوركس الأديب الإنجليزي:

«لم نعلم أن محمداً نبي الإسلام (صلوات الله وسلامه عليه) تسربل بأى رذيلة مدة حياته».

٥٧ ـ وقال غوستاف لوبون الفرنسي:

«إن محمداً (ﷺ) رغم ما يشاع عنه (يعني من قبل المخالفين له في أوروبا) قد ظهر بمظهر الحلم الوافر والرحابة الفسيحة إزاء أهل الذمة جميعاً».

٥٨ ـ وقال المسيو جان سبيرو السويسري:

«إنه مهما زاد الإنسان إطلاعاً على سيرة محمد النبي (عليه الصلاة والسلام) لا بكتب أعدائه وشائنيه، بل بتأليفات معاصريه، وبالكتاب والسنة، إلا وأدرك أسباب إعجاب الملايين من البشر في الماضي، حتى الآن بهذا الرجل، وفهم علة تفانيهم في محبته وتعظيمه».

٥٩ ـ وقال السر فلكد الأمريكي:

«كان عقل محمد النبي (ﷺ) من العقول الكبيرة التي قلما يجود بها الزمان، فقد كان يدرك الأمر ويدرك كنهه من مجرد النظرة البسيطة، وكان النبي محمد (ﷺ) في معاملاته الخاصة على جانب كبير من إيثار العدل، فقد كان يعامل الصديق وغيره، والقريب والبعيد، والغني والفقير، والقوي والضعيف، بالمساواة والإنصاف».

ثم قال السر فلكد (بعد أن تحدث عن غزوات محمد ﷺ وانتصاراته) ما ترجمته:

«وكل هذه الانتصارات والفتوحات لم توقظ في محمد النبي أى شعور بالعظمة والكبرياء، كما يفعل ذلك من كان يتأثر بالأغراض الشخصية، في هذا الوقت الذي وصل فيه إلى غاية القوة والسطوة، كان على حالته الأولى في معاملته ومظهره، حتى كان يغضب عندما يرى من أهل المجلس الذي يقدم عليه احتراماً أكثر من العادة، وكانت الثروة تنهال عليه من الغنائم وغيرها، ولكنه كان يصرفها على نشر دعوته ومساعدة الفقراء.

وفي الختام قال السر فلكد: وكان محمد يجد راحته وعزاءه في أوقات الشدة والمحنة، في الثقة بالله ورحمته معتمداً دائماً على الله ليتمتع بالحياة الأخرى».

٦٠ ـ وقال جان جاك روسو:

«من الناس (يريد الأوروبيين) من يتعلم قليلاً من العربية، ثم يقرأ القرآن، ويضحك منه، ولو أنه سمع محمداً (ﷺ) يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة، وبصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب، والتفت إلى أنه كلما بدت أحكامه أيدها بقوة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان، لخر ساجداً على الأرض وناداه: «أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والأفتخار، أو إلى مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نود الموت أو الأنتصار!».

٦١ ـ وقال برنارد شو الكاتب الإنجليزي المعروف:

«إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد (ﷺ) وبدأت تعشق دينه، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية مما اتهمتها به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى، وسيكون دين محمد هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة، ويستند على فلسفته في حل المعضلات وفك المشكلات والعقد»:

ثم قال: «وإن كثيرين من مواطني ومن الأوروبيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، ولذلك يمكنني أن أؤكد نبؤتي فأقول: إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة!».

أقول: إن اعتراف برنارد شو تعبير عن الحقيقة الجارية في قارة أوروبا اليوم، وأما نبوءته بشأن العصر الإسلامي الأوروبي فإنها ستتحقق نظراً لما في الدين المحمدي من مبادىء وتعاليم تتمشى مع روح العصر، وتقتضيها الطبيعة البشرية مما يؤدي بالمنصفين إلى اعتناقه بكل رغبة وافتخار.

وإن أوروبا اليوم لفي أشد حاجة إلى الدين الإسلامي، في حل مشكلات الحياة التي أحاطت بها، وأعجزت عقول المفكرين عن حلها، وإنقاذها منها.

٦٢ ـ وقال بورست سميث:

«إني صميم الأعتقاد على أنه سيأتي يوم يتفق فيه القوم وزعماء النصرانية الحقة على أن محمداً (ﷺ) نبي، وأن الله (عز وجل) قد بعثه حقاً».

أقول: إن اعتراف هذا الأوروبي المنصف بشأن سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ يستحق التقدير، كما أن قوله: «النصرانية الحقة» قول له رمزه ومغزاه.

نعم: إن زعماء النصرانية الباطلة لا يخضعون لدى الحق ويقودون أقوامهم النصرانيين ضد الحق، وأما زعماء النصرانية لا يستكبرون، كما وصفهم الله عز وجل في كتابه وقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، ومالنا لا نؤمن بالله، وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين؟﴾. (الآية ٨٣ ـ ٨٤ من سورة البقرة).

٦٣ ـ وقال القس لوزان بعد بيان عن أوصاف محمد ﷺ:

«فمحمد (ﷺ) (بلا التباس ولا نكران من النبيين والصديقين، بل وإنه نبي عظيم جليل القدر والشأن، لقد أمكنه بإرادة الله سبحانه تكوين الملة الإسلامية وإخراجها من العدم إلى الوجود، بما صار أهلها ينيفون (يزيدون) عن الثلاثمائة مليون (يعني على ظنه في زمانه) من النفوس، ورامو بجدهم سلطنة الرومان، وقطعوا برماحهم دابر أهل الضلالة إلى أن صارت ترتعد من ذكرهم فرائص الشرق والغرب».

٦٤ ـ وقال برنارد شو:

«إني أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم، لتم النجاح له في حكمه، ولقاد العالم إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم كله السلام، والسعادة المنشودة».

أقول: ولا شك في أن برنارد شو (الذي حقق الدين الإسلامي، ودرسه دراسة عميقة مع تعاليم رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام في العصر العشرين) قد أنصف إنصافاً يستحق التقدير والأستحسان.

ومما ثبت أن الدين الإسلامي دين علمي، ذلك لأن محمداً نبي الأسلام قد بعث إلى العالم كله يدل عليه قول الله سبحانه ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. (الآية ٢٨ من سورة سبأ).

وقوله عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وهنا آية أخرى تثبت أن رسالة محمد ﷺ رسالة عالمية، وإلى القراء مع تفسيرها للإمام النسفي:

وهي قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ أي لو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى (العالم) ولبعثنا في كل قرية نبياً ينذرها، ولكن شئنا أن نجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كافة العالمين، فقصرنا الأمر (أمر الرسالة) عليك وعظمناك به، فتكون وحدك ككلهم «فلا تطع الكافرين» فيما يدعونك إليه «وجاهدهم به» بالقرآن «جهاداً كبيراً» تحقيقاً لرسالتك إلى كافة العالمين» (الآية ٥١ من سورة الفرقان).

ولقد أعلن محد بن عبد الله ﷺ هذه الرسالة العالمية للعالمين تأدية للأمانة حيث قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب من مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة».

رواه الأمامان البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وأقول: فمن حق محمد ﷺ أن يقود (كما قاد) العالمين، وأن يكون دينه (كما كان) دين العالمين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون! إنه لرسول علمي ودينه دين عالمي، وقد صرح المؤرخ الكبير أرنولد فيما اعترف به حيث قال: «لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيباً فيه، ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة».

«أقول»

هذه جملة مقتطفة من الأعترافات التي أبداها بعض فلاسفة أوروبا وكبار كتابها وأحرار نقادها وكبار الباحثين بشأن محمد بن عبد الله ﷺ.

وقد صرحوا بها بعد دراسة وعلم، وتحقيق ويقين، وعن إنصاف وإنسانية، واجترأوا بإدلائها على رؤوس الأشهاد، وقاموا بنشرها في المؤلفات، وعلى صفحات الصحف، ولو ضد معتقدات آبائهم وأجدادهم، وضد معتقدات المجتمع الغربي الذي يعيشون بين ظهرانيه مما يعد خطراً على حياتهم، وعلى الأقل على راحتهم وسائر شئونهم الحيوية، ويعد تضحية منهم لمصالحهم الشخصية.

وذلك عن إذعان لنواحي الحق، وعن إنسانية سامية، وحرية صادقة، ولكن (كما أشرنا إليه) بعد ما حققوا حول نبوة محمد نبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، وحول رسالته الحقة، وبحثوا بحثاً دقيقاً (بحث المخالف في بادىء الرأى، أو بحث الناقد الحر الذي لا يلين بسهولة) حول تاريخ حياته وسيرته، وسنته وشريعته، وحول ما ترك بعده من أثر في قلوب المجتمع العالمي، وانقلاب عظيم مبارك في حياة البشرية، ولا سيما حول أسباب انتشار دينه الفطري العالمي الخالد الأبدي.

فقد وجدوا في شخصية النبي العربي الكريم، والرسول الأمي العظيم، كل ما يدل على صدق نبوته، وصحة رسالته وأمانته، وسمو أخلاقه وإنسانيته، ووجدوا في سننه القدسية، وتعاليمه السماوية، كل ما يتفق مع العقل البشري والضمير الإنساني، وما ينطبق على الحكمة والمنطق في هذه الحياة، وما يتمشى مع المدنية السلمية، والنهضة الصحيحة التي ينشدها الإنسان بإنسانيته، ويرغب إليها بمقتضى بشريته ويستسيغها بطبيعته وفطرته.

كما وجدوا في السنن المحمدية، وما فيها من الشئون العرفانية، والدينية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية، أريد أن أقول وجدوا فيها ما ينقذ العالم من التقاليد الزائفة، والطقوس الباطلة، والمبادىء الهدامة، والأفكار المضطربة التي سادت ولا تزال تسود على ربوع الغرب (أوروبا وأمريكا) شرقها وغربها جنوبها وشمالها، حتى في هذا العصر، عصر العلم والمعرفة، عصر التقدم في كشف الحقائق، ورموز الحياة وأسرار الكون.

نعم: هذه إعترافات اقتطفتها واكتفيت بروايتها، وعرضها على العالم، ولا سيما جيل الشباب الناشيء، رجال مستقبل البشرية وزعماء مقدرات الإنسانية، في مشارق الأرض ومغاربها بشأن نبي الإسلام، ورسول الإسلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، الذي بعثه الله للناس كافة، وأرسله للعالمين رحمة، والذي فاق الأنبياء والمرسلين، بصفاته وخصاله، وتعاليمه وأفعاله مما أنطق المنصفين بالأعتراف، وأدى بهم إلى كلمة الحق والإنصاف، تأييداً لما هو الحق، ونصرة لما جاء به من الحق.

ورحم الله العالم الجليل البوصيري شاعر وادي النيل، حيث يقول:

فاق النبيين في خلق وفي خلق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم
منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. آمين.

* * *

لقد تم تأليف الجزء الأول من هذا الكتاب، ويليه الجزء الثاني وهو القسم الرابع «تعاليم الإسلام العامة» مع اعترافات الأجانب المنصفين.

والحمد لله أولاً وآخراً.

وكان ذلك ليلة الجمعة ٢٨ شعبان سنة ١٣٨٧هـ (٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٧م).

مراجع كتاب «إلى الدين الفطري الأبدي»

القرآن المجيد.
تفسير الإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.
تفسير الإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف ب «الخازن».
صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
شرح الإمام القسطلاني، على هذا الصحيح.
صحيح الإمام مسلم القشيري.
شرح الإمام النووي على هذا الصحيح.
مشكواة المصابيح.
مرقاة المفاتيح، شرح مشكواة المصابيح، للإمام علي القاري.
إحياء علوم الدين، للإمام محمد الغزالي.
زاد المعاد، في هدى خير العباد، للإمام إبن قيم الجوزيه.
نور اليقين، في سيرة سيد المرسلين، للشيخ محمد الخضري المصري.
كتاب الفقه على المذاهب الأربعة.
كتاب «الهداية» للإمام برهان الدين المرغيناني التركستاني.
الفتاوى العالمكيرية، في الفقه الحنفي.

مراجع اعترافات الأجانب المنصفين

* صحيفة الهداية، والصراط المستقيم: منشورة جمعية الهداية الإسلامية في بغداد.

ذكرى ١٢ ربيع الأول لسنة ١٣٥١ ولغيرها، منشورة هذه الجمعية.
الإسلام دين عام خالد، للعلامة فريد وجدي المصري.
المستشرقون والإسلام، للمهندس زكريا هاشم زكريا.
الإسلام دين عالمي إنساني، للدكتور علي حسني الخربوطلي.
وجوب الأتحاد الإسلامي، محاضرة المؤلف، إجابة لدعوة المرحوم الدكتور محمد إقبال فيلسوف باكستان.

فهرس الجزء الأول من كتاب

«إلى الدين الفطري الأبدي»

الموضوعات	الصفحة
إجمال من ترجمة حياة المؤلف	٣
بدء الكتاب ـ المقدمة	١١
التدين	١١
الإسلام ومقتضيات الفطرة	٢٤
إبراهيم وأبوه وقومه	٢٥
التفكر في الكون والنعم	٢٧
الآيات البينات	٢٨
معرفة الرب بمعرفة النفس	٣٨
شعراءالإسلام ووجود الخالق	٤٠
شعور كل مخلوق بوجود الخالق	٤٢
حكايات في هذا الباب	٤٤
وحدانيته	٤٦
مشرك وملاح	٤٧
وهناك آيات	٤٨
القول الحق بشأن عيسى عليه السلام	٤٩
لمزيد العلم واليقين	٥٦
إبطال قول اليهود بشأنه ورفعه إلى السماء	٦٢
إفادة مزيدة	٦٣
نزول عيسى وإيمان أهل الكتاب به	٦٧
وشهد شاهد من أهلها	٦٨
وثيقة أخرى	٧٥

الموضوعات	الصفحة

بعض سطور النص ٧٦
أما عبادة الخالق عز وجل ٧٧
وأما سائر أركان الإسلام وأحكامه ٧٩
تفاؤلي بأنباء السير إلى الفضاء ٨٣
القسم الأول ٨٥
سرعة انتشار الإسلام، مع إعترافات الأجانب المنصفين ٨٥
تمهيد لاعترافات الأجانب ٩٣
اعتراف الأجانب في سبب سرعة انتشار الإسلام ٩٦
القسم الثاني ١٠٥
القرآن: مع اعترافات الأجانب المنصفين ١٠٥
نزول القرآن ١٠٦
نزول القرآن بالتنجيم ١٠٦
نزول القرآن بالعربية ١٠٧
اعتراف العرب بالقرآن ١٠٨
حفظ القرآن من قبل الصحابة ١١٠
كتابة القرآن على الرقع وغيرها ١١٠
عرض القرآن على جبريل في رمضان وعرضه من قبل الصحابة
على رسول الله ١١١
قراءة القرآن في الصلوات وختمه في التراويح ١١١
كتابة القرآن وجمعه في الصحف ١١٢
كتابة القرآن في المصاحف ١١٤
مما يجب أن يعلم ١١٥
نبذة من أوصاف القرآن ١١٦
ما هو سبب انحطاط المسلمين ١١٧
إفادة ١٢٠
إفادة وتنبيه ١٢٤
إفادة ١٢٥
دلالة واقعة الجن ١٢٦
تنبيه ١٢٨

الموضوعات	الصفحة
إيذاء الرسول في تبليغ القرآن	١٣٣
قصة النجاشي مع المهاجرين وإيمانه	١٣٥
ما ورد من الأحاديث النبوية بشأن القرآن	١٣٨
الحديث الأول	١٣٨
الحديث الثاني	١٣٩
الحديث الثالث	١٣٩
الحديث الرابع	١٤٠
الحديث الخامس	١٤٠
الحديث السادس	١٤١
الحديث السابع	١٤٢
اعترافات الأجانب المنصفين	١٤٤
القسم الثالث ـ رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام مع اعترافات الأجانب المنصفين والتعليقات المهمة عليها	١٧١
سيرته في قومه قبل بعثته	١٧٣
تبشير التوراة بمحمد ﷺ	١٧٧
تبشير الإنجيل بمحمد ﷺ	١٧٩
إسرائيل ليست بدولة واليهود لا يزالون في الذلة	١٨٣
التلمود ينص على بقاء الذلة	١٨٩
دلالة الحوادث على بعثته	١٩٠
العالم قبل بعثة رسول الإسلام	١٩٥
دولة الفرس والرومان	١٩٦
الإنحلال السياسي والأجتماعي في الفرس	١٩٦
أما الرومان	١٩٧
العداوة بين الرومان واليهود	١٩٨
انحطاط الأخلاق بين الرومان	١٩٩
الهند	١٩٩
الجزيرة العربية	٢٠٠
بعثة محمد ﷺ	٢٠٥
الإيذاء بالأصحاب رضي الله عنهم	٢٠٧

الموضوعات	الصفحة
وفد نجران	٢٠٩
وفاة خديجة رضي الله عنها	٢١٠
خروجه ﷺ إلى الطائف	٢١١
وفد دوس	٢١٣
الإسراء والمعراج	٢١٤
هل رأى محمد ربه سبحانه؟	٢١٦
إلقاء ضوء جديد على الموضوع	٢٢٠
إن حادث الإسراء والمعراج معجزة	٢٢٣
بدأ إظهار الدين على أيدي قريش	٢٢٦
بدأ تعليم القرآن وتفقيه المسلمين بالمدينة	٢٢٩
هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة	٢٣٢
مؤامرة قريش بشأن الرسول ﷺ	٢٣٢
هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة	٢٣٣
مدة إقامته بمكة بعد بعثته	٢٣٩
وصوله ﷺ إلى قباء	٢٤٠
الوصول إلى المدينة	٢٤٠
وفي الختام	٢٤٢
إعترافات الأجانب المنصفين برسول الإسلام عليه الصلاة والسلام	٢٤٤
اعتراف جرجس سال	٢٢٢
اعتراف أميل دير مانجم	٢٤٥
اعتراف دينيس سورا	٢٤٦
اعتراف توماس كارليل	٢٤٦
اعتراف وليام ميوير	٢٤٧
اعتراف كارادي فو	٢٤٧
اعتراف جاردان دي تاس	٢٤٧
اعتراف ليك	٢٤٨
اعتراف تولستوي	٢٤٨
اعتراف لين بول	٢٤٩
اعتراف جولد تسهير	٢٥٠
اعتراف القس لوزون	٢٥٠

الموضوعات	الصفحة
اعتراف لورد هدلي	٢٥١
اعتراف سنكس	٢٥٦
اعتراف أميل دير مانجم	٢٦٢
اعتراف مدام بيرون	٢٦٣
اعتراف ليك	٢٦٣
اعتراف فسواني. ت. ل	٢٦٤
اعتراف تولستوي	٢٦٤
اعتراف وليم موير	٢٦٥
اعتراف ليك	٢٦٦
اعتراف لويل توماس	٢٦٦
اعتراف إدوارد وروميي	٢٦٨
اعتراف البستاني	٢٧٢
اعتراف شبلي شميل المسيحي	٢٧٢
اعتراف أدموند بيرك	٢٧٢
اعتراف لامارتين	٢٧٢
اعتراف فنلي	٢٧٢
اعتراف توماس كارليل	٢٧٣
اعتراف جول لابوم	٢٧٤
اعتراف دوزي	٢٧٦
اعتراف كوسان دوير سوفال	٢٧٧
اعتراف وينسون	٢٧٨
اعتراف جيمس متشبر	٢٧٨
اعتراف جول لابوم	٢٧٩
اعتراف كاتبة انجليزية	٢٨٠
اعتراف كونت هنري دي كاستري	٢٨٤
اعتراف لامارتين	٢٩٠
اعتراف هـ. ج. ويلز	٢٩٢
اعتراف كارليل	٢٩٢
اعتراف برنارد شو	٢٩٧
اعتراف وليم موير	٢٩٧

الموضوعات	الصفحة

اعتراف توماس أرنولد ٢٩٨
اعتراف جولد تسهير ٢٩٨
اعتراف عبد المسيح الأنطامي ٢٩٩
اعتراف أميل دير مانجم ٣٠١
اعتراف وولتر ٣٠٢
اعتراف بارتلمي سنت هيلر ٣١٢
اعتراف طوراندريه وجورج مارسيه ٣١٣
اعتراف دائرة المعارف البريطانية ٣١٣
اعتراف جونس أوركس ٣١٥
اعتراف غوستاف لوبون ٣١٥
اعتراف جان سبيرو السويسري ٣١٥
اعتراف السر فلكد الأمريكي ٣١٥
اعتراف جان جاك روسو ٣١٦
اعتراف برنارد شو ٣١٦
اعتراف بورست سميث ٣١٧
اعتراف القس لوزان ٣١٧
اعتراف برنارد شو ٣١٨
تعليق المؤلف وخاتمة الجزء الأول ٣١٩